الدكتور
سُهيل زكار

الدكتور
أُمينة بيطار

تاريخ الدولة العربيّة في المشرق

من السلاجقة حتى سُقوط بغداد

مطبعة جامعة دمشق

المقدمـــــــــــة

تعـد الفترة التي تعالجها كتاب تاريخ الدولة العربية في المشرق من السلاجقة حتى سقوط بغداد ، من الفترات الهامة حدا بالنسبة للعالمين العربي والاسلامي ، تعرضت خلالها المنطقة الى عدد من القوى ، على رأسها السلاجقة التركمان الذين انتزعوا خراسان من الغزنويين ، ومالبثوا ان اتبعوها بالسيطرة على بغداد ، حتى اصبحوا سلاطين فيها ، وامتدت سلطتهم الى الجزيرة الفراتية وبلاد الشام ، في الفترة نفسها التي كانت فيها الخلافة الفاطمية تسيطر على جنوب بلاد الشام وساحله •

وقد وقع صراع بين الفاطميين والسلاجقة ، أسفر عن انحسار نفوذ الفاطميين عن جزء كبير من بلاد الشام ، ولم تسلم القاهرة من ذلك ، فقد تعرضت لهجمات التركمان عليها ، الا انها نجت من الخضوع لهم •

انقسم السلاجقة بعد عصر السلاطين الكبار طغرل بك ، وآلب ارسلان ، وملك شاه على انفسهم الى دويلات متعددة ، واتابكيات ، فتزعزعت قوتهم في المشرق والشام ، على حين انها كانت تتنامى في اسية الصغرى ، وتكتسح اراضي الامبراطورية البيزنطية ، الامر الذي دفعها الى الاستنجاد بقوى اوربه ، وعلى رأسها البابوية • وقد اسفر ذلك ، اضافة الى عوامل اخرى

متعددة عن قيام الغرب بغزو المشرق ، او قيام ماعرف في التاريخ باسم الحملات الصليبية الفرنجية ، التي تعرضت لها بلاد الشام ثم مصر •

وقد تمكن الفرنجة الصليبيون من احتلال اجزاء من بلاد الشام وسواحلها ، وكان لابد من قيام عرب الشام وحكامهم من المسلمين بالعمل جاهدين على دحر هذه القوى المحتلة ، فوحدوا قواهم على يد الزنكيين أولا ثم على يد الايوبين الذين استطاعوا في عصر قوتهم ايام صلاح الدين تقليص المساحات المحتلة ، وتحرير مناطق متعددة على رأسها بيت المقدس ، حتى أصبح الفرنجة الصليبيون لايملكون سوى بعض القلاع والمدن الساحلية ، ومع ذلك ، فان اعتماد حكام المناطق المحتلة على الدعم الغربي، ووصول أعداد كبيرة بقيادات رفيعة المستوى في بعض الاحيان، مثل الحملة الثالثة التي قادها ثلاثة من كبار ملوك اوربه بعد انحسار قوتهم ايام صلاح الدين أدى الى اعادة احتلالهم ثانية لبعض المدن • وبقي الامر كذلك حتى استطاع المماليك اخراجهم نهائيا من بلاد الشام •

وهكذا كان الجهاد المقدس عنوان هذه الفترة ،ولم يقتصر الاهتمام بالتعليم وفتح مدارس متعددة في بلاد الشام ومصر ،ساعدت على تكوين طبقة متعلمة شملت الرجال والنساء ،وتقدمت العلوم الدينية والتاريخية وغيرها من دون العلوم العقلية والفلسفية ،وأصبح مشرق العالم العربي الاسلامي ،يعج بالمدارس على اختلافها •

كما امتازت هذه الفترة بتوطيد الجيش الاقطاعي الذي ظهرت خدماته في الحروب التي خاضها صلاح الدين بالدرجة الاولى وخلفائه في الدرجة الثانية ،كما امتازت بنشاط البحرية ودعمها للجيوش البرية ،وان كان الجيش البحري قد فقد نشاطه وأهميته في نهاية هذا العصر . ويضاف الى ذلك أهمية هذه الفترة من الناحية الفنية والعمرانية ،الى جانب ميزات اجتماعية انفردت بها .

ويمكن القول ان الخوض في تفاصيل احداث المشرق في هذه الفترة يحتاج الى مجلدات عدة ،والى ساعات درسية اكثر مما قرر له . ولذا لابد من الاختصار والاختيار ليتناسب مع ماحدد له من الزمن .

وقد اشترك في تأليف هذا المقرر الدكتور سهيل زكار حيث قدم الفلصين الاول والثاني ، والدكتورة امينة بيطار في الفصلين الثالث والرابع .

ولاشك أن ماقدم في هذه الفصول يعطي صورة واضحة لمعالم هذه الفترة ، وان كان ماقدم يقصر عن الهدف ، فسيكون في المحاولات القادمة مايعوضه ، والله ولي التوفيق .

سهيل زكار   آمينة بيطار

الفصـــــل الاول

القرامطـــــة ـ الخلافـة الفـاطمية

آ ـ القرامطـــة :

لاقى تاريخ القرامطة في العصر الحديث ـ ومازال يلاقي ـ عناية كبيرة من قبل عدد كبير من الباحثين ، قد كثر عدد العرب بينهم في الاونة الاخيرة ، ومع أن هذه العناية أمر يبعث على الارتياح ، الا انه من الملاحظ أن بعضا من الانحراف قد ألم ببعض الكتابات ، بخاصة العربية منها ، اذ أراد بعض الكتاب (عصرنة حركة القرامطة) بجعلها تشبه بعض حركات عصرنا ، هذا الذي نعيشه يضاف الى هذا أن بعض الكتاب بحث في تاريخ القرامطة اعتمادا على المشهور المتيسر من المواد الاخبارية ، واقتصر على معالجة أحداث العراق والشام وأخيرا دولة الاحساء .

لاشك أن في هذا تقصيرا ، اذ ينبغي على الباحث بالتعليل التاريخي على حسب معطيات عصر الحادثة ، وليس حسب متطلبات العصر الحاضر ، فصرخة احتجاج ونداء بالمساواة في عصر كان فيه الانسان يباع ويشرى ، تعدل ، ان لم تفق ، كل اصوات ثوار الحركات الاجتماعية في ايامنا هذه ، ثم ان قواعد البحث التاريخي تقضي على الباحث التقصي في عمله والتفتيش عن مصادر جديدة ، مع تقديم رؤى جديدة تحليلية للنصوص المتوفرة ، ولنتذكر هنا ان خزائن الكتب العربية ماتزال تحوي عددا غير معروف من كتب التاريخ ومصادر

أخبار الماضي فيها مايزيل الحجاب عن كثير من الامور ، ويساعد على رسم صورة للماضي العربي أكثر وضوحا واشراقا ، ولاشك أن معرفة الماضي بشكل أصح ، يساعد كثيرا على فهم الحاضر ومن ثم التخطيط للمستقبل ، ونزيد على هذا ان نشاط القرامطة لم يقتصر على الشام والعراق والاحساء ، بل وجد في اليمن ·

ان في دراسة تاريخ قرامطة اليمن ليس اضافة فصل جديد للتاريخ العام لهذه الحركات ، ولكن فيه فتح باب جديد في البحث في أصل القرامطة ومنشأ دعوتهم وأصلها ، ففي الماضي ذهب الباحثون الى جعل العراق مهد القرامطة ، ودار نشأتها ، وقد اعتادوا على الربط بينها وبين الدعوة الاسماعيلية ·

لاشك ان البحث هنا يوجب علينا اولا التعرف الى تاريخ الدعوة الاسماعيلية ، أو بالحري تاريخ الدعوات الاسماعيلية ،والبحث في تاريخ الاسماعيلية يحتاج بدوره الى البحث في قيام التشيع وتطور حركاته ·

لقد واجه المسلمون أولى ازماتهم الكبيرة يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد سبق وفاته انه أصيب صلى الله عليه وسلم بمرض الزمه الفراش ، وجعل غالبية المسلمين يشعرون بدنو أجله ، ودنو المخاطر مع هذا الاجل ، فقد بدأ الناس عن المستقبل ، ويطرحون مشكلة الحكم والزعامة بعد غياب النبي، ويبدو أن صدى هذه التساؤلات والابحاث قد وصل الى النبي ، وهنا تذهب بعض الروايات الى ان النبي أراد ايجاد حل ، عن طريق كتابة وصية ، لكنه لم يمكن من رغبته هذه ، وتذهب روايات اخرى الى انه لم يفعل ذلك ولم يفكر به ، لان الحل كان هناك فهو

صلى الله عليه وسلم لم يكن حاكم الامة الاسلامية ولامشرعها ، بل كان رسول الله ، وفي الاسلام الله هو الحاكم المشرع ، والله اختار نبيه وأوحى اليه بجميع ما احتاج اليه العباد ، ولهذا لم يكن وارد بالاصل لدى النبي تسمية حاكم من بعده ، ثم ان منطق التاريخ وقواعد الاسلام هي ضد قيام اسرة حكم مقدسة على أساس أن في تسمية النبي لرجل يتسلم السلطة من بعده تشريعا لاتجوز مخالفته ، بل له صفة الديمومة ، وهو توريث لجزء من النبوة ، والانبياء لايورثون والنبي محمد صلى الله عليه وسلم هو آخر الانبياء وخاتم الرسل ....

ولابأس هنا من الاشارة الى ان بعضهم قال : ان النبي لم يكتب وصية او بالحري لم يفكر بكتابة وصية يوم مرضه الاخير، لأنه سبق له ان أوصى تلميحا وحتى تصريحا بالسلطة من بعده لابن عمه علي بن ابي طالب ، وجعله وصيا على المسلمين وراعيا لتنفيذ شريعة الله ، وانه صلى الله عليه وسلم خشية منه ان يتآمر بعضهم ضد علي ، فيحول دونه ودون تسلم هذه الوصاية ، قام قبل وفاته بتشكيل جيش كبير أوكل قيادته لأُسامة بن زيد ، وجنّد فيه شخصيات الصحابة جميعا – فيما عدا عليا بن ابي طالب – واراد أن يذهب هذا الجيش نحو الشام ، وان يعود فيجد النبي قد توفي ، وعلي قد تسلم مقاليد الامور ، لكن هذا الجيش لم يتوجه مباشرة الى حيث أمر ، بل ظل يسوف ويدافع الوقت حتى توفي النبي صلى الله عليه وسلم ، فقام بعض جنوده (ابو بكر – عمر – ابو عبيدة) بالاستيلاء على السلطة مستغلين انشغال علي وآله في غسل النبي وتجهيزه .

هذا ماتورده المصادر الشيعية بخاصة الاسماعيلية منها ، ونجده عند القاضي النعمان في الارجوزة المختارة وعند غيره ،وتربطه هذه المصادر بابحاث مستفيضة حول قضية الامامة واستمراريتها دون انقطاع منذ الخليفة وحتى نهاية الحياة ٠

وهذا الربط يساعد على نقد هذه الرواية ، ويدعم الروايات التاريخية الاخرى عن مجريات الامور ، لان القول باستمرارية الامامة صار بعد ما نشأت فكرة الامامة وتطورت خلال مالا يقل عن قرنين من الزمن ، تم خلالهما الاطلاع على العديد من الديانات والفلسفات فاستعير الكثير منها ٠

كل مافي الامر انه عندما توفي النبي صلى الله عليه وسلم ، تسارع أهل المدينة من الانصار - من الأوس والخزرج - الى الاجتماع خارج المدينة في مكان عرف باسم سقيفة بني ساعده وقرروا اختيار سعد بن عباده اميرا ، واقدامهم على الاجتماع بمثل هذه السرعة يدل على خطة مرسومة سلفا ، ولربما ان هذه الخطة لم تكن سرا محكما ، لهذا نجد أن أبا بكر ما ان يعلم بخبر وفاة النبي ويتأكد منه حتى يسرع بالتوجه نحو سقيفة بني ساعده مصطحبا معه صاحبيه عمر وابي عبيدة عامر بن الجراح ٠

وفي السقيفة ، استطاع ابو بكر احباط خطط الانصار،وجعل اجتماعهم يرفض دون تحقيق ماتمنوه ، بل على العكس من ذلك تم في اجتماع السقيفة كما هو معلوم اختيار ابي بكر لزعامة الامة وساعد على ترسيخ هذا الاختيار تلاحق الاحداث وتطور الامور ٠ فقد كان ابو بكر منذ اسلامه (ثاني اثنين) في الامة الاسلامية

اليه اوكل النبي قيادة الصلوات اثناء مرضه ، ثم كان قرشيا له مكانته السامية ، ولديه كل المؤهلات للقيام بواجبات المسؤولية التي ألقيت على عاتقه .

ودون التوسع في هذا المجال ، محيلا القارئ الكريم الى كتابي " تاريخ العرب والاسلام " و (مائة اوائل من تراثنا " يكفي ان نذكر انفسنا ان تجهيز الميت لايحتاج الى ايام ثلاثة ، فمعلوم ان وفاة النبي حدثت يوم الاثنين وتم دفنه يوم الاربعاء، وكل مافي الامر انه عندما توفي صلى الله عليه وسلم كان الذكور من اسرته ـ بني هاشم ـ عددهم قليل قوامهم علي وعمه العباس ولم يكن هناك وفاق بين الاثنين ، ثم كان علي مايزال شابا في مقتبل العمر بدون تجربة سياسية وبدون شعبية كافية واعوان لهم مكانتهم بين المهاجرين وسواهم .

لقد تمت بيعة الصديق ، فأرسى قواعد مؤسسة الخلافة ،وقضى على الردة وشرع في اعمال الفتوحات الكبرى ، وبعد عامين توفي ، فخلفه من بعده ـ بناء على وصيته عمر بن الخطاب ، الذي كان منذ يوم اسلامه ثالث اثنين في سلم الزعامة لدى المسلمين ، وقام الفاروق بأعباء الخلافة خير قيام ، وفي عصره تمت انجازات رائعة في جميع المجالات ، وكانت علاقته بعلي بن ابي طالب ممتازة ،لعل أفضل شاهد عليها زواجه من احدى بنات علي .

لقد كانت مشكلة الحكم واختيار الخلفاء من مشاغل عمر بن الخطاب الرئيسة ، وقد سعى لوضع خطة دائمة يتم على أساسها اختيار الخلفاء ، فهو قد رأى ان الخلافة حق محصور في قريش ،

ولايجوز لغير قرشي ، ويبدو أنــه ايضا رأى أن عشرة بيوت من قريش هي التي يجوز اختيار الخلفاء منها ، ومثّل هذه البيوت آبرز الصحابة الذين عرفوا بالعشرة المبشرين بالجنة ، ثم انه رأى ان الخلافـــة لايجوز تناوبها في البيت القرشي الواحد ، فاذا مات الخليفة لايجـوز آن يكون الخليفة الجديد من بيته حتى وان كان المرشح هو الافضــل ، وهنا يقتضي الحال اختيار المفضول مع وجود الافضل .

ويمكن ان نرى ملامح هذه الخطة وأسسها العامة في وصيتــه يوم طعــن ، وفي قيام ما يعرف باسم (شورى الستة) فبعدما توفي عمر اجتمع الباقون من الصحابة المبشرين بالجنة ، وكان ابـــرز المرشحين بينهم كل من علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان ، وبعد جدل طويل تم اختيار عثمان بن عفان للخلافة .

وكان عثمان شيخا ، فيه طيبة نفس وكرم وعناد ، وحــب وآثره لآلــه ، ويمكن ان نقسم عهده الى قسمين : الاول كان حكمه فيه عبارة عن استمرار لعصر عمر بن الخطاب ، والثاني عصره هو ، وهذا العصر كان من حيث الواقع نهاية للعصر الراشدي ، وبدايـــة لعودة بني آميه مع الارستقراطية العربية الى زعامة العرب ، برغـم الهزيمة التي حلت بهذه الارستقراطية يوم فتح مكة وانتصار الاسلام ومبادئـه . وعودة الارستقراطية بعد هزيمتها كانت اولى النكسات وأعظم الضربات التي وجهت لثورة الاسلام ، ومن المدهش حقـــا ان الامويين في مستقبل الايام عندما فقدوا الحكم فقدوه لصالـــح العباسيين الذين كان جدهم ينتمي الى الارستقراطية المالية لمكـة ، وهو قد آسلم مع أبي سفيان في يوم واحد ومناسبة واحدة .

بدأ القسم الثاني من عصر عثمان ، حين عزل ولاة عمر وعماله وعين بدلا منهم جماعة من اقربائه وذويه من بني أمية ، ونتيجة لهذا وللسياسات المالية وغير ذلك عارض المسلمون حكم عثمـــان ، وتطورت المعارضة الى ثورة وجاء عدد من الثوار الى المدينة حيــث حاصروا عثمان ، وانتهى بهم المطاف الى قتله .

واثناء اشتداد المعارضة لعثمان برز علي بن ابي طالب على رأس المسلمين وتصدر جماعتهم ، وكان الناس يفرون اليه عند احتدام الازمات ورأى فيه جند بعض الامصار بخاصة أهل الكوفة ، الرجـل الذي على يديه يتم تجاوز الازمات ، وبقيادته يمكن العودة الــى الصراط المستقيم ، وحيث كانت غالبية الثوار على عثمان من أهـل الكوفة فقد اختاروا عليا للخلافة بعد مصرع عثمان .

لقد كانت التركة التي ورثها علي ثقيلة للغاية ، فقد وجد نفسه امام عدد لايحصى من المشاكل ، وعلى رأس ذلك جماعة من الثوار وثورة لم يخطط لها ابدا ، ولم يكن من المشاركين في تفجيرها ووضـع مبادئها . وحين تم اختياره للخلافة لاحظ أن أهل المدينة مع اكثر أهل الحجاز ليسوا معه ، بل لصالح عائشة ارملة النبي ، والزبيـر ابن العوام وطلحة بن عبيد الله . وعندما توجهت عائشة نحـــو البصرة ترك هو الحجاز الى الكوفة .

وحين حدث هذا كلـه ، كان واقع الحال في الدولة العربية هو ان جند الفتوحات كانوا متمركزين في ثلاثة معسكرات رئيسة هي : الكوفة والبصرة والجابية - دمشق - وكان كل معسكر من هذه المعسكرات لديه الطامع للاستيلاء على مقاليد السلطة في العالـم

الاسلامي ، او على الاقل الانفراد بالاراضي التابعة كل مصر على حده ، كان معسكر الشام في الجابية اكثر المعسكرات تماسكا واقلها مشاكلا ، وكان على رأسه معاوية بن ابي سفيان ، الذي كان ابوه سيد أهل الجاهلية وهو الان يطمح أن يكون سيد أهل الاسلام ،ومعروف أن معاوية هو المؤسس الفعلي لمعسكر الشام ،وسيده منذ بداية الفتوحات .

ولقد كان معسكر الكوفة أقل المعسكرات الثلاثة تماسكا ، فقد كان في طور النشوء وبناء القواعد ، لم يكن في الكوفة مجتمع واحد متماسك ، بل كانت هناك فئات من العرب الذين هاجروا قديما مع مهاجرين جدد والى جانب العرب كانت هناك ايضا جماعات من سكان العراق المحليين واعداد كبيرة من أهل الاقاليم المفتوحة من ايران وخراسان ، وعليه يمكن ان نمثل مجتمع الكوفة ببركان دائم الجيشان يقذف حممه المحرقة في كل اتجاه .

وكان مجتمع البصرة يشبه مجتمع الكوفة الى حد ما ، لكن استقراره وتماسكه كان أفضل ، وحجمه كان ادنى ، وبالتالي مشاكله أقل .

وبعدما وصل علي الى الكوفة جرت محاولات للحوار بين معسكره ومعسكر عائشه ، باءت كلها بالفشل ، وآلت الامور الى الصدام في معركة الجمل ،حيث انتصر علي وقتل كل من الزبير وطلحة .

لقد دخل معسكر الكوفة معركة الجمل شبه موحد ، وعندما خرج منها منتصرا صار سيدا للسياسة في غالبية بقاع الاسلام ، وهنا كانت بداية مشاكله ، فقد كان سهلا على هذا المعسكر ان يتدخل

في السياسة ، ولكن هذا هيأ السبل للسياسة ان تدخل اليه ، وكانت لديه امكانات التمزق ، لذلك بدأت السياسة تفتت قواه وتشلها عن الحركة . وكما هو معلوم الاسلام قام على فكرة المزج بين المفاهيم الدينية والدنيوية وحدث في الجمل أن أوجد علي بن ابي طالب شرعة جديدة ـ شرعة قتال أهل القبلة ـ حظر بموجبها على اتباعه أخذ الاسرى والغنائم ،وعد المهزومين كفارا او مرتدين ، وبعد العودة منالجمل احتج على اوامره هذه بعض الجند قائلين : كيف أبحت لنا الدماء وحظرت علينا الاموال ؟ وهكذا تفجر بين أهل الكوفة صراع فكري مخيف آخذ يطرح مشاكل الكفر والايمان ومع الايام نما هذا الصراع نموا خطيرا للغاية ،. وآسهمت فيه عناصر كثيرة متعددة واختلط مع الصراع الذي كان الاسلام يخوضه ضد العقائد والديانات التي هزمت اثناء الفتوحات ، وآخذ المتصارعون يقبلون على استيراد الافكار المساعدة على الجدل والنقاش ، وكان هذا كله بداية الانقسامات الخطيرة التي آلمت بجماعة المسلمين .

ودون الدخول في كثير من التفاصيل ، وبخاصة القضايا اللاهوتية منها ، نختصر القول ان علي تمكن من قيادة اعوانه نحو الشام بكل صعوبة ، وهؤلاء عندما عسكروا في صفين آقبلوا على القتال بنفوس مدبرة ، لهذا انتهى أمر صفين دون نتيجة عسكرية حاسمة ، وعاد علي ادراجه نحو العراق ، وقد ظهرت اثار الانقسامات الخطيرة في جيشه وتجلت بخروج الخوارج .

ولم يطل الحال بعلي حيث تم اغتياله ، واخفق من بعده ابنه الحسن في الاحتفاظ بالسلطة ، فتنازل لمعاوية بن ابي

سفيان ، الذي صار الان سيد العالم الاسلامي ومؤسس حكم أول أسرة ملكية في تاريخ الاسلام ، وكانت لذلك ردات فعل عنيفة للغاية ، ومن يقرأ تاريخ الحكم الاموي يشاهد ان هذا الحكم لاقى صنوفا من المعارضة الكبيرة الدائمة .

لقد كان العراق المتضرر الاكبر من استيلاء الامويين على السلطة ، ولهذا تجمعت فيه غالبية عناصر المعارضة ، وكان معظم هذه الغالبية من أهل الكوفة عاصمة علي بن ابي طالب، ومنذ البداية اختار أهل الكوفة لزعامتهم الحسن بن علي بن ابي طالب ، ومع الايام انتظمت امور المعارضة وآخذت عبر عدد من الحوادث والازمات تتحول من حركات سياسية ترى أحقية أسرة محددة في السلطة الى حركات دينية سياسية .

وقد كان لعناصر المعارضة هذه عدة جولات مع السلطان الاموي كان أهمها فاجعة كربلاء ، التي قدمت حصادا لم ينقطع ، وكان أبرز ثمرات هذا الحصاد حصر الزعامة السياسية لمعارضة الكوفة بآل علي بن ابي طالب ، وآخذت هذه المعارضة اسم الشيعة ، ففي العربية شيعة فلان أصحابه ومؤيدوه ، وشيعة علي ، حزب علي، وهي عبارة صارت فيما بعد مقتصرة على لفظة (شيعة) فقط وكانت من ثمرات هذا الحصاد ايضا ثورة التوابين التي نشهد فيها بداية التحول في حزب الشيعة من حزب سياسي محض الى حركة دينية ، وبعد التوابين خطا المختار بن ابي عبيد الثقفي في هذا المجال خطوات واسعة للغاية ، كما ان حركته سجلت بداية الانشقاقات في صفوف الشيعة وتحول حزبهم الى مجموعة من الفرق ليس فقط غير

متوحدة الصفوف وانما متصارعة .

كما كان من حصاد كربلاء ايضا ان زعامة غالبية الشيعة آخذت تنحصر في أبناء السبط الثاني للنبي صلى الله عليه وسلم الحسين بن علي بن ابي طالب .

وكان معاوية بن ابي سفيان عندما استولى على السلطة في الدولة الاسلامية استولى معها على لقب امير المؤمنين ، وحيث انه حاز السلطة بقوة السلاح ، فقد قامت السياسة الاموية على قاعدة شرعية السلاح ، والقول ان هذا كله ماكان ليتم الا بقضاء الله وقدره ، وهو ماسيعرف بعد باسم الجبرية .

ولقد حدثت تجاوزات كبيرة في العصر الاموي واغتصبت حقوق وانعدمت قواعد المساواة بين جماعات المسلمين ، وآخذت عناصر المعارضة تنادي بالعدل ناقضة لافكار الجبرية ، وسيعرف هؤلاء فيما بعد باسم القدرية او أهل العدل ، وستراهم مع اثارهم بشكل واضح في فرق الشيعة والمعتزلة .

وقالت فرق المعارضة ان حق آل علي بالسلطة قائم على وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابيهم وعلى شرعة الميراث ، وان الخلفاء من بني أمية حين انتزعوا السلطة استولوا على الجانب الدنيوي منها فقط ، ولم يستطيعوا انتزاع الجانب الديني من الميراث النبوي ، ودعي هذا الجزء من الميراث باسم الامامة .

وفي القرآن (كنتم خير امة أخرجت للناس) آي كنتم خير أصحاب دين اخرج للناس لان الامة هم أصحاب دين ، ولهذا آخذ الشيعة يطلقون على زعيمهم لقب الامام ، هذا من جهة ومن جهة

ثانية حين تتحدث الاخبار عن سيرة علي بن ابي طالب ، تجعل من صفاته الاساسية ومزاياه التي تميز بها الشجاعة والعلم ، فهو ربيب بيت النبوة نشأ مسلما ونهل من علم النبوة مالم ينهله سواه، حتى قيل ان النبي قد باح له بعلوم لم يطلع عليها سواه .

ومع الايام غدت الامامة ، ذات العلم الموروث ، محور العمل الشيعي ، واغنيت فكرتها ، وزودت بكثير من المعاني والصفات بفضل التطور الثقافي والحضاري والسياسي الذي ألم بالمجتمع الاسلامي واستعير لها الكثير من المعاني والصفات والتجارب من تراث الديانات السماوية وغير السماوية ومن الافلاطونية المحدثة والغنوصية وحكمة الشرق الاقصى .

وخلال العصر الاموي فجرت قوى الشيعة العديد من الثورات وأسهمت اسهاما كبيرا في اسقاط الخلافة الاموية ، وعندما قامت الخلافة العباسية دخلت فرق الشيعة مرحلة جديدة من حياتها هامة ذلك أن جميع الحركات العسكرية المتطرفة للشيعة كانت قد أخفقت وآلت الى الاضمحلال ، وبقي فقط ابناء الحسين بن علي الذين التزم غالبيتهم بعد كربلاء بالمرونة والثبات السلبي المظهر ، وتأكد لدى الجميع ان الكوفة رغم لونها الشيعي لاتصلح ابدا لان تكون قاعدة للعمل العسكري او الدعوي ، بل هي مناسبة كمخبر للافكار وتطوير المفاهيم فقط .

ولقنت الثورة العباسية جميع الاحزاب درسا بليغا للغاية فيه ان التحرك ينبغي ان يعتمد على الخطط طويلة الامد وواضحة الاهداف ، وان النشاط الدعوي ينبغي ان يكثف في المناطق النائية

عن مركز السلطة الرسمي لتبعد الشبهات عن رجالها ،ولتكون اكثر قدرة على التخطيط .

وحين قامت الثورة العباسية ،كان امام الشيعة من ابناء الحسين بن علي،جعفر بن محمد الذي شهر بلقب الصادق ، وقد كان لنجاح العباسيين واستلامهم للسلطة أعمق الاثار في هذا الخط الشيعي ، فقد حدث انقسام بين صفوفه ، بحيث انشطر الى قسمين واحد ظل محافظا على الخط القديم وآخر (راديكالي) متطرف جديد . ومرة ثانية دون الدخول في متاهات المقالات اللاهوتية ، وتوزيع الادوار على عدد من الرجالات ، حيث كفانا مؤونة ذلك كتاب الفرق مع عدد من الباحثين في أيامنا هذه ، يكفي القول ان الجماعة الجديدة قالت ان الامام بعد الصادق هو ابنه البكر اسماعيل وعلى الرغم من ان اسماعيل قد توفي ايام ابيه فقد قالت هذه الجماعة بان الامامة انتقلت حكما ونصا الى محمد بن اسماعيل الذي يعرف عادة باسم محمد المكتوم ، ذلك ان دعوى هذا الفرع الذي اتسم بالتطرف والعلمية في التنظيم دخلت في مرحلة التكتم الشديد وباتت تعرف باسم السبعية او الاسماعيلية وغير ذلك من الاسماء .

وقالت الفئة الاخرى من اتباع الصادق : انه بوفاة اسماعيل ولغير ذلك من الاسباب فقد عين الصادق ابنه الاخر موسى الكاظم اماما سابعا ، وتابع خط موسى هذا حتى الامام الثاني عشر وهو محمد بن الحسن العسكري ، وهو عند الكثير من الناس امام لم يولد بالحقيقية (ولم يكن له الا الوجود الوهمي) وعرف هذا الخط باسم الامامية او الاثنا عشرية ، وقد تهيأ لهذا الخط العديد من الفرص

لاستلام السلطة في العالم الاسلامي ، ولكن انعدام الامام ، وبقاءه في الخفاء في غيبة دائمة جلب الاخفاق لهذه الفرص جميعا .

وشكل القوم الذين تبعوا اسماعيل ، بعد عمل سري طويل ، فرقة فاقت في اعدادها المحكم وتنظيمها الدقيق في مجالات الجذب العقلاني الفلسفي ، والثقافي العالمي مع الاثارة العاطفية والانفعال ، كل الفرق التي سبقتها او نافستها ، ففي مكان العمل المشوش ، للفرق السابقة ، والايمان البدائي ،والاعتماد على الفورات العاطفية أحكم عدد من العلماء ، وذوي القدرات الخارقة والعقول الجبارة نظاما جديدا للعقيدة الاسماعيلية على مستوى فلسفي في غاية الرقي ، وانتجوا ادبا رفيعا بدأ الان رجال عصرنا بالاعتراف بقيمته وآثره . لقد قدم الاسماعيليون للورعين احتراما كبيرا ظاهريا للقرآن والحديث والشريعة ومسايرة للعقيدة الشعبية السائدة الظاهرة ، وقدموا للمثقفين شرحا باطنيا فلسفيا للكون ، اعتمد على مصادر الثقافات الشرقية القديمة والكلاسيكية وبخاصة الفكر التأويلي والاشراقي من الافلاطونية المحدثة .

وقدم رجال الاسماعيلية للصوفية والروحانيين ، مادة فيها الدفء العاطفي والعرفان مع الحب السامي المؤدي الى التحام الكائنات ووحدة الوجود ، ودعم هذا كله بأمثلة وشواهد مما عاناه الائمة ومن تضحياتهم في سبيل اتباعهم وتم عرض هذا بمجمله وتقديمه في صيغ معارضة للنظام القائم ، وهادمة له ، فكان في ذلك سحر الثورة وحرارة العمل المعارض .

وفي عودة نحو تاريخ الدولة العباسية نلاحظ ان العباسيين وصلوا الى السلطة عن طريق شرعية الثورة مع حق الميراث ، وذلك بعد عمل دعوي منظم ، فقد قالوا انه عندما توفي صلى الله عليه وسلم كان واحد من اعمامه حيا وهو العباس ، وحيث انه لم يكن للنبي ولد ذكر يرثه ، ولما كان العم بمنزلة الاب فالعباس كان الوريث الشرعي الوحيد للنبي ، ومنذ ايام المنصور مارس العباسيون سياسة دينية خاصة ، أحلت عبدالله بن العباس في العلم محل علي بن ابي طالب وصار يعرف الان بحبر الامة ، وقرب العباسيون اليهم رجال الدين وعلماء الاسلام بشتى السبل من ترغيب وترهيب ، ولنذكر هنا على سبيل المثال أن الامام مالك بن انس صنف الموطأ بناء على طلب المنصور وارشاده وابن اسحق صنف السير والمغازي ايضا بطلب من المنصور ، ونحن عندما نقرأ كتب الادب والتاريخ والتراجم نراها تتحدث لنا مليا عن العلماء وعلاقاتهم بالخلفاء ونشاطاتهم في مجالس الخلفاء ، والجوائز التي كانوا يحصلونها حتى ليكاد المرء أن يقول ان رجال الدين صاروا احدى ادوات الخلافة العباسية ،وان الفكر الاسلامي السني تمت صياغته عباسيا .

ونحن ندرس تاريخ الخلافة العباسية خاصة في القرن التاسع للميلاد نرى مدى التطورات التي آلمت بالمجتمع العباسي ، فقد حدثت تحولات اجتماعية كبيرة مع انقلابات اقتصادية وصناعية ، وتجمعت الثروات في ايد قليلة وصارت للبيوتات التجارية مكانتها على صعيد السلطة وغير ذلك ، كما ان الاقطاع الزراعي عظم ، وبات رجال السلطة يملكون العديد من القرى ، ويطلبون المزيد ، ويحصلون عليه بشتى السبل من شراء او اغتصاب ، وفي تاريخ الخلافة العباسية

نقرأ عن ديوان للمظالم كان يجلس فيه الخلفاء ، ويحدثنا الكتاب عن عدالة بعض الخلفاء ، وحيث نجد مثلا بين المتخاصمين الى الخليفة شخصا اغتصبت قريته والمغتصب ابن للخليفة او قريبه أو أحد الوزراء أو الكتاب او القادة .

واستخدم الاقطاعيون أعدادا من العمال في مزارعهم ،وجلبوا كميات من الرقيق بخاصة الاسود منه ، للعمل الزراعي المرهق ..

ومع منتصف القرن الثالث بدأ الضعف يلم بالكيان العباسي ، وأخذت المشاكل تتفجر وتترافق مع استيلاء ضباط القصر الاتراك على السلطة وحكمهم على الخلفاء ، وبعد فعل الجند الاتراك هذا ، انعدم الاستقرار السياسي ، وكثرت الصراعات على الخلافة والانقلابات ،وهكذا ازداد تدهور الاوضاع من الجوانب كافة ، واثناء ذلك استمر ارتباط رجال الدين السنة بالسلطة وقصر الخلافة ، وتورط بعضهم بالنزاعات السياسية ، وكانوا يدلون ثوب الشرعية على كثير من الاعمال غير الشرعية ويقدمون المسوغ لما لايقبل التسويغ ، يضاف الى هذا أنه منذ ان سيطرت الحنابلة على شارع بغداد شغلوا انفسهم بمشاكل فكرية لاهوتية لاتسمن ولاتغني من جوع غافلين أو متغافلين عن المشاكل التي باتت تهدد كيان الامة بالخطر .

ولا نغلو اذا قلنا ان الفكر السني أفلس او كاد في العطاء الاجتماعي ، وأن الناس فقدوا ثقتهم بعلماء السنة نظرا لتورط هؤلاء مع رجال السلطة ولشغل انفسهم بقضايا التجسيم ومسائل علم الكلام .

وأمام هذا الحال بدأ الناس يفتشون عن البديل ، يسعون في البحث عن الحل ، وعن طريق الانقاذ والنجاة ، فر بعضهم الى الخيال فأغنى صورة المهدي المنتظر ، وجعله في انواع من الشخصيات ، وهذا مانشهده في كتاب الملاحم والفتن لنعيم بن حماد الذي جاءنا من هذا العصر .

وقامت الدعوة الاسماعيلية بتقديم البديل ، وهكذا ما ان حلت نهاية القرن التاسع للميلاد ، حتى كان قد تم للاسماعيلية السيطرة على مسارات التفكير الاسلامي ، وعلى عقول الفلاسفة ، وتغلغل تأثيرهم الموجه الى جوف نظم الثورة وافكارها وحركات العدالة والمساواة في بلاد الاسلام ، كما حصل لدى العامة شعور بدنو النصر، وقرب ساعة التحرير ، ورروجوا لهذا عن طريق فكرة الامام المهدي المنتظر ، الذي سيخرج عندما يحين الوقت فيعلن القيامة ، والقيامة هنا ليست نهاية الحياة ، بل نهاية للشرائع والنظم القائمة وتحرير الانسان من الاغلال والقيود كافة .

وكان لهذا ردات فعل عنيفة للغاية ، نرى آثرها في كتب الفرق على الوانها وآزمانها ، فكلها تعزو الى الاسماعيلية القول بالاباحية وحتى ممارسة ذلك .

ورغم توفر المعطيات الممتازة لم تورط الحركة الاسماعيلية نفسها في عمل ثوري مباشر ، تتحمل اعباء نشاطه بشكل عيني ، بل مالت نحو استغلال القوى غير الموالية لها تماما ، لكن المتأثرة بها الى ابعد الحدود ، في سبيل زيادة اضعاف النظام السني العباسي واضعاف هذه الحركات في ذات الوقت .

وهنا لابد لنا من وقفة أمام سؤال فيه : أين كان مركز القيادة الاسماعيلية خلال هذا كله ؟ ثم ماهو موقف السلطات العباسية من النشاط الاسماعيلي ، والى أي مدى كان تأثير القيادة الاسماعيلية في كل ماحصل ؟ .

من الصعب اعطاء جواب مقنع موثق لهذا السؤال ، فنحن حين نتحدث عن الدعوة الاسماعيلية الاجدر بنا أن نستبدل دعوات بعبارة دعوة ، ذلك انه كما حصل في تاريخ التشييع حين انضوى العديد من الحركات المناوئة والمعارضة تحت لواء التشيع عن ايمان او للتمويه حصل الشيء ذاته في الاسماعيلية .

فلربما قد وجد عدد لابأس به من الحركات المطالبة بالعدالة وذات الفكر " الراديكالي " القريب من الفكر الاسماعيلي ، ولشهرة الاسماعيلية صنفها الناس بين الحركات الاسماعيلية ، فنحن عندما نقرأ في كتب الملل والنحل نرى الكتاب يعزون انتماء بعض الشخصيات والحركات الى اكثر من فرقة ويطلقون العديد من الاسماء ويحلونها بكمية من الصفات والنعوت .

ثم علينا أن نأخذ بعين الاعتبار تغير الائمة بالوفاة وغير ذلك وبالتالي التعديل في السياسة ومع هذا مشكلة المواصلات ، فكل داعية من الدعاة في منطقة من المناطق كان سيد عمله ، ينشط حسب معطياته ويعلل الامور كما يراها من منظاره الخاص ، ومنظار بيئته ، ومع الايام قد يكتشف ، أو تكتشف القيادة ذلك فلاترضاه ، ويؤدي هذا الى طرده او الى انشقاق داخل الحركة .

لهذا أصوب لنا ان نستخدم عبارة حركات بدلا من حركة ، ونحن عندما نعود الى المصادر الاسماعيلية وسواها ، بخاصة كتاب عيون الاخبار للداعي المطلق ادريس القرشي ، نستخلص منها عدم اتفاق بينها على سلسلة الائمة بعد اسماعيل ، وحتى قيام الخلافة الفاطمية ، فالاسماء مختلف عليها والصفات والاعمال متمازجة ، ثم هناك عدم وضوح بين ماينسب الى الائمة والى دعاتهم بخاصة المباشرين منهم ، حيث يبدو ان الائمة منذ ايام محمد بن اسماعيل اتخذ كل منهم لنفسه حجابا من أسرة واحدة عرفت بأسرة القداح ، كما يبدو أن بيت الامامة انتقل من الحجاز الى العراق ، ومن العراق الى خراسان ، واستقر فترة من الزمن في منطقة جبال الديلم ، ثم غادرها فجاء الى بلاد الشام وكان هذا في نحو منتصف القرن الثالث للهجرة ، واستقر بيت الامامة أولا في منطقة جبل الاربعين في محافظة ادلب السورية حاليا ، ثم تحول الى منطقة مصياف ،واخيرا الى بلدة السلمية على طرف البادية ، وكانت هذه البلدة مأهولة من قبل عدد من الهاشميين ، ومنها يمكن بسهولة الاتصال بقبائل بادية الشام ، حيث المادة البشرية للعمل السياسي والعسكري لاصحاب المطامح ، كما يمكن الوصول اليها من العراق وغير العراق من بلاد الشام ، وبالتالي السفر .

وتوحي بعض المصادر الاسماعيلية بأن مهمة آل القداح انتهت في السلمية وأن الائمة أخذوا يتخذون حجابهم من آلهم ، لكن مصادر اخرى تذكر استمرار آل القداح ، وأن الائمة أخذ كل منهم يعين واحدا من اخوانه بوظيفة امام مستودع ، وهنا تتحدث المصادر عن نوعين من الامامة ، امامة استيداع وامامة استقرار ، وان

الاستيداع كان يتم لغايات امنية او لاسباب مرضية او سواها .
كما نستخلص هنا من المصادر الاسماعيلية بأن بعض الائمة المستودعين أرادوا تحويل انفسهم الى ائمة استقرار ، وهذا كله يشير الى ان بيت الامامة الاسماعيلي عانى وهو في السلمية من انقسامات داخلية خطيرة يمكن في ضوئها أن نفهم المشاكل التي حدثت في اواخر القرن الثالث للهجرة بخاصة العلاقات مع القرامطة ، أو بكلمة اصح العلاقات القرمطية الاسماعيلية .

ليست الغاية من هذه المقدمة دراسة تاريخ الدعوة الاسماعيلية ، وانما الحديث من حركات القرامطة ، لكن لما كان من المسلم به وجود علاقات عضوية اساسية بين الاسماعيلية والقرامطة ، فان كل حديث عن القرامطة لابد له من مقدمة ، او بالحري يبدأ بالبحث في تاريخ الاسماعيلية ، على الرغم من ان تاريخ العلاقات بين القرامطة والاسماعيلية قد مر باطوار تباينت فيها المواقف ووصلت الى حد المواجهات المسلحة . ان هذا على خطورته ينبغي ان لاينسينا أن الحزب الواحد يتمزق ويرمي افراده بعضهم بعضا بأقسى التهم واشنعها ، وان هذا قد يحدث اثناء الاعداد للثورة ، ثم يتطور الحال بعد الوصول الى السلطة ، فالملك عقوق عقيم ،والانسان في السلطة هو غيره في الواقع النظري ، ومقتضيات السياسة تتباين عن مقتضيات المبادىء والمثل ، وها نحن الان في ايامنا هذه امامنا صورة الاحزاب الشيوعية في العالم ، نسمع كل يوم اخبار مايجري بين العملاقين الشيوعيين الاعظمين ، اعني الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية ـ اوليس كل منهما يرى ان الخطر المحدق به آت من

قبل رفاقه ، او ليس هناك تخالف او تفاهم متبادل بين الصين الشيوعية من جهة وامريكا الرأسمالية الامبريالية من جهة ثانية في الوقوف ضد الاتحاد السوفييتي .

اننا ونحن نرى مثل هذه الصور على مسرح احداثنا ينبغي ان نتقبل بكل يسر وسهولة فكرة الاصل المشترك بين القرامطة والاسماعيلية ، وبعد هذا كله لابد لنا من سؤال جديد هو أين بدأت حركات القرامطة وتفجرت ثوراتهم للمرة الاولى ؟ ومن أين كسبوا اسمهم هذا ؟

الرأي الرائج لدى الباحثين هو ان حركة القرامطة نشأت في البداية في سواد العراق ، وتفجرت أولا هناك لفترة قصيرة ثم انتقلت الى الشام وبعدها عادت الى العراق حيث من هناك انتقلت الى الاحساء .

ومشكلة هذا الرأي قائمة أساسا في اهمال ماحدث في اليمن ، وذلك في عدم الاقدام على دراسة تاريخ الحركات الشيعية في اليمن ومن بينها حركات القرامطة نقصا وثغرة كبيرتين في الدراسات القائمة حول هذا الموضوع ، يقتضي سدها متذكرين فقط ان حدود اليمن الشمالية السياسية الحالية مازال على مقربة منها يعيش بعض القبائل المحافظة على مواريثها القرمطية ، وأخص بالذكر منها قبائل يام ، وان اليمن هي التي ارسلت الداعي ابو عبدالله الى شمال افريقيا حيث نجح في اقامة الخلافة الفاطمية .

من المشاكل الاساسية في التاريخ الاسلامي ان المؤرخ المسلم رصد فقط الحركات عندما كانت تصطدم بالمؤسسات السياسية القائمة ، او عندما كانت الحركات تتحول الى مؤسسات سياسية وهنا كان المؤرخ يعمد الى البحث عما سلف ، فيجد نفسه في بحر من الروايات الممتزجة مع الخيال والاسطورة .

لهذا يلجأ الباحث الان الى اقدم الوثائق وأقرب الروايات من الحادث المبحوث فيه ،وفيما يتعلق بالقرامطة فان أقدم من كتب عنهم ووصلتنا كتاباته المتعلقة بالجوانب العقائدية هم :سعد القمي،الحسن بن موسى النوبختي ،والامام ابو الحسن الاشعري ، ويمكن تصنيف هؤلاء الثلاثة بين الذين عاصروا القرامطة ،فقد توفي القمي – وهو أقدم الثلاثة – مع نهاية القرن الثالث،وتوفي النوبختي بعده بحوالي عقدين من الزمن، وجاءت وفاة الاشعري سنة ٣٣٠ هـ .

وقد جاء عند القمي في كتابه "المقالات والفرق" (٨٣ – ٨٦) :
وتشعبت بعد ذلك فرقة ... ممن قال،بامامة محمد بن اسماعيل تسمى القرامطة ،سميت بذلك لرئيس كان له من أهل السواد من الانباط كان يلقب بقرمطويه ... وقالوا : يكون بعد محمد صلى الله عليه وسلم سبعة أئمة : علي وهو امام رسول،والحسن والحسين ،وعلي بن الحسين، محمد بن علي ،وجعفر بن محمد ،ومحمد بن اسماعيل بن جعفر، وهو الامام القائم المهدي ،وهو رسول ،وهؤلاء رسل أئمة ، وزعموا أن النبي عليه السلام انقطعت عنه الرسالة في حياته في اليوم الذي أمر فيه بنصب علي بن ابي طالب للناس غديرخم ،فصارت الرسالة في ذلك اليوم الى امير المؤمنين وفيه ،واعتلوا في ذلك بخبر تأولوه وهو قول رسول الله : (من كنت مولاه فعلي مولاه " وان هذا القول منه خروج من الرسالة والنبوة ،وتسليم منه ذلك لعلي بن ابي طالب بأمر الله وان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك صار تابعا لعلي محجوبا به

فلما مضى أمير المؤمنين صارت الامامة والرسالة في الحسن ثم صارت من الحسن في الحسين ، ثم صارت في علي بن الحسين ، ثم في محمد بن علي ، ثم كانت في جعفر بن محمد ، ثم انقطعت عن جعفر في حياته ، فصارت في اسماعيل بن جعفر ، كما انقطعت الرسالة عن محمد في حياته ، ثم ان الله بدا له في امامة جعفر واسماعيل فصيرها عز وجل في محمد بن اسماعيل ... وزعموا ان محمد بن اسماعيل حي لم يمت وانه غائب مستتر في بلاد الروم ، وانه القائم المهدي ، ومعنى القائم عندهم انه يبعث بالرسالة وبشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد ، وان محمد بن اسماعيل من اولي العزم ، وأولو العزم عندهم سبعة : نوح وابراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، وعلي ، ومحمد بن اسماعيل على معنى ان السموات سبع ، والارضين سبع وان الانسان بدنه سبع ... وقد كثر عدد هؤلاء القرامطة ، ولم يكن لهم شوكة ولا قوة ، وكانوا كلهم بسواد الكوفة ، وكثروا بعد ذلك باليمن ونواحي البحرين واليمامة وماوالاها ، ودخل فيهم كثير من العرب فقوى حالهم بهم ، وأظهروا أمرهم .

وتتفق رواية النوبختي / ٦١ – ٦٤ / من حيث الجوهر وحتى من حيث العبارات مع رواية القمي هذه ، اللهم الا في قوله : (وعددهم كثير ، الا ان لاشوكة لهم ولاقوة ، وهم بسواد الكوفة ، واليمن اكثر ولعلهم ان يكونوا زهاء مائة الف) .

وكان ماقالة الامام الاشعري / ٩٨ / هو : (والصنف الثامن عشر من الرافضة وهم القرامطة . يزعمون ان النبي صلى الله عليه وسلم نص على علي بن ابي طالب ، وان عليا نص على امامة

ابنه الحسن ، وان الحسن بن علي نص على امامة اخيه الحسين بن علي وان الحسين بن علي نص على امامة ابنه محمد ابن علي ، ونص محمد بن علي على امامة ابنه جعفر ، ونص جعفر على امامة ابنه محمد بن اسماعيل ، وزعموا ان محمد بن اسماعيل حي الى اليوم لم يمت ، ولايموت حتى يملك الارض ، وانه هو المهدي الذي تقدمت البشارة به ، واحتجوا على ذلك باخبار رددوها عن اسلافهم يخبرون فيها ان سابع الائمة قائمهم) .

ان هذه النصوص الثلاثة بالغة الاهمية ، فهي اولا متنبهة الى موضوع قرامطة اليمن ثم هي لاتوجه الى القرامطة حين تعرض عقائدهم التهم التي نشهدها في المصادر المتأخرة التي كتبت بعد قيام الخلافة الفاطمية ، وظهور عجز الخلافة العباسية تجاهها عسكريا وفكريا ، لذلك لجأت الى طرح مشكلة النسب مع مسألة الاباحية ، وكان لهذا تأثير فعال في مجتمع اقام مفاهيمه السياسية على اسس ارتبطت بقضايا النسب ، وهو المجتمع ذاته الذي يعتمد آسس الاخلاق ومعيار الشهامة الجنس والمرأة وحفظ عرضها .

والامر الثالث بالغ الاهمية في هذه النصوص يرتبط بمسألة العلاقة بين القرامطة والاسماعيلية ، فالكتاب الثلاثة يرون ان القرامطة فرقة متفرعة عن الاسماعيلية ثم اننا حين نعود الى الادب الاسماعيلي نراه يردد الافكار ذاتها والعقائد التي اوردها القمي والنونجتي ، ففي رسالة من رسائل القاضي النعمان ، اكبر علماء الاسماعيلية في وقته ثم من بعد ، كتبها ايام المعز لدين الله الفاطمي ، وذلك قبل الانتقال الى مصر ، كما ارجح ، اكرأ

" الرسالة المذهبة في الحكمة والتأويل " عرض القاضي النعمان ماعرضه القمي انما بشكل أعمق واكثر اتساعا وكان مما قاله :

" وسألت عن السبب الذي اوجب أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في بداية أمره يتختم في يمينه ، فلما كان حين آوان نقلته / أي وفاته / حول خاتمه من يمينه الى يساره ؟

اعلم ايدك الله ، انما سبب تختمه بيمينه في بداية أمره ، فانما ذلك اشارة منه الى نفسه بتسلم منزلة النبوة والناطق، وقيامه بتبليغ رسالات ربه كما جرى فيمن تقدمه من النطقاء والمرسلين ، وأنه لم يزل متختما بيمينه ايام حياته دليل على العمل بشريعته ، وظاهر تنزيله واقامة دعوة الظاهر حتى نزل من الله تعالى اليه بنصب أساسه ووصيه ، فبلغ عن الله آمره ، ونصب وصيه يوم غدير خم ، وأقامه مقامه ،واستخلفه من بعده ، فحول خاتمه من يمينه الى يساره ، وأمر وصيه عليا عليه السلام ، آن يختتم باليمين ولايحوله الى شماله ، فكان ذلك اشارة منه بتسليم المنزلة الى وصيه ، فكان الوصي يتختم باليمين دليلا على ماقد صار اليه ، وتختم الرسول بالشمال دليلا على انقطاع المواد عنه بتسليمه الامر الى وصيه) .

وقال في مكان آخر متحدثا عن النبي " فالذي له اثنتا عشرة امرأة ، مضى على تسع نسوة وسقط منهن ثلاث ، وقد تروي عامة الشيعة انه رد طلاق نسائه بيد علي عليه السلام ، وذلك انه لما آمر بالتسليم اليه ، فوض اليه آمر حججه ونقبائه ،فله ان يطلق منهن من شاء وينصب من شاء " .

وقد ذكر القاضي النعمان شخصية القائم وتحدث عنه على الاساس السبعي اكثر من مرة فبين انه (سابع سبعة من آدم ودوره آخر الادوار) كما اشار الى انه من الانبياء ذوي العزم يأتي بما يلغي كل الشرائع السابقة ، ويعلن الجهاد على معانديه ، وفي ضوء هذا الامر يمكن لنا ان نفهم ما اقدم عليه القرامطة من استعراض لخصومهم واغارات على قوافل الحجاج بلغت الذروة في مهاجمة مكة سنة ٣١٧ هـ وقتل الحجاج في الحرم واقتلاع الحجر الاسود من الكعبة ·

وبعد هذا نعود ثانية نحو سؤالنا عن البلد الذي شهد اولى تحركات القرامطة ، وقبل محاولة الاجابة أرى أن نتذكر أن قيام أمر ما من : ثورة او حركة قد تشير اليها دلالالتها قبل أن تعرف باسمها ، فعلى سبيل المثال نلاحظ أن أقدم اشارة الى العرب وذكرهم بالاسم تعود الى المئة الثامنة قبل الميلاد ، لكن هذا لايعني ان تاريخ العرب بدأ آنئذ ، انه أقدم من هذا التاريخ وأعرق ، وفي الكتاب المقدس والكتابات القديمة اشارات لجماعات نحكم بأنهم من العرب برغم عدم تسميتهم بهذا الاسم ·

هذا هو حالنا مع القرامطة ، فقد تكون حركتهم نالت هذا الاسم في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة في العراق أولا ، لكن هذا ليس فيه دليل مقنع على ان الحركة بدأت في العراق ، فنحن عندما نعود الى دراسة ماحدث بعد نجاح الثورة العباسية واخفاق ثورة النفس الزكية مع ثورة أخيه ابراهيم ، نلاحظ أن جميع الحركات المعارضة تلقنت درسها القاضي بالنشاط في المناطق النائية ، وهذا ما مارسه عبد الرحمن الداخل ، وعبد الرحمن

ابن رستم صاحب تاهرت ، وجماعة النفس الزكية الذين تتوجت جهودهم بقيام دولة الادارسة في المغرب الاقصى ، وسواهم كثير .

ومن المعروف ان اليمن يمكن عدها بين الاقاليم النائية ذات الطبيعة الجبلية المساعدة والقبلية الملائمة للعمل المعارض للسلطة المركزية ، ثم ان اليمن شهرت منذ القديم بولائها الشيعي ، ولهذا توجهت انظار الدعوة الاسماعيلية اليها ، كما نشط بها بعض الشيعة الاخرين ونخص بالذكر منهم الاسرة الرسية التي نجحت آخيرا في الربع الاخير من القرن الثالث في تأسيس كيان سياسي ومذهبي لها في البلاد استمر طويلا .

وجاء نجاح هذه الاسرة على يدي الهادي الى الحق يحيى ابن الحسين الذي خرج الى اليمن سنة ٢٨٠ هـ وعندما نقرأ آخبار سيرته التي رواها أحد معاونية نرى ان منطقة نجران بتراثها الديني العريق كانت تزخر بالنشاط الديني ، حيث فيها كمية معتبرة من النصارى ثم آهم القبائل فيها من بلحارث ويام كانت تدين بما دعي فيما بعد وشهر باسم " مذهب القرامطة " وان هذا التدين قديم راسخ .

هذا من جهة ومن جهة ثانية تحدثنا المصادر الاسماعيلية وغير الاسماعيلية من ارسال الدعوة الاسماعيلية في بداية النصف الثاني من القرن الثالث لداعيين هما علي بن الفضل وابن حوشب الى جنوب اليمن وأنهما عندما حلا في اليمن وجدا من ينتظرهما من ابناء دعوتهما ، ووجدا الاجواء مهيأة ، لهذا حققا اكبر النجاحات في أسرع الاوقات .

ثم من جهة ثالثة تحدثنا المصادر المختلفة لتاريخ بلاد الشام والعراق والجزيرة انه مع النصف الثاني للقرن الثالث ، او قبيل ذلك تدفقت على بلاد الرافدين ثم الشام هجرة بدوية جديدة هي الثانية من حيث الحجم بعد هجرة القرن السابع للميلاد ، التي قامت بسبب الاسلام ورافقت الفتوحات الاسلامية ٠

وقد حملت الهجرة الجديدة عددا كبيرا من القبائل مثل : كلب ، طيء ، فزاره ، أسد ، عقيل ، نمير ، قشير ، كلاب ، وسواهم كثير ٠ ومن المرجح أن هجرة هذه القبائل كان (للدعوة القرمطية) النصيب الاعظم في قيامها ، ومما لاشك فيه ان رجال هذه القبائل هم الذين قدموا المادة البشرية لدعاة القرامطة وقادتهم فيما بعد في الشام والعراق والجزيرة ٠

ولننتقل الان نحو الاجابة عن شطر آخر من سؤالنا الاساسي وهو من أين جاءت التسمية (قرامطة) وهو مامعناها ؟

لقد اكثر الاوائل المعاصرون في البحث في هذه القضية ، لكن عجزوا عن الوصول الى رأي حاسم حولها ، ومثل هذا ليس بغريب في التاريخ العام والخاص ٠ فهناك أسماء كثيرة شهيرة لانعرف مؤكدا أصلها ، مثل (دمشق — سورية) وغير ذلك وعلى صعيد الحركات الاسماعيلية هذا ينطبق على عبارتي (قرامطة) و (حشيشية) المتأخرة ومع هذا نحاول أن ندلي بدلونا في هذه المسألة عارضين أولا لاهم الاراء والروايات حول الموضوع ثم محاولين بعد ذلك الوصول الى نتيجة ما ٠

وفي المصادر المبكرة والمعاجم اللغوية نجد معنى القرامطة :
اللون الاحمر او مقاربة الخطو أو دقة الكتابة وتداني الحروف والسطور والنقص ، هذا ومن أفضل ما قيل في تعريفها ما أورده ابن العديم في كتابه بغية الطلب حيث قال : وانما سموا القرامطة : زعموا انهم يدعون الى محمد بن اسماعيل بن جعفر بن علي ، ونسبوا الى قَرْمَط ، وهو حمدان بن الاشعث كان بسواد الكوفة ، وانما سمي قَرْمَطاً لانه كان رجلا قصيرا ، وكان رجلاه قصيرتين وكان خطوه متقاربا ، فسمي بهذا الاسم قرمط ... وذكر بعض العلماء أن لفظة قرامطة انما هي نسبة الى مذهب يقال له القرمطة خارج عن مذاهب الاسلام ، فيكون على هذه المقالة عزوه الى مذهب باطل لا إلى رجل) .. وذكر بعض آخر انما هو نسبة الى " بني قرمطي ابن جعفر بن عمرو بن المهيأ ... ابن عقيل .. بن عامر بن صعصعة)

ان ماروا ه هنا ابن العديم في غاية الاهمية ، أقصد قوله : (انما هو نسبة الى مذهب يقال له القرمطة خارج عن مذاهب الاسلام) حيث من الثابت ان القرامطة كانوا من جماعات الدعوة الاسماعيلية ، ثم هذا يتوافق مع ماذهب اليه بعض الباحثين المعاصرين من القول ان كلمة (قرامطة) هي كلمة آرامية تعني (العلم السري)

ومعلوم أن من اسماء الاسماعيلية التي شهرت بها (الباطنية) ذلك لانها قالت بالتأويل وبوجود علم ظاهري عام وعلم داخلي باطني خاص : وعلى هذا الاساس يكون معنى (القرامطة) هو (الباطنية) .

ان هذه نتيجة منطقية معقولة يمكن اعتمادها حتى يظهر ماينقضها او يزيدها قوة ورسوخا ، والان وقد وصلنا الى هذا بقي علينا التعرض الى مبادىء القرامطة وخططهم .

ان هذا ليس بالامر الصعب ، خاصة وقد قررنا ان القرامطة فرع من فروع الاسماعيلية ، وبصرف النظر عن الجانب اللاهوتي ، معروف ان الاسماعيلية قد أولت الامام مكانة خاصة للغاية وجعلته محور عملها ومنحته من الصفات الشيء الكثير ، ولهذا اذا ما اردنا البحث عن البرامج الثورية للقرامطة في الجانب النظري ، يمكننا ان نجد ذلك في صفات الامام الذي حين يخرج يكون مهدي زمانه ، يحل العدل مكان الظلم ، والمساواة محل التفاوت وبكلمة اسماعيلية موجزة حين يخرج الامام المهدي القائم (حينئذ يشرب الثور والسبع من حوض واحد ، ويخلف الراعي الذئب على غنمه) ولايدع (بدعة من البدع الا اطفئت ومحقت ويرد الحق الى اهله حتى يعود الانسان كما ولد) / الكشف لابن منصور اليمن : ٣٢ – ٣٥ /

قد يكون هذا من حيث الواقع النظري خاصة ، لطالما تساءل الباحثون في ايامنا عن برامج الثورة عند القرامطة ، لكن ماذا عن الجانب التطبيقي العلمي ؟

اننا حين نعود الى مختلف مصادرنا عن قرامطة العراق اولا نشاهد نوعا من انواع التطبيق الاشتراكي في توزيع الثروات واقبال الجميع على العمل ، وهذا ما يمكن للقارىء ان يتلمسه في نصوص كتابنا الجامع في اخبار القرامطه ، واما بالنسبة لدولة الاحساء ، فمما لاشك فيه ان هذه الدولة طبقت نظاما يمكن تصنيفه بين

النظم الاشتراكية ، والثغرة الوحيدة في هذا النظام هي مشكلة الرقيق، ذلك ان هذه الدولة احتفظت بنظام الرقيق وجعلت الرقيق اداة الانتاج وقامت من حيث الواقع على طائفتين اجتماعيتين : الاحرار وجلهم من المقاتلين ، والرقيق وكان الاحراريقتسمون بينهم موارد الدولة .

ان هذا الوضع دفع بعض الكتاب الى القول ان دولة الاحساء لم تكن دولة اشتراكية ، انما كانت دولة طبقت نظام رأسمالية الدولة ، ودولة المحاربين ، ثم ان باحثين آخر قالوا ان دولة القرامطة في البحرين والاحساء قامت في منطقة خضعت دائما للتأثير الفارسي ، بخاصة الساساني منه ، وهنا يرى بعضهم ان نظام دولة البحرين لم يكن سوى نظام متطور للنظام الاقطاعي الساساني الذي عرف بنظام اقطاعيات الفرسان .

ان هناك حاجة ماسة لاعادة النظر في جميع المسائل المطروحة عن الحركات الاجتماعية في الاسلام ، كما هناك ضرورة ملحة لاعداد ابحاث علمية عن الاحوال الاقتصادية للمجتمعات الاسلامية خلال مختلف العصور ، هذا وتحوي الكتب العربية المودعة على رفوف المكتبات العامة والخاصة كمخطوطات ، معلومات هامة ، يمكن بوساطتها انارة الكثير من الجوانب المظلمة ، هذا ولعله من المفيد ايراد بعض ماجاء في المصادر المتداولة من اخبار عن التحرك القرمطي . وفي سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م بدأت تحركات القرامطة في منطقة الكوفة ، على يد رجل قدم من خورستان الى سواد الكوفة ، وهناك استطاع ان يجذب الفلاحين اليه وذلك بما أبداه من خلق قويم ودعوة جميلة ، واسترعى نشاطه هذا انتباه رجل اسمه

الهيصم كان من كبار الملاك ، وسعى الهيصم هذا للقضاء على الحركة في المهد فأخفق ، واثناء هذا نال هذا الرجل لقب قرمط ، وأخذ قرمط ينتقل بين القرى يدعو الى عقيدته فاستجاب له عدد كبير من الناس ، وفي هذه الاونة كانت ثورة الزنج قائمة في منطقة البصرة فذهب قرمط الى صاحب الزنج وتباحث معه وناظره (فاختلفت آراؤهما فانصرف قرمط عنه) . واعلن القرامطة الثورة وتحركوا بنشاط في اواخر عهد الخليفة المعتضد ، فارسل الخليفة ضدهم قواته فهزمهم ، وفي الوقت ذاته حول القرامطة نشاطهم الى بلاد الشام ، وهنا تعاون ضدهم حكام مصر الاسلامية مع جيوش بغداد ، وقرب دمشق هزم القرامطة وقتل قائدهم وكان يعرف بالشيخ ، فخلفه بعد مصرعه صاحب الخال ، وصاحب الخال هذا كان أنشط قادة القرامطة في الشام .

عرف صاحب الخال باسم (احمد بن عبدالله بن محمد بن اسماعيل ابن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب) وقيل اسمه احمد بن عبدالله بن محمد بن جعفر ، وقيل محمد بن عبدالله بن جعفر ، وقيل عبدالله بن احمد بن محمد ابن اسماعيل ، وقيل ان اسمه الحسين بن زكرويه ابن مهرويه) وقد زعم انه كان أخا للشيخ قائد القرامطة السابق ، وقضية نسبه هذه اثارت جدلا ومازالت ، مع انها ليست بذات بال ، ثم الاسماعيلية لم تكن ابان نشاطها تقيم عظيم اعتبار للانحدار الجسدي في النسب ، وذلك ان النسب الروحي هو الهام والاساسي ، ويمكن للامام ان يحل روحيا بأي شخص آخر يختاره ليكون اماما بعده .

وبعدما تسلم صاحب الخال قيادة القرامطة تسمى بالمهدي ، واستطاع بفترة وجيزة ان يصبح سيد البادية مع شمال بلاد الشام ووسطها وكون لنفسه هيئة ادارية وحاشية وكان أقرب الناس منه رجلين عرفا بالمدثر ، والمطوق ، وحاولت سلطات مصر مع سلطات بغداد القضاء عليه فاخفقت مرارا ، وامام استفحال خطر القرامطة قرر الخليفة المكتفي ان يقود جيشا ضدهم وكان هذا سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٤ م ، وقلد المكتفي (القاسم بن عبيدالله بن سليمان) تدبير أمر (الجيش) فوجه القاسم محمد بن سليمان الكاتب صاحب الجيش خليفة له على جميع القواد وأمرهم (بالسمع والطاعة) واستطاع هذا الجيش مواقعة القرامطة في معركة فاصلة قرب مدينة حماه ، هزم فيها القرامطة ، وبعد ذلك تمت ملاحقة قادتهم فألقي القبض على صاحب الخال وكبار اتباعه وسيق هؤلاء في موكب النصر الى بغداد حيث تم اعدامهم في مشهد عام .

لكن هزيمة القرامطة هذه لم تفعل اكثر من الحد من نشاطهم في الشام ، ليبدأوا نشاطا كبيرا للغاية في العراق ، حيث أخذوا منذ سنة ٢٩٣ هـ / ٩٠٦ م في اعمال الغارة على كثير من الاماكن وفي مهاجمة القوافل ، بخاصة المتوجهة الى الحج ، واخفقت الجيوش العباسية في إيقافهم ، وكانت هناك دائما البادية لتكون ملاذا عند الحاجة ومصدرا كبيرا وأساسيا للتجنيد ، وقاد القرامطة في العراق ووجه أعمالهم زكرويه بن مهرويه ، وبعد وفاة زكروية صار كبير زعماء القرامطة أبا سعيد بن بهرام الجنابي ، وقتل ابو سعيد هذا في سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ م فخلفه

آخوه ابو طاهر سليمان ، وكان ابو سعيد قد استولى على الاحساء والقطيف وهجر والطائف وسائر بلاد البحرين ، ومنذ ايامه اتخذت البحرين قاعدة لنشاط القرامطة ، وفي البحرين أقام القرامطة دولة ذات نظام في غاية الرقي (اجتماعيا وديمقراطيا) وقد وصلتنا بعض الاوصاف التفصيلية لهذه الدولة .

وبلغت دولة القرامطة الذروة ايام ابي طاهر ، وقد قام القرامطة خلال ذلك بحملات كبيرة استولوا فيها على العديد من قوافل الحجيج وكان اشهرها حمله تلك التي هاجموا بها مكه سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م ، فاعملوا السيف بالحجيج وأهل مكة ، وخلع ابو طاهر باب الكعبة ، ووقف يلعب بسيفه على بابها وينشد يقول :

أنا بالله وبالله انا　　　يخلق الخلق وأفنيهم أنا

(وأخذ كسوة الكعبة فقسمها بين اصحابه ،ونهب دور اهل مكه ، وخلع الحجر الاسود من البيت) ووجه به الى البحرين حيث بقي مطروحا هناك اثنتين وعشرون سنة ، وفي هذه الآونة كانت الدعوة الاسماعيلية قد نجحت في اقامة الدولة الفاطمية في إفريقية ، وقامت مراسلات بين القرامطة والدولة الفاطمية ، وبعد وفاة أبي طاهر دخل القرامطة في فترة من الفوضى والضعف ، وآنذاك آخذ الفاطميون يتحركون للاستيلاء على مصر والمشرق ، وأثر هذا في علاقات قرامطة البحرين بالفاطميين وبالدولة العباسية ، حيث قامت مهادنة مع الدولة العباسية ومنافرة للفاطميين ، وبعد آخذ الفاطميين لمصر وتوجههم نحو الشام ، قام قرامطة البحرين بقيادة الحسن الاعصم بالتحالف مع سلطات دمشق ضد الفاطميين ، وغزا

القرامطة مصر وكادوا يقضون على الحكم الفاطمي فيها . وحين يبحث المرء في تاريخ القرامطة لايجد بين الاخبار المتوافرة منهم مايوضح المبادىء الاجتماعية الاصلاحية التي اعلنوها في الفترات المبكرة من تاريخهم ، وفي آخبار صاحب الخال ورد انه كان ينظم الشعر، وقد وصلنا من شعره عدة ابيات منها قوله :

متى أرى الدنيا بلا كاذب	ولا حروري ولاناصبي
متى ارى السيف على كل من	عادى علي بن ابي طالب
متى يقول الحق أهل النهى	وينصف المغلوب من غالب
هل لبغاة الخير من ناصر	هل لكؤوس العدل من شارب

ومن هذه الابيات وغيرها يمكننا آن نستنتج ان القرامطة في ثورتهم كانوا ضد السنة والخوارج من المسلمين وابتغوا ازالة الكذب واحقاق الحق وانصاف المظلوم وقهر الظلام ونصرة الخير واقامة مجتمع العدل والعدالة (١)

---

(١) بالاضافة الى نصوص كتابنا اخبار القرامطة انظر : كتاب الكشف المنسوب الى الداعي جعفر بن منصور اليمن نشره ز . ستروطمان اكسفورد ١٩٥٣ . كتاب المقالات والفرق تصنيف سعد القمي ط . طهران ١٩٦٣ ، كتاب فرق الشيعة للحسن بن موسى النوبختي ط . استانبول ١٩٣١ كتاب مقالات الاسلاميين لابي الحسن الاشعري ط . القاهرة ١٩٥٠ . كتاب الزينة لاحمد بن حمدان الرازي ط . القاهرة ١٩٥٧ . كتاب التنبيه والرد لمحمد بن احمد الملطي القاهرة ١٩٦٨ ، كتاب الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي

... / ...

ط ٠ القاهرة ١٣٢٨ هـ كتاب البدء والتاريخ لابي زيد احمد بن سهل البلخي ط ٠ باريس ١٩١٦ ٠ كتاب الفصل في الملل والنحل لابن حزم الاندلسي وبهامشه الملل والنحل للشهر ستاني ط ٠ مكتبة المثنى بغداد ٠ كتاب الالفين في امامة امير المؤمنين للحسن ابن يوسف الحلي ط ٠ النجف ١٩٥٣ تاريخ الرسل والملوك لمحمد ابن جرير الطبري ط ٠ دار المعارف مع طبعة ليدن ٠ كتاب الائمة الاثنا عشرية لمحمد بن طولون ط ٠ بيروت ١٩٥٨ ، كتاب فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة للغزالي ط ٠ القاهرة ١٩٦١ ٠ فضائح الباطنية له ط ٠ استانبول ١٩٥٤ ، كتاب عيون الاخبار وفنون الاثار للداعي ادريس القرشي ط ٠ بيروت ١٩٧٣ ، المصابيح في اثبات الامامة لاحمد بن حميد الكرماني ط ٠ بيروت ١٩٦٩ ، كتاب رجال الكشي لمحمد بن عمرو الكشي ، ط ٠ كربلاء ٠ كتاب اختلاف اصول المذاهب للقاضي النعمان بن محمد ط ٠ بيروت ١٩٧٠ ٠ الارجوزة المختارة له ٠ ط دار المعارف القاهرة ٠ رسالة افتتاح الدعوة له ط بيروت ١٩٧٠ الرسالة المذهبة في الحكمة والتأويل ، مخطوطة خاصة في خزانتي ، المجالس المؤيدة للمؤيد في الدين هبة الله بن موسى ط ٠ القاهرة ـ العيون والحدائق لمؤلف مجهول ط ٠ ١٩٧٢ ـ ١٩٧٤ مسائل الامامة للناشئ الاكبر ، ط بيروت ١٩٧١ ، كتاب الفهرست للنديم ط ٠ طهران ١٩٧١ ٠ كتاب الذخيرة في الحقيقة لعلي بن الوليد ط ٠ بيروت ١٩٧١ ٠ كتاب المنية والامل في شرح الملل والنحل لاحمد بن يحيى بن المرتضى ط ٠ بيروت ١٩٧٩ كتاب عمدة الطالب

في أنساب آل ابي طالب ط بيروت . كتاب الافحام لافئـــدة الباطنية الطغام ليحيى بن حمزة العلوي ط . الاسكندرية . القرامطة لدى غويه ترجمة عربية ط بيروت ١٩٧٨ أصول الاسـماعيلية لبرنارد لويس . ط القاهرة . قرامطة العراق لمحمد عبد الفتاح عليان ط . القاهرة ١٩٧٠ .

ب ــ الخلافـة الفـاطميـة :

الحركة الاسماعيلية حتى قيام الخلافة الفاطمية :

لابد لاهل المغرب من دولة دولة كفر . اذا قرئ على منبر مصر من عبدالله عبدالله أمير المؤمنين لم يلبث الا يسيرا حتى يقرأ: من عبدالله عبد الرحمن ، وهو صاحب المغرب وهو شر من ملك . اذا داخل أهل المغرب أرض مصر فاقاموا فيها كذا وكذا تقتل وتسبي أهلها فيومئذ تقوم النائحات ،فباكية تبكي على استحلال فروجها وباكية تبكي على ذلها بعد عزها ، وباكية تبكي على قتل اولادها وباكية تبكي على قتل رجالها ، وباكية تبكي شوقا الى قبورها .

وردت هذه الاقوال على شكل أحاديث على طريقة الاثر في أحد فصول كتاب الملاحم والفتن لنعيم بن حماد المروزي الخزاعي (ت ٢٢٧هـ/ ٨٤١ م) وعنوان هذا الفصل أول علامة تكون من علامات البربر وأهل المغرب في خروجهم ، وموضوع كتاب الملاحم والفتن الحديث عما كان وعما سيكون ، وقد كتبت مادته قبل مالا يقل عن قرن من الزمن سبق قيام الخلافة الفاطمية في إفريقية (تونس) ، ان النماذج المقدمة أعلاه هي اكثر مادة الفصل تهذيبا وأقلها اقذاعا بالشتائم ومع هذا فهي كما هو واضح تنم عن روح مفرطة بالعداء والمعني بها الدولة التي ستعرف باسم الخلافة الفاطمية وهنا اذا كان هو الحال، وهذه درجة البغضاء والعداء في التنبؤ فكيف آل اليها الامر في الواقع ؟

ان غالبية الكتابات الاسلامية التي تتعلق بالخلافة الفاطمية تاريخا وعقيدة هي على العموم تنم عن بغض شديد وكراهية لاحدود لها لهذه الخلافة ، لذلك يتعذر على الباحث المنصف الاعتماد على هذه الكتابات وعليه أن يأخذ بالتفتيش عن كتابات أخرى حيادية منصفة، ومما هو مؤسف ان هذا التفتيش لايعطي الكثير من النتائج المشجعة أو المفيدة، ذلك أن النهاية المأساوية التي آلت اليها الخلافة الفاطمية في مصر مع ماصار اليه حال الاسماعيلية كعقيدة وبعثرة تراثهما ماتزالان تجبران الباحث على الاعتماد ، الى ابعد الحدود، على ماجاء في الكتابات المعادية للفاطميين .

هذا وقد ظهرت الى الوجود في السنين الاخيرة كمية لابأس بها من الكتب الاسماعيلية لكن لما كانت غالبية هذه الكتب (لاهوتية) الموضوع ، فان المؤرخ لايجد فيها كبير فائدة ، ويظل يجد نفسه في الوضع ذاته ، ومع ذلك فان التنقيب المتواصل والبحث الجاد قد أوصل الباحثين الى التعرف على تاريخ الفاطميين في مصر والى معرفة العديد مما واجهوه من مشاكل لكن من توضح جوانب صورة الفترة المصرية فقد بقيت صورة الفترة الافريقية من التاريخ الفاطمي اكثر غموضا وتحتاج الى الكثير من الجهد حتى تتضح، وقد تم في الفترة الاخيرة العثور على العديد من الكتب المفيدة في هذا الباب كان على رأسها رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان والمجالس والمسايرات له ، وعيون الاخبار للداعي ادريس القرشي ثم النسخة الكاملة من كتاب اتعاظ الحنفاء للمقريزي ويعد هذا الكتاب على مافيه من ثغرات خير مصدر في تاريخ الفاطميين بسبب مايحويه من مادة جيدة.

ثم لاتسام هذه المادة بسمة الحياد، ولقد كان هذا الحياد ومازال موضع جدل بين الباحثين، وعندي أن المقريزي لم يكن موالياً للفاطميين ولا محبا لهم بل على العكس من ذلك كان مثله مثل بقية رجال رجال عصره يعتقد بخروجهم من الاسلام وحتى كفرهم به .

ولكن المقريزي رغم هذا ، اختلف عن الكثيرين من رجال عصره بممارسته عمليات النقد التاريخي وكان متأثرا بذلك باستاذه ابن خلدون وحاذيا حذوه ثم انه - أي المقريزي - وقف على التراث الغني للمكتبة المصرية مع مكتبات بلاد الشام والحجاز . فنهل من هذا التراث،وكان اثناء عمله في جمع مواد كتبه الكبيرة والكثيرة غالبا مايكلف تلامذته بذلك وأحيانا كان يقوم هو نفسه بهذه الوظيفة وبعد الجمع على اوراق متناثرة مختلفة الحجوم والاشكال - بعضها من اوراق الدولة الرسمية - كان يقوم بتصنيف هذه الاوراق وترتيبها لتأخذ شكل مسودة كتاب وغالبا لم يتمكن المقريرزي من قراءة ماجاء في الاوراق او انه فعل ذلك احيانا انما بشكل سريع ومخطوطة كتاب اتعاظ الحنفاء مع مخطوطة كتاب المقفى تظهران هذا وتوضحانه دونما لبس وجعلت هذه الطريقة المقريزي كاتبا لايتحلى بالدقة فغالبا يغفل - اللهم الا نادرا - . ذكر مصادره وعلينا هنا ان ننتبه الى اننا حين نقرأ في واحد من كتب المقريزي شيئا في ذكر لمصدره ، فهذا في كثير من الاحيان لايتناول مصدر المقريزي ، بل مصدر صاحب المادة المقتبسة .

وكان المقريزي خصب الانتاج وكثيره للغاية ويذكر أنه قام في اخريات ايام حياته بالشروع في تصنيف تاريخ معجمي لمصر

دعاه باسم (المقفى) وقد خطط لهذا الكتاب بأن يكون في ثمانين مجلدا كبيرا أي مثل تاريخ دمشق لابن عساكر لكن المقريزي لم تمهله منيته فتوفي قبل أن ينجزه .

ولقد اوليت هذا الكتاب عناية خاصة فكان أن تمكنت من الوقوف على خمسة مجلدات كبيرة منه ، اربعة منها بخط المقريزي وواحد منها وهو اكبرها وأولها بخط سواه وهذه المجلدات موزعة الآن بين مكتبات استنابول وفرنسه وهولنده وقمت باستعراض مواد هذه المجلدات وشرعت في جمع المادة الفاطمية فوجدتها مادة غنية في حجمها وفي معلوماتها وهي مادة أصولها مصرية ومغربية ومشرقية اسماعيلية فاطمية وسنية ولعل أثمن مافي هذه المادة ماجاء حول الفترة الافريقية فلقد عثرت على تراجم جيدة للخلفاء الثلاثة الاول الذين حكموا في إفريقية مع تراجم عدد كبير من رجال الفترة مثل أبي عبد الله الداعي وأخيه ، وجعفر بن فلاح ، وجوهر الصقلبي وغيرهم وغيرهم كثير . هذا وفي نيتي نشر ماجمعته بعد تحقيقه وسأنشر معه مواد اخرى وجدتها في تاريخ دمشق لابن عساكر وفي كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم وفي تواريخ مخطوطة متعددة . بعد هذه المقدمة سأعمل على طرق موضوع هذا البحث وهو العقيدة الاسماعيلية ونشاط دعاتها في الفترة التي سبقت قيام الخلافة الفاطمية وسأسعى اولا للتعرف ثانية بشكل مختصر وسريع بأصول الحركة الاسماعيلية الاولى . لقد سلف بي القول واجه المسلمون أولى أزماتهم الصعبة يوم مرض النبي - صلى الله عليه وسلم - مرضه الاخير وساعة وفاته ونشأت الازمة حول قضية الزعامة

بعد النبي ، فالنبي بالنسبة لغالبية المسلمين لم يترك وصية خاصة يوضح بها شكل الحكم من بعده – ولهذا تعليلات كثيرة بحثت في بحث القرامطة وتناولتها ايضا في كتابي تاريخ العرب والاسلام / بيروت ١٩٧٥ / لذلك قامت حادثة سقيفة بني ساعدة وتمت ولادة مؤسسة الخلافة ضمن ظروف صعبة وصفها عمر بن الخطاب بأنها كادت ان تكون (فلتة كفلتات الجاهلية) .

وفي سقيفة بني ساعدة اختير ابو بكر ليكون اول خليفة في تاريخ الاسلام ولم ينل هذا الاختيار رضى بعض المسلمين ورأوا في ذلك عملية اغتصاب لحق مشروع ، ففي راي بعضهم أن النبي أوصى صراحة وقبل ذلك تلميحا بأن يكون الامر من بعده لعلي بن أبي طالب لفضله و سابقته وقرابته ولانه والد الحسن والحسين الذكرين الوحيدين من سلالة النبي ، وجعل هذا من علي وصيا على الامة الاسلامية ووصيا على حق ولديه في وراثة جدهما بني الله . وقال هؤلاء ايضا ان النبي اراد يوم مرضه الاخير ان يؤكد وصيته فقال لاصحابة (ائتوني أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا) لكن عمر بن الخطاب حال دونه ودون ذلك . ثم ان النبي حينما ادرك دنو منيته اراد أن يبعد ذوي المطامع عن المدينة فألف جيشا جعله بقيادة أسامة بن زيد وجند فيه جميع شخصيات الصحابة الا علي بن ابي طالب لكن هذا الجيش لم يتوجه مباشرة الى حيث أمر بل ظل يسوف ويدافع الوقت حتى توفي النبي فقام بعض جنوده (أبو بكر – عمر – وابو عبيده) بالاستيلاء على السلطة مستغلين انشغال علي وآله في غسل النبي وتجهيزه وبعد ما مكن هؤلاء

قبضتهم على مقاليد السلطة هاجموا بيت فاطمة بنت الرسول حيث تجمعت العناصر المؤيدة لعلي ولشرعيته فاقتحموا البيت حيث قاومتهم فاطمة فضربوها مما سبب اجهاضها ثم موتها بعد ذلك واقتادوا عليا وأجبروه على البيعة كرها ، وكان ذلك تقية منه ومعلوم ان التقية ركن من اركان العقائد الشعبية . وقبل أن يموت ابو بكر ناول الخلافة الى عمر بن الخطاب وعندما طعن عمر بن الخطاب فتش عن ابي عبيده فتذكر انه توفي منذ سنوات . وهنا أبت عليه نفسه اعادة الحق الى صاحبه ،فعين الستة وأوحى الى عبد الرحمن بن عوف بأن يقوم باختيار عثمان ، ثم كانت خلافة عثمان والفتنة الكبرى - وبدهي أن هذا السرد مخالف للحقيقة وهو من نسيج الخيال والتوهم ، لكن مهما كان هو الحال فقد تسلم علي الخلافة وكانت الورثة التي تحملها كبيرة للغاية اضطرته الى خوض عدد من الحروب الاهلية الدامية ومزقت هذه الحروب صفوف الامة وجعلته نفسه يلقي حتفه غيلة مما مكن خصومه من بني أمية من الاستيلاء على السلطة وكانت لذلك ردات فعل شديدة وقد واجه الحكم الاموي معارضة كبيرة دائمة .

ومن المعروف ان عناصر المعارضة الاموية تجمعت غالبيتها في العراق وزعمت ابناء علي بن ابي طالب وذلك بفعل عوامل لن يتسع هذا البحث لها وكان لعناصر المعارضة عدة جولات مع السلطان الاموي . كانت أهمها فاجعه كربلاء وبعد كربلاء بدأت الزعامة الشيعية تنحصر في ابناء علي من زوجته فاطمة بنت الرسول ثم انحصرت اكثر في ابناء الحسين بن علي وفاطمة . وبقي صاحب

السلطة الاموية خلال هذا كله يحمل لقب خليفة وينادى بلفظة (أمير المؤمنين) وفي المقابل صار - مع الايام - الزعيم الشيعي يحمل لقب (الامام) وتعني هذه العبارة قائد آمة ، والامة في العقيدة واللغة هي اتباع دين وحيث ان الاسلام قد مزج بين المعنيين الديني والدنيوي ، ولم يفرق بينهما فان حركة المعارضة التي تزعمها آل علي بن ابي طالب وعرفت باسم شيعة علي أي حزب علي ثم باسم الشيعة فقط ، هذه الحركة التي بدآت كتحرك سياسي أخذت مع الايام تكتسب معاني دينية . وتطور الحال حتى كاد المعنى السياسي أن يختفي وراء المعنى الديني وضمنه . وعلى هذا صار زعيم الشيعة يحمل لقب امام .

وغدت الامامة محور العمل الشيعي واغنيت فكرتها وزودت بكثير من المعاني والصفات بفضل التطور الثقافي والحضاري والسياسي الذي آلم بالمجتمع الاسلامي واستعير لها الكثير من المعاني والصفات من الديانات الكتابية السماوية وغير الكتابية والسماوية .

وخلال العصر الاموي فجرت قوى الشيعة العديد من الثورات وأسهمت اسهاما كبيرا في اسقاط الخلافة الاموية،وعندما قامت الخلافة العباسية دخلت الحركة الشيعية مرحلة جديدة هامة وذلك ان جميع الحركات المتطرفة والعسكرية للشيعة قد آخفقت وآلت الى الاضمحلال وبقي فقط ابناء الحسين بن علي الذين التزم غالبيتهم بعد كربلاء بالمرونة والثبات السلبي المظهر ومع قيام الدولة العباسية الذي وافق إمامة الامام السادس بينهم وهو جعفر الصادق حدث انقسام بين صفوف هذا الخط الشيعي وكان كما يبدو انقساما بين خط محافظ وخط

جديد متطرف فقد قالت جماعة ان الامام بعد الصادق هو ابنه البكر
اسماعيل وعلى الرغم من أن اسماعيل قد توفي ايام ابيه فـــ
الامامة انتقلت حكما ونصا الى محمد بن اسماعيل الذي يعرف عـا
بمحمد المكتوم ذلك أن دعوة هذا الفرع الذي اتسم بالتطرف والعلـ
في التنظيم دخلت الان في مرحلة من التكتم الشديد وباتت تعـــر
باسم السبعية والاسماعيلية وغير ذلك من الاسماء • وقالت الفئ
الاخرى من اتباع الصادق إنه بوفاة اسماعيل ولغير ذلك من الاس
فقد عين الصادق ابنه الاخر موسى الكاظم اماما سابعا• وتابـ
خط موسى هذا حتى الامام الثاني عشر وهو محمد ابن الحســـ
العسكري وهو عند الكثير من الناس امام (لم يلد ولم يولد) ولـ
يكن له الا الوجود الوهمي • عرف هذا الخط باسم الاماميـــة
الاثنى عشرية ولقد تهيأ لهذا الخط العديد من الفرص لاستلام السلـ
في العالم الاسلامي،لكن انعدام الامام وبقاءه في الخفاء في غيبـ
دائمة جلب الاخفاق لهذه الفرص جميعا • وكما سلف القول شـــك
القوم الذين تبعوا اسماعيل بعد عمل سري طويل فرقة فاقت فـــ
اعدادها المحكم وتنظيمها الدقيق المتقن في مجالات الجذب العقلان
الفلسفي والثقافي العالي مع الاثارة العاطفية والانفعال فاقت بكـ
ذلك كل الفرق التي سبقتها او نافستها • ففي مكان العمل المشوش
للفرق السابقة والايمان البدائي والاعتماد على الفورات العاطفيــ
أحكم عدد من العلماء ذوي القدرات الخارقة والعقول الجبارة نظامـ
للعقيدة الاسماعيلية على مستوى فلسفي في غاية الرقي • وانتج
أدبا رفيعا بدأ الآن رجال عصرنا بالاعتراف بقيمته وأثره •

قدم الاسماعيليون للورعين احتراما كبيرا ظاهريا للقرآن والحديث والشريعة ومسايرة للعقيدة السائدة الظاهرة وقدموا للمثقفين شرحا باطنيا فلسفيا للكون اعتمد على مصادر الثقافات الشرقية القديمة والكلاسيكية وبخاصة الفكر الاشراقي من الافلاطونية المحدثة . لقد قدم رجال الاسماعيلية للصوفية و الروحانيين مادة فيها الدفء العاطفي والحب السامي المؤدي الى التحام الكائنات ووحدة الوجود، ودعم هذا كله بأمثلة وشواهد مما عاناه الائمة ومن تضحياتهم بذواتهم في سبيل اتباعهم، ولقد قدم هذا كله في صنيغ معارضة للنظام القائم وهادمة له فكان في ذلك سحر الثورة وحرارة العمل المعارض، وعندما حلت نهاية القرن التاسع للميلاد كان قد تم للاسماعيلية السيطرة على مسارات التفكير الاسلامي ، وعلى عقول الفلاسفة وتغلغل تأثيرهم الموجه في نظم وأفكار حركات الفكر والثورة في بلاد الاسلام ، كما حصل لدى العامة من الناس شعور بدنو النصر وقرب ساعة التحرير ، وبرغم توفر كل هذه المعطيات لم تورط الحركة الاسماعيلية نفسها في عمل ثوري مباشر تتحمل اعباء نشاطه بشكل علني بل سعت نحو استغلال القوى غير الموالية تماما لها لكن المتأثرة بها الى ابعد الحدود وفي اضعاف النظام السني العباسي واضعاف انفسها في الوقت ذاته . وهكذا الحال كما يرى بعضهم بالنسبة لثورات القرامطة ولحركة الزنج وحتى بالنسبة للحركة الصفارية، ومع طول التجربة ودوام تجوال الائمة وشدة الملاحقة العباسية اقتنع رجال الدعوة الاسماعيلية انه لن يكون النجاح حليفهم اذا ما تحركوا في خراسان او العراق فتوجهوا بأنظارهم

نحو اليمن وتم اختيار اليمن لاسباب تتعلق بموقعها الجغرافي النائي عن مركز السلطة العباسية ثم لملائمة الطبيعة الجبلية للبلاد يضاف الى هذا أن اليمن اشتهرت بولائها الشيعي منذ فترات بعيدة ،وفي اليمن حققت الدعوة الاسماعيلية نجاحات لابأس بها وكان ذلك بفضل داعية عرفته بعض المصادر باسم علي بن الفضل وآخر اشتهر عموما بلقب منصور اليمن،هذا ولم يحظ تاريخ النشاط الاسماعيلي في اليمن بما يستحقه من دراسة،على أن النشاط الدعوى الاسماعيلي في اليمن مالبث أن بدأ بالانحسار والضعف بسبب تمزق داخلي وحركة شيعية اخرى هي الحركة الزيدية التي قادها منذ سنة (٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م) الهادي الى الحق يحيى بن الحسين،ومن جديد بدأت قيادة الدعوة الاسماعيلية بالبحث عن بلد جديد لتنشط فيه ، وجاء هذا بعدما تكونت لدى هذه الدعوة قناعات بصعوبة العمل في شبه الجزيرة ، وأنه من المحال النجاح في اتخاذ شبه الجزيرة قاعدة لعمل يهدف للقضاء على الخلافة العباسية . وكانت بلاد الشمال الافريقي هي المنطقة التي تم اختيارها ، لقد سبق لهذه البلاد أن تأثرت بالنشاط الشيعي الذي أدى الى قيام دولة الادارسة . لكن قبل هذا بزمن بعيد كانت قد تأثرت بأفكار الخوارج وكانت الحالة القبلية والاجتماعية مشجعة للغاية ، وتناسب الحاجة تماما، وكان الوضع السياسي ايضا مناسبا وموافقا فقد كان الاغالبة يعانون من التفكك والضعف،ولم يكن لهم سلطان على قبائل بربر شمال افريقية ، فقد عاشت كل واحدة من هذه القبائل في منطقة خاصة تتمتع بقسط وافر من الحرية والاستقلال .

في هذا الوقت بالذات كان بيت الامامة الاسماعيلي قد تحول من منطقة جبال الديلم الى السكن في بلاد الشام واتخذ من بلدة السلمية قرب حماه مقرا له، وتم اختيار السلمية لقربها من البادية الى حيث يسهل الفرار والاتصال بالقبائل، ثم لانها كانت منذ فترات بعيدة مقرا لعدد من الاسر الهاشمية القرشية . ومن السلمية أخذ بتوجيه الدعوة الاسماعيلية وتم ارسال الدعاة الى نواحي اليمن كافة والى سائر البلدان" الى اليمامة والبحرين والسند والهند ، وناحية مصر والمغرب، وكان مما أنفذ الى المغرب داعين أخذهما يعرف بالحلواني والاخر يعرف بأبي سفيان ، وقد أمرا بالوصول الى أقاصي المغرب والبعد عن المدن والمنابر ، كما أمرا بأن ينزل كل واحد منهما بعيدا عن صاحبه ، وقيل لهما : اذهبا فالمغرب أرض بكر فاحرثاها وأكرياها حتى يجيء صاحب البذر، فنزل أحدهما بأرض كتامة بمدينة تسمى مرمجنة والاخر بسوق جمار، من أرض الجزائر اليوم، فمالت قلوب أهل تلك النواحي اليهما"، ومع أننا لانملك معلومات مباشرة عن الافكار التي دعا اليها هذان الداعيان الا انه من الممكن التصور قياسا على ماهو معروف انهما دعوا الى الامام الرضا من آل محمد، وبشرا بقرب ظهوره ، ونعتاه بأنه المهدي المنتظر، وصورة المهدي صورة غنية فيها العدل المنتظر والخصب والرحمة والمساواة، ومما لاشك فيه أن عمل هذين الداعيين قد مهد السبيل أمام من جاء بعدهما فاستطاع ان يقطف الثمار ، وبعدما وصل الى مركز السلمية خبر بوفاة هذين الداعيين ارسلت التعليمات الى مركز الدعوة في اليمن لارسال داعية يتحمل اعباء الدعوة في المغرب ، ويبدو أن اليمن قد حوت آنذاك مركز اعداد الدعاة

وتدريبهم . وهناك آختير الحسين بن احمد بن زكريا الشيعي الذي يعرف عادة باسم ابي عبدالله الداعي الصنعاني لهذه المهمة وقيل له: (يا أبا عبدالله أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وابو سفيان، وقد ماتا، وليس لها غيرك، فبادر فانها موطأة ممهدة لك).

وانصاع ابو عبدالله لما أمر به لكنه لم يتوجه مباشرة الى الاسكندرية في مصر ليسافر منها مباشرة الى المغرب، بل توجه نحو مكه، وفي مكة في موسم الحج التقى ابو عبدالله بعدد من الحجاج البربر فتعرف اليهم ثم أقام معهم صلات للصداقة متينة، وعند انتهاء موسم الحج صحبهم الى مصر . ومن هناك رافقهم الى شمال افريقيا، وهناك نشط ابو عبدالله فاستطاع في سنين قليلة استمالة العديد من قبائل البربر وقام بتنظيم قوى بين صفوف هذه القبائل وقادها نحو النصر في عديد من المعارك مكنته من ازالة ملك الاغالبة، وانتزاع القيروان منهم، وازالة دولة الرستميين، ودولة بني مدرار بسجلماسة، ويبدو أن أبا عبدالله قد جاهر اثناء عمله بأن الامام الذي يدعو اليه هو من ابناء اسماعيل بن جعفر الصادق، أو بكلمة اخرى نقل الدعوة من التشيع العام إلى التشيع الاسماعيلي، وهنا لابد لنا من أن نتساءل : ماهي السبل التي مكنت ابو عبدالله من نشر دعوته والترويج لها ؟ ثم ماهي الاداة اللغوية التي استخدمها خاصة وأن نشاطه كان كبيرا للغاية آثار حوله ضجة لم تقتصر على دولة أغالبة القيراون، بل تعدتها الى المغرب كله ثم الى المشرق، يبدو أن اول ماقام به أبو عبدالله كان الاستفادة من جهود الدعاة الذين سبقوه ولعله

قام باعادة تنظيم جهاز الدعوة وأعد الدعاة الجدد وكان اعداده لهم عقائديا وعسكريا ، ونظر لانه مارس مهنة التعليم في ايامه الاولى في المغرب فمن خلال التعليم-الذي اقتصر كما يبدو على ابناء شيوخ القبائل - أوجد الدعاة وبنى صداقات مع زعماء القبائل، ولاشك أن الافكار التي طرحت كانت بسيطة تعلقت بحق آل البيت بالامامة، ثم بفكرة المهدي وقرب ظهوره، وشروط طاعته المطلقة والايمان به وتقديسه .

ولقد أحسن ابو عبد الله استغلال ماكان لدى قبائل البربر من عقائد وعادات،فالبربر كان بينهم من يرى بأنهم انحدروا من قوم من قبائل حمير كانوا يسكنون فلسطين والقدس بالذات،وأنهم طردوا من هناك،واستغل ابو عبد الله هذه الفكرة وروج لها ترويجا كبير، ورغب البربر بالعمل من أجل الزحف نحو القدس لتحريرها ووعدهم بالنصر المحقق ، لأن المهدي هو الذي سيقودهم . ومعلوم أن هدف الاسماعيلية لم يكن الاقتصار بالاستيلاء على رقعة من الارض من أجل اقامة دولة، بل كان الهدف الاساسي ازالة الخلافة العباسية واحلال الخلافة الاسماعيلية محلها،ولاشك أن فلسطين قد كانت احدى بلدان الخلافة العباسية ، وكان الوصول من المغرب الى العراق سيتم عبرها حتما،وسنرى فيما يلي رجال الدعوة الاسماعيلية البربر ينجحون في الاستيلاء على القدس وفلسطين،ويحاولون متابعة الزحف نحو بغداد ، وعندما ايقن ابو عبد الله بأن الامور توطدت له ارسل الى السلمية يعلم مركز الدعوة بذلك ويطلب قدوم الامام الى افريقية (تونس) وكان الوفد الذي حمل هذه الرسالة

يضم بعض قبائل كتامة البربرية، واستجاب الامام الذي سيعرف بلقب المهدي ، وتحرك نحو المغرب في رحلة حفت بالمخاطر ، فوصل مع القائم الذي قال عنه انه ابنه الى سلجماسة ، وهنا كشف سره وأودع السجن ،لكن أبا عبد الله خف لنصرته فاستطاع انقاذه ثم اعلنه أميرا للمؤمنين وكان ذلك سنة ٩٠٩ م .

الخلافة الفاطمية – الطور الافريقي :

المهدي عند الاسماعيلية هو" الذي يهدي الى الامر الخفي،وهو القائم بالحق ، عند حلول الوقت بعد انقضاء عهد غيبة الائمة بعد استبداد أهل الظلم والعسف والجسور بمقاليد الامور، وهو حين يخرج ، يخرج مغضبا تؤيده ملائكة الرحمن،وتسير أمامه وتواكبه اينما تحرك ، على رأسها جبرائيل على فرس أبلق بسرج من نور، وعليه سراج من ذهب،وعلى جبرائيل تجافيف من نور ومغفر من حديد ، وبيده حربة من نور في سنان الحربة النصر ، وفي وسطها الرعب ، وفي زجها الظفر، لذلك لاتتولى للمهدي راية في بلد إلاّقدمه الرعب بين يديه مسيرة شهر، ولايهدي بالدلالة أهل بلد الا وهداهم الله، ومن أبى ذلك رماهم الله بحجارة الكبريت حتى يردهم أجمعين الى هداه، يستسلمون بأجمعهم اليه، ويكسر الصليب،ويهدم البيع، ويقتل الخنزير، وتنقضي دعوة الشرك،وتظهر دعوة الفرج،وتقوم الدعوة بالدين لله خالصة، وآئنذ يشرب الثور والسبع من حوض واحد، ويخلف الراعي الذئب على غنمه [٤] . والمهدي ينبغي أن يكون من قريش من بني هاشم من بني عبد المطلب من ولد الحسين بن علي،لأن الحسين من ولد فاطمة بنت الرسول ، واسم المهدي عبد الله مثل اسم ابي رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي سنة ٩٠٩ تمت ولادة الخلافة الفاطمية وهي أول،لابل أعظم خلافة شيعية في التاريخ، وحمل أول خلفاء هذه الدولة لقب المهدي لكنه كان مهديا من حيث الاسم لامن حيث التصور الطوباي ، انتصر بفضل عمل دعوى طويل وجيد التنظيم، ثم بفضل استخدام القوة المسلحة البشرية لابفضل الملائكة وتأييد السماء

وكان لتبدد الصورة الطوباية والسرابية وقيام دولة الواقع ردات فعل شديدة، ولكن قبل الاستطراد في الحديث عن هذا لعل من المناسب أن نحاول التعرف الى شخصية المهدي واسمه ، ونسبه كما جاء عند المؤرخين .

الخلاف بين مصادرنا حول أصل المهدي ونسبه شديد . فقد ذهب كل مصدر مذهبا خاصا في تحديد اسم المهدي ونسبه قبل أن يكون مهديا، ثم بعدما صير نفسه كذلك،فغالبية المصادر السنية تنفي عنه النسب العلوي الفاطمي وتعزوه حينا الى الفرس المجوس وحينا آخر الى اليهود وغير ذلك . وهي وان اختلفت ايضا في تحديد اسمه قبل استلامه الخلافة تتفق على أن اسمه بعد ماصار خليفة هو عبيد الله .

ان مسألة الطعن في نسب المهدي والفاطميين مسألة مرفوضة ذلك أن الكتاب السنة آخذوا بها مسايرة للدولة العباسية التي عجزت عن التصدي للفاطميين بقوة السلاح ، فلجأت الى وسيلة الطعن بالنسب، واستغلت الثغرة التي قامت بسبب لجوء أبناء اسماعيل بن جعفر الصادق الى التكتم والتخفي الشديد ، نتيجة للملاحقة العباسية . ومن المدهش ان السلطات العباسية اكتشفت تحركات المهدي ، وكانت قادرة على ملاحقته في طريقه من بلاد الشام الى مصر فشمال افريقية ، وكانت اثناء الملاحقة هذه ترى بداهة صحة نسبه العلوي، ثم بعد ما انتصر نفت عنه هذا النسب .

وفيما يتعلق باسمه فنحن لانملك من المصادر مايساعد بشكل حاسم تماما على اثبات او نفي أنه كان يحمل اسما غير الاسم

الذي عرف به بعد استلامه الخلافة ومرد هذا الأمر يعود الى عاملين رئيسين . اولهما مرتبط بما اثير حول النسب ، والثاني مرتبط بقضية التكتم والتخفي ، فلعل ذلك استلزم منه اعطاء نفسه اسماء مختلفة بين حين وآخر .

ومع هذا كله فهل كان اسمه بعد استلامه الخلافة عبيدالله ؟ ان اسم عبيدالله هو مصغر عبدالله ، ومن المعلوم أن في التصغير تحقيرا ،ومرة اخرى كما أرادت السلطات العباسية أن تطعن بنسب المهدي سعت الى تحقيره بتصغير اسمه ، وذلك أن اسم المهدي في المصادر الاسماعيلية وفي الكتابات التاريخية المعاصرة له ثم على النقود هو عبدالله /فقد رأيت في القيروان دينارين ذهبيين من دنانير المهدي ضربا فيها الاول سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م والثاني ٣٠٤ هـ/٩١٦ م ونقشهما

الامام	عبد الله
لا اله الا الله	محمد رسول الله
وحده لاشريك له	
المهدي بالله	أمير المؤمنين

لن أتوسع الان اكثر حول هذه المسائل، بل سألزم نفسي بما قدمته فقط حتى أستطيع المضي مع خطة هذا البحث،فبعدما تسلم المهدي زمام الامور من أبي عبدالله الداعي، وما ان أصبح أميرا للمؤمنين حتى أخذ يباشر أمور الحكم بنفسه حسب قاعدة الامامة عند الاسماعيلية، ذلك أن الامام هو وحده صاحب الحق في الحكم والتشريع ، وقام المهدي بجمع الدعاة وعمل على اعادة

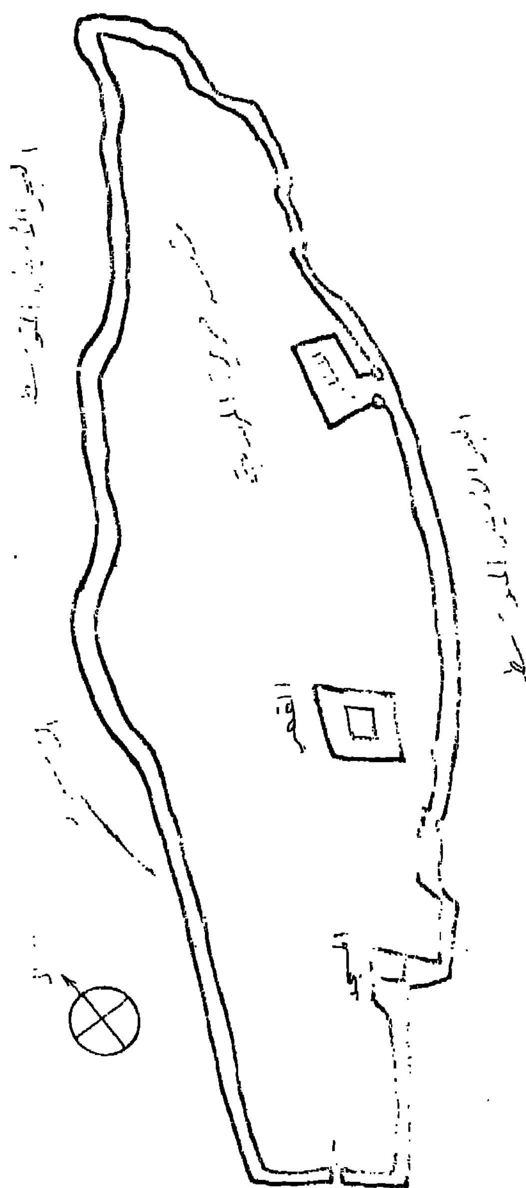
تنظيم الدعوة، وجهد في سبيل ايجاد جيل جديد من الدعـــاة ، ولقـد أصاب في هذا السبيل نجاحا كبيرا؛ ذلك ان زعامـة الفكر الاسماعيلي ستؤول بعد قليل الى جيـل من الدعاة جلهـم من أصل بربري او مغربي، وسيظل هذا الجيل متمسكا بهذه الزعامـة حتى عصر الحاكم بأمر الله في مصـر . وأصبحت الدعوة الاسماعيلية الآن دعـوة علنية تدعمهـا سلطة دولة فتية ، وهنا لابد لنا أن نتساءل عن التجديدات التـي أدخلت على افكار الدعـوة ثم عن التأثيرات المحلية منها ؟ يـروى بأن المهدي كان قد جلب معـه من المشرق كميـة من الكتب الخاصـة ولعلها تضمنت النتاج الفكري الاسماعيلي ، واذ اصح هذا فان هذا النتاج هو الذي عـد أساسا في العمـل الدعوى الجديد، وعليه فقد بقيت افكاره الظاهرية هي هي وكذا التأويل الباطني ، وجاء لاعـادة تنظيم الدعوة والمجاهرة بها وبأفكارها مع ممارسة المهدي للسلطة ومباشرته الحكم بنفسـه ، ظهرت ردات فعل اسماعيلية داخليـة وغير اسماعيلية خارجية، ونجمت ردات الفعل الداخلية بالاساس عـن حصر المهدي للسلطات وعمله من أجل اقامة دولة مركزية على غرار الدولة العباسية ، وكان في هذا حرمان من الغنائم للذين تحملـوا أعباء الدعوة مثل أبي عبد الله الشيعي وسواه ، ثم كان في ذلـك انتكاسة عقائدية وتراجع ، ذلك ان اقامة سلطة مركزية شديدة شيء ، والتصور الوهمي والخيالي الفضفاض لدولة المهدي شيء آخر. ووفق المهدي في القضاء على المعارضة الداخلية، وقام بتصفية دموية لابي عبد الله الشيعي ومن ساندة، وجاء نجاحه نتيجة بذله الاموال وشرائه زعماء قبائل كتامة ، وكان للمعارضة من الخارج قصـة

اخرى من رواتها ابراهيم الرقيق مؤرخ القيروان ، وقد بدأت في الاسبوع الاول لنزول المهدي برقاده . حيث كانت قصور الاغلبية على مقربة من القيروان ، فعندما حلت الجمعة أمر المهدي الخطيب أن يذكره في الخطبة ، فيقول عبدالله الامام المهدي بالله امير المؤمنين ، فلما صعد الخطيب المنبر وانتهى الى ذكر المهدي قام أحد رجالات السنة الحضور واسمه جبله بن حمود الصدفي قائما ,وكشف رأسه حتى رآه الناس ومشى من المنبر الى آخر الجامع وهو يقول : قطعوها قطعهم الله ، ويكررها ، يعني الخطبة لبني العباس/وقام الفقهاء ووجوه البلد معه، فما حضر أحد من الاماثل وجلس بعد الجمعة رجل يعرف بالشريف ، ومعه الدعاة وأحضروا الناس بالعنف والشدة ودعوهم الى مذهبهم/فاجا بوا الى ذلك الا القليل فأمرهم بهم فضربوا وحبسوا ، ونابذت طائفة من الفقهاء المهدي ، وحتى أنه أدخل برجل على الوالي فقال له الوالي : قل لا اله الا الله فقال : أما من قولك فلا ، اني لا ادري ماتقول لي بعدها) ودخل اليه بآخر وبين يديه مصحف فقال له : أليس هذا هو القرآن؟ فقال له : ما أعرف ماهو ، ووجد رجل من أصحاب المهدي المشارقة مقتولا ، فأتوا إليه وقالوا : قتل رجل من الاولياء قال : وأين هو ؟ قالوا له : أكلوه ولم تبق إلّا عظام ساقيه ، فقال المهدي هذا بلد لايحل أن يقام فيه ، فأمر بمقتل المحبسين ان لم يرجعوا عما هم عليه ، فقتل منهم على ماقيل اربعة آلاف رجل في العذاب مابين عابد ورجل صالح . وأثارت هذه الاعمال أهل القيروان وكانوا يتعصبون لمذهب مالك السني،فدخلوا في صراع مع رجال قبيلة كتامة،وكان صراعا حادا أجبر المهدي على

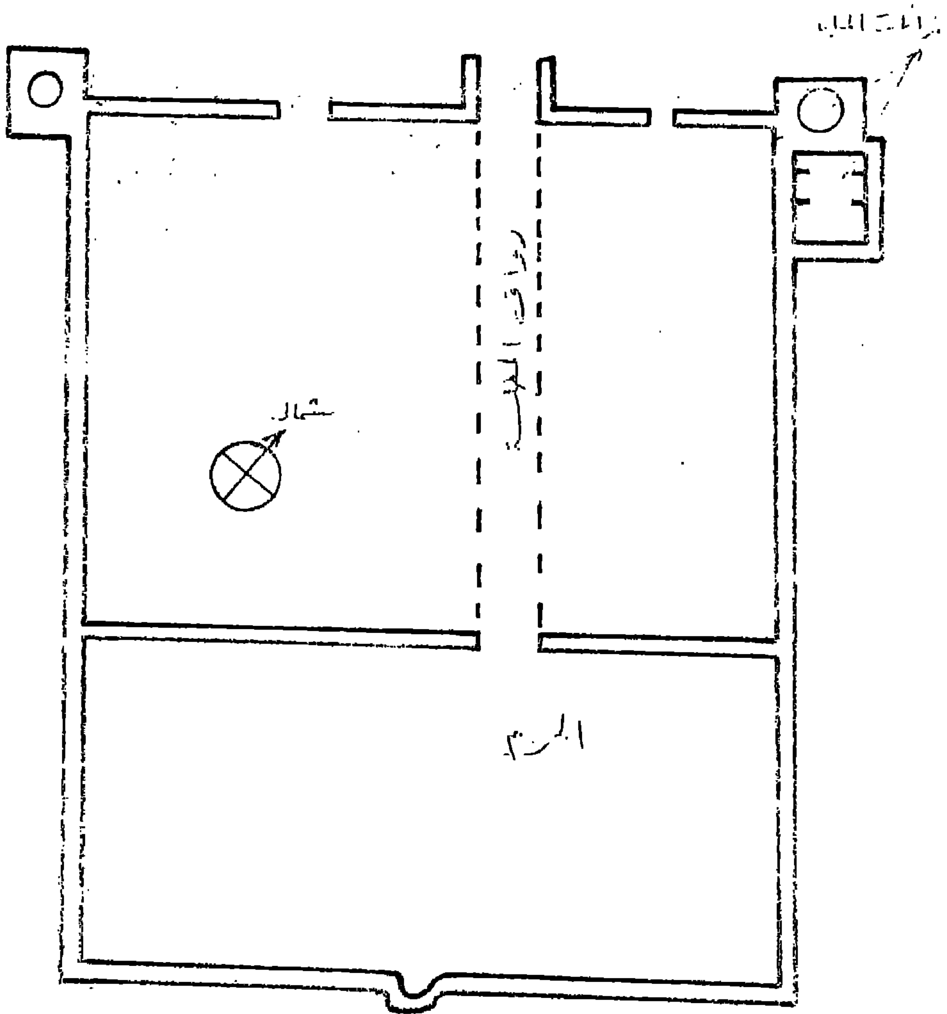
الخروج لتسكينهم (وكف الدعاة عن طلب الناس بمذهب التشيع) ، فلما كانت سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٣ م خرج بنفسه الى تونس يرتاد لنفسه موضعا على ساحل البحر يتخذ فيه مدينة ، فلم يجد بقرطاجنة الى تونس أحسن ولا أحصن من موضع المهدية ، وهو جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند، فتأملها فأعجبته فبنى فيها مدينة في غاية الحصانة والاحكام ، وذلك انه اراد من المدينة حصنا يعتصم هو فيه ثم من يخلفه ، لأنه أدرك أن شعب تونس والمغرب لن يمنحوه الولاء صرفا ولن يدعوه بينهم اذا ما استطاعوا الى ذلك سبيلا، ورغم تسمية المهدي لمدينته باسمه ، وهذه حالة شاذة في تاريخ الاسلام، فإن هذه المدينة لم تخطط وتشيد كمدينة عقائدية مثالية، بل أريد منها أن تكون قوية حصينة ، ولما وجد المهدي ان مساحة الجزيرة غير كافية قام بردم جزء من البحر كما قام بنقر ميناء لها في الصخر يتسع لنحو ثلاثين سفينة ، وأقيم على مدخل هذا المرسى برجان عظيمان للحراسة ربط بينهما بسلاسل من الحديد لتحول دون طروق السفن الغريبة الى الميناء، ونقر في الصخر دارا للصناعة تتسع لثلاثمائة سفينة ، كما بنى في المدينة الاهراءات الكبيرة لخزن الحبوب والمؤن ، ونظرا لندرة المياه فقد أكثر المهدي من بناء خزانات المياه التي تملأ بمياه الامطار . وبنى المهدي قصرا لنفسه وآخر لولي عهده كما بنى مسجدا كبيرا ، ويختلف بناء هذا المسجد عن غيره من مساجد المشرق والمغرب حيث أن له بوابة كبيرة قام على مقربة منها برجان في غاية الضخامة، وقد جعل هذا واجهة المسجد أشبه بواجهة احدى القلاع، وجاءت الابراج مجوفة حيث كانت تملأ بمياه الامطار، وكان الامام يدخل الى المسجد من بوابته

الكبيرة ذلك ان حرمه لم يكن فيه مقصورة لها دهليز خاص متصل بقصر الخليفة كما كانت العادة منذ أيام معاوية بن ابي سفيان اثر محاولة اغتياله على يد الخوارج • والجديد في بناء مسجد المهدية ايضا أن الممر الذي كان يوصل البوابة بالحرم كان مسقوفا وتعليل هذا مرتبط بأمر المظلة ومايتعلق بها عند الفاطميين •

فمن المشهور أن النبي كان اذا تحرك كانت تظله غمامة ،لذلك عندما قامت الخلافة الفاطمية اتخذ الخلفاء لانفسهم مظلة كانت تحمل فوق رؤوسهم ، وحيث أنه كان من غير اللائق أو من المحال حمل المظلة داخل المسجد عند دخول الخليفة اليه ، تم بناء رواق خاص مسقوف جاء على شكل المظلة ليمر خليفة تحته عند دخوله المسجد،وكان الموقع الذي اختاره المهدي لبناء مدينته موقعا معروفا من قبل فيه بعض السكان عندما اختاره والمنطقة المحيطة به، وتعرف بمنطقة الجم (ارض جمة) كانت منطقة حضارة وعمران وهي ماتزال كذلك،وعندما إنجز بناء المهدية انتقل المهدى اليها مع اركان دولته،ثم أمر بعد فترة بأن تحول طرق التجارة اليها، وكان في ذلك مشقة على التجار وعقوبة لاهل القيروان ، وسنجد حفيدة المنصور اسماعيل يترك المهدية ويبني قرب القيروان صبرة المنصورية لارضاء التجار وكسب ود أهل القيروان ، وقد جعل المهدي أسواق المدينة في داخل الجزيرة وحرم على التجار البيتوتية في الجزيرة فكانت بضائع التجار تبقى رهينة داخلها تمنعهم من التحريض او المشاركة في اية ثورة تدبر في الليل ، واذا حدث وانفجرت ثورة في النهار كانت بوابة المدينة تغلق ويبقى التجار وبضائعهم



مسجد جامع البديعة



رهائن فيها ، ومن المهدية أخذ بتوجيه الدعاة الى جميع مناطق البلدان الاسلامية في المغرب والاندلس والمشرق وأولى المهدي المشرق عنايته الكبرى،ذلك أن هدف الاسماعيليين كان ازالة الخلافة العباسية من الوجود، وينقل المقريزي أن المهدي لم يمت حتى وصلت دعاته الى بلاد الشرق وبعث اليه نصر بن احمد أمير خراسان يقول : أنا في خمسين الف مملوك يطيعوني،وليس على المهدي كلفة ولا مؤونة ، فان أمرني بالمسير سرت اليه ووقفت بسيفي ومنطقتي بين يديه وامتثلت أمره، وان أمرني أن ادخل أهل الارض في طاعته فعلت،وكتب بهذا اليه ايضا مرداويج الجيلي بمثل ذلك،وكتب اليه يوسف ابن ابي الساج .. واحمد بن صعلوك ... بمثل ذلك وأنفذوا رسلهم مع الاموال اليه فوقع على ظهر كتبهم : الزموا مراكزكم لكل أجل كتاب ولم يعتمد المهدي على جيش الدعاة الكبير كوسيلة لازالة الخلافة العباسية،بل اعتمد القوة المسلحة فتوجهت انظاره فور استقرار الامور له في افريقية نحو مصر الاخشيدية،فوجه ضدها حملات عسكرية قاد غالبيتها خليفته ابو القاسم محمد القائم،وكان نصيب هذه الحملات الاخفاق،وعقب وفاة المهدي توقفت هذه الحملات . ذلك أنه كان على أبي القاسم ثم ابنه المنصور اسماعيل بعده العمل في سبيل المحافظة على الوجود الفاطمي في المغرب ، هذا الوجود الذي كانت تعصف بأركانه الثورة الخارجية التي قادها ابو يزيد مخلد ابن كيداد النكاري الخارجي بأفريقيا" وكثرت اتباعه وهزم الجيوش وكان مذهبه تكفير أهل الملة واستباحة الاموال والديار ، وكان ابتداء ظهوره من سنة ست عشرة وثلاثمئة (٩٢٨ م) فما زال

أمره يتزايد حتى أخذ عدة مدن في هذه السنة ، وصار يركب حمارا أشهب ، ويلبس جبة صوف قصيرة ، وكان قبيح الصورة ، القامة أعرج " وجهد الامام القائم في سبيل القضاء على ثورة أبي يزيد التي كانت تؤيدها قرطبه (عاصمة عبد الرحمن الناصر كبير خلفاء بني اميه في الاندلس) أو تمولها ووافت المنية القائم بالمهدية دون أن يتمكن من ذلك ثم خلفه ابنه المنصور اسماعيل وقد تسنى للمنصور بعد حروب طويله (أوفى التفاصيل حولها موجودة في ترجمته في كتاب المقفى للمقريزي) القضاء على ثورة الخارجي ، وعقب ذلك أخذ يعيد تنظيم دولته ويتوجه ببصره نحو مصر ،وخلال انشغال الدولة الفاطمية في المهدية بثورة أبي يزيد الخارجي بقي الدعاة نشيطين وثابروا على تركيز الجهد على مصر وغيرها من بلدان المشرق ، ويبدو أن الدعوة كسبت بعض القواعد في مصر وأخذت هذه القواعد تستقبل المزيد من الدعاة للتدريب والتوجيه ، ولعل من أبرز الذين وصلوا الى أحد مراكز الدعوة في مصر احمد ابن الحسين الذي سيعرف باسم المتنبي الشاعر ذلك أنه بعد عودته من مصر أعلن ثورته في بادية الشام حيث أسره لؤلؤ صاحب حمص وأودعه السجن ، وسيقوم المتنبي فيما بعد نيله الشهرة الواسعة بزيارة مصر والاتصال بحاكمها كافور الاخشيدي حيث سعى لنيل ولاية منه لتكون قاعدة متقدمه للتحرك الاسماعيلي نحو احتلال مصر ، لكن كافور رفض طلبه

وضيق عليه فاضطر الى مغادرة مصر فرارا ، وفي ايام المعز خليفه المنصور تمكنت الخلافة الفاطمية بفضل حملات قادهـا جوهر الصقلبي قائد المعز من بسط سيطرتها على جميع اجزاء الشمال الافريقي ، ونشط بعض الدعاة في الاندلس لكن الاندلس ودولتها لم تكن هدف الامامة الفاطمية ، لذلك ما ان وافت الفرصة حتى زحفت القوات الفاطمية على مصر فاحتلتها ، ثم الحقت بها القسم الاكبر من بلاد الشام وفي مصر بنت الخلافة عاصمة جديدة كانت هي القاهرة ، ودار دعوة جديدة كانت هي الازهر ، وعندما انتقل مركز الفاطميين من افريقيا الى مصر لم يترك هذا المركز وراءه اتباعا عقائديين كثر حيث سهل بعد فترة قصيرة نسبيا التخلي عن الولاء الفاطمي والعودة الى الولاء السني العباسي ، وهذا يعني ان الدعوة الاسماعيلية قد نجحت في المغرب سياسيا ولم تنل النجاح عقائديا وهذا الحال سيتكرر في مصر ، وانه لمن الغرابة بمكان ان نجد للعقيدة الاسماعيلية اتباعا يؤمنون بها حيث لم تقم لها سلطة ودولة ، وان لانجد لها من يؤمن بها حيث حكمت سنين طويلة ؟ انه لامر يتمنى الباحث ان يعرف سره ويكشف مغلق لغزه .

الخلافة الفاطمية

الطور المصري الاول :

عندما نجحت الدعوة الاسماعيلية في الاستيلاء على افريقية (تونس) وازالة الحكم الاغلبي منها واحلال الخلافة الفاطمية محله ، لم تكتف هذه الدعوة بتونس ، بل ابتغت التوسع لكن ليس في بلدان المغرب بشكل أساسي ، ذلك أن هدف الاسماعيلية الاول كان ازالة الخلافة العباسية من الوجود ، واحلال الخلافة الفاطمية محلها ، لهذا كانت انظار رجال الاسماعيلية ترنو نحو مصر والمشرق ، ويوم قامت الخلافة الفاطمية كانت مصر كما رأينا واقعة تحت حكم الاسرة الاخشيدية ، وكانت هذه الاسرة تدين بالولاء للخلافة العباسية .

وسعت الخلافة الفاطمية نحو الاستيلاء على مصر وانتزاعها من الدولة الاخشيدية ، وذلك منذ الايام الاولى لاستقرار قواعد هذه الخلافة في افريقية ، ففي عهدي المهدي قاد ولي عهده القائم عدة حملات ضد مصر كان نصيبها الاخفاق بالاضافة الى الحملات العسكرية نشطت الدعوة الاسماعيلية في مصر ، كما اتخذ عدد من الاسماعيليين مصر منزلا لهم بغية العمل للاستيلاء على مقاليد الامور . وبعد وفاة المهدي سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م وفي عهد خليفته القائم محمد (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ / ٩٣٤ - ٩٤٦ م) انشغلت الخلافة الفاطمية في الدفاع عن وجودها الذي تهدد بثورة صاحب الحمار ابو يزيد مخلد بن كيداد النكاري ، ولقد استطاع خليفته القائم وابنه المنصور اسماعيل (٣٣٤ - ٣٤١ هـ / ٩٤٦ - ٩٥٣ م) القضاء على هذه الثورة وتمكن من اطفاء ثائرتها ، وفي عهد خليفة المنصور وابنه المعز لدين الله

معد (٣٤١ - ٣٦٥ هـ / ٩٥٣ - ٩٧٥ م) تمكنت الخلافة الفاطمية من بسط سيطرتها على أجزاء الشمال الافريقي ، ووافق هذا التعاظم في القوة تدهور لاحوال الدولة الاخشيدية في مصر خاصة بعد ماتوفي كافور الاخشيدي .

واغتنم المعز لدين الله الفرصة فبعث جوهر الصقلبي على رأس جيش حسن الاعداد جيد التنظيم والعدة ، واستطاع هذا الجيش أن يسيطر على مصر دون كبير عناء وعظيم خسائر ، وتم هذا سنة ٩٦٩م ، وعقب ذلك زحفت القوات الفاطمية نحو بلاد الشام وهنا كان لزحفها هذا قصة أخرى تباينت تباينا شديدا مع قصة فتح مصر .

وفي مصر قام جوهر الصقلبي ببناء مدينة جديدة لتكون مقرا للفاطميين دعاها بالقاهرة المعزية ، واقيمت القاهرة الى جوار الفسطاط العاصمة الاسلامية الاولى لمصر ، وبعد ما أنجز بناء القاهرة ارتحل اليها الخليفة المعز في موكب كبير للغاية ، وتضمن الكثير من بربر الدعوة الاسماعيلية من كميات عظيمة من الذخائر والذهب وأهل الحرف والفنون والصناعات كما حمل المعز توابيت أبيه واجداده .

وفي القاهرة استقر المعز ، وفيها ايضا بنى الفاطميون دار دعوة جديد ومسجدا كان بالوقت نفسه جامعة دعي بالازهر نسبة الى فاطمة الزهراء التي انتسبت اليها الفاطميون واطلقوا اسمها على دولتهم .

وفي مصر تم احكام بناء الدولة الفاطمية ، ووضع لها نظام اداري يمكن وصفه بالعلمية لرقيه ودقته ، كما أحكم نظام

الدعوة الاسماعيلية بشكل رائع للغاية، ويعد يعقوب بن كلس وزير المعز ثم ابنه العزيز أهم بناة النظام الاداري والدعوة للدولة الفاطمية ، ولقد استطاع هذا النظام ان يبقي الدولة الفاطمية حية لمدة تفوق القرنيين برغم انه لم يوجد بين الخلفاء الذين تعاقبوا على عرش القاهرة بعد المعز من اتسم بالمقدرة والكفاية السياسية والادارية ، فمن هو يعقوب بن كلس هذا ؟

كان من رجال الادارة والمال اليهود في العراق ، وقد هجر العراق وجاء الى بلاد الشام حيث عمل مدة من الزمن في مدينة الرملة ثم غادرها الى مصر ، واتصل هناك بكافور الاخشيدي فولاه بعض الوظائف فنجح بها الى ابعد النجاح . فاعجب به كافور اعجابا كبيرا حتى انه سمع يقول (اي وزير بين جنبيه) لوكان مسلما ، فما كان من يعقوب الا ان مضى في اليوم التالي الى المسجد حيث آعلن اسلامه . (وبلغ خبره الى كافور فسره ذلك ، وعاد من الجامع الى دار كافور ، فخلع عليه غلالة ومبطنه ودراعه وعمامة ، وزادت مرتبه عنده) .

وبعد وفاة كافور ترك يعقوب مصر وسافر الى المهدية حيث دخل في خدمة المعز لدين الله الفاطمي ، وقدم له المساعدات من أجل احتلال مصر ، وفي مصر تسلم ابن كلس وضع آسس الادارة الفاطمية هناك ، ولم يكتف بذلك بل قام باعادة تنظيم الدعوة الاسماعيلية والف كتابا " معتمدا " في الفقه الاسماعيلي ، وحين اعتل علة الوفاة عاده الخليفة العزيز فقال له : وودت لو انك تباع فابتاعك بملكي ، او تفدى فافديك بولدي فهل من حاجة

توصي بها بايعقوب ؟) وشكره يعقوب وأوصاه بأن يتبع منهجا ، سماه له عمله بالسياسة الخارجية لدولته ، ومن المدهش حقا ان وثائق الجنيزا التي عثر عليها في كنيس العاصمة المصرية القديمة ، وهي وثائق تعود الى الجالية اليهودية في مصر أيام الفاطميين، هذه الوثائق تشير الى يعقوب بن كلس باسم الاخ يعقوب ، وتوحي بأنه ظل على يهوديته وتظاهر بالاسلام .

وبعد ماتوطد الفاطميون في مصر صار تحدي العقيدة الاسماعيلية للنظام العباسي والفكر السني اكثر قوة وأشد خطرا ، وصار للفاطميين امبراطورية مترامية الاطراف شملت وهي في ذروة قوتها : مصر وبلاد الشام ، وشمال افريقية ، وصقلية والشاطىء الافريقي للبحر الاحمر مع الحجاز واليمن بما في ذلك المدينتين المقدستين : مكة والمدينة ، وسيطر الفاطميون على جيش هائل من الدعاة ، واعتمدوا على ولاء عدد لايحصى من الاتباع في اراض كانت خاضعة للحكم العباسي فعليا او اسميا .

ومن الممكن ان يقسم التاريخ الفاطمي في مصر الى طورين، ينتهي الاول منهما مع بداية عصر الحاكم بأمر الله وينتهي الثاني بسقوط الخلافة الفاطمية على يد صلاح الدين الايوبي ، وقد قام هذا التقسيم على اعتبارات سياسية ودينية .

فمن الناحية السياسية : أخذت مظاهر الضعف تبدو على جسم الخلافة في مصر ايام الخاكم ، وفي عهد الحاكم جرت محاولة لاعادة بناء أسس العقيدة الاسماعيلية حسب منطلقات مصرية فرعونية تعود في جذورها الى حركة التوحيد زمن اخناتون ، وقد جاءت المحاولة هذه بعقيدة

جديدة عرفت بعقيدة التوحيد ، وشهرت باسم الديانة الدرزية ، وفي هذه الديانة رفع من شأن الحاكم من المنزلة الناسوتية الى الدرجة اللاهوتية كما هو الحال في الديانة المسيحية ، وتم احداث مزج عجيب بن مختلف التيارات الدينية والفلسفية الصوفية لعالم المشرق القديم والوسيط وسيأتي اليوم الذي تفحص فيه هذه الديانات وأصولها فحصا " علميا " آنذاك يمكن التعرف الى الطريق الذي وصلت عبره الافكار التوحيدية الفرعونية الى مؤسسات الدعوة أيام الحاكم ، فيما اذا كان مصريا " محليا " او " كلاسيكيا " فالتعرف الى هذا الطريق يمكن أن يفسر الكثير من الامور .

هذا ويبدو لي أنه كان مصريا " محليا " ذلك أن الحاكم كان قد عرف مامنيت بـه الدعوة الاسماعيلية من نكسات ، ومالحق بها من اخفاق في الوصول الى اسقاط الخلافة العباسية ، وكان ايضا قد ادرك أن المؤمنين من المصريين بالعقيدة الاسماعيلية قلة فأراد بتجديده. أن يكسب انصارا " مصريين ويعطي الحركة تدفقا " جديدا " ولقد اخفق الحاكم وذلك لاسباب سنمر بذكر بعضها .

وجاء اخفاق الفاطميين في اسقاط الخلافة العباسية من بلاد الشام لا من قوة الدولة العباسية وترسخ أسسها ، بل من اسباب اخرى فبعد ما استولى جوهر الصقلبي على مصر ، وفي العام نفسه ، ارسل جيشا كبيرا ، اوكل قيادته الى الامير البربري جعفر بن فلاح، نحو بلاد الشمام كي يعمل على ضمها الى الحكم الفاطمي،ولقي هذا الجيش اثناء زحفه في فلسطين مقاومة من الجيوش الاخشيدية ،لكنه

تغلب عليها وتابع سيره نحو دمشق ، وقبيل وصوله اليها فر حاكمها الاخشيدي منها ، (فخلت المدينة من السلطان ، فطمع الطامع ، وكثر الذمار وحمال السلاح ، ونظم الدمشقيون امور الدفاع عن مدينتهم بأن اغلقوا ابوابها) وأوقفوا الرماة على شرفات الاسوار واقاموا الحواجز داخل المدينة ، وكسروا قني الماء ، وحفروا الخنادق ، واشترك الرجال والنساء والصبية في الاعداد للدفاع عن دمشق ، ونظم أمور المقاومة جماعة عرفت بالاحداث كانت منظمة شبه عسكرية ، قامت في مدن بلاد الشام ، وأدت خدمات بلدية وعسكرية وبوليسية، وكاد أهالي دمشق ان يتمكنوا من صد قوات الفاطميين عندما هاجمت مدينتهم لولا ان جماعة من التجار والاشراف قامت فشكلت وفدا " قام بالتوسط لدى جعفر بن فلاح وأخذ يبث التخاذل بين المدافعين مما سبب ايقاف المقاومة وفتح ابواب دمشق لجيش ابن فلاح .

وكان ابرز الزعماء القائمين بالدفاع عن دمشق رجلا من عامة أهلها اسمه ابو اسحق محمد بن عصودا ، وبعدما سقطت دمشق للجيش الفاطمي نجا ابن عصودا بنفسه وهرب الى الاحساء في شبه الجزيرة العربية ، فاجتمع بزعيم القرامطة الحسن الاعصم ، فحضه على مساعدة دمشق ، فلقي الاستجابة منه ، وجاء جيش قرمطي الى دمشق فالتقى بجيش ابن فلاح ، فهزمه ، ولقي ابن فلاح مصرعه اثناء المعركة ، وهكذا تخلصت دمشق من الحكم الفاطمي ، وعين القرامطة عليها من يحكمها ، وتابعوا سيرهم نحو مصر كي يخلصوها بدورها من الحكم الفاطمي ، ولكنهم اخفقوا وهزموا ،وجرت الجيوش الفاطمية مجددا في اثرهم لملاحقة فلولهم ولاعادة جنوب

بلاد الشام الى حظيرة الخلافــة الفـاطميــة .

وحدث هذا كله سـنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م ، وكان الخليفة المعـز لدين الله يحكم في القاهرة ، لذلك قام بتعيين ظالم بن موهــوب (أو مرهوب) العقيلي حاكما " على دمشق وحاول ظالم العربي الاصل آخـذ دمشق بالحديد والنار ، فأوقع الحرائق بعدة اماكن من المدينة ولكن ذلك لم يفت في عضد الدمشقيين بزعامة الاحداث ، واخيرا تم الوصول الى تسوية غادر بموجبها ظالم ابن موهوب دمشق ، وسـمح الاحداث لحاكم فاطمي آخر من أصل بربري اسمه جيش بن الصمصامة بدخول مدينتهم ، وكان هذا حلا موّقتا ، وغير ناجح ، اذ سـرعان ما عادت الاضطرابات الى دمشق وهنا تدخل المعز فأوعز الى واليه على طرابلس بالقدوم الى دمشق للمساعدة على حل مشاكلها ، فقام هـذا بصرف القوات الفاطمية واجلاها عن دمشق ، وهكذا تم الوصول الى تفاهم موّقت مع احداث دمشـق الذين أحكموا قبضتهم على المدينة وأمورها ، وكان زعيـم الاحداث في هذه الآونـة عاميا عرف باسم ابن الماورد . وكانت منطقة باب الصغير هي نقطـة تمركز الاحداث او مكان ثكنتهم .

وفي هذه الاونة حدثت مشاكل سياسية كبيرة في بغداد أدت الى خلع الخليفة العباسي المطيع لله (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ /٩٤٦ - ٩٧٤ م) واستخلاف ولده الطائع ودفعت هذه المشاكل بعض العسكريين الاتــراك الى القيام بهجر بغداد ، وكان من بين هؤلاء واحد عرف بألبتكتيـن الحاجب ، ترك العراق وجاء الى دمشق ، وعندما وصلها عسكر مع غلمانه خارجها ، فخرج اليه بعض شيوخ المدينة واشرافها فرحبوا به وسألوه (الاقامة عندهم ، والنظر في احوالهم) وقبل البتكيـن العـــرض

وتمكن من دخول دمشق فرتب أمورها بالتعاون مع الاحداث ، وكان زعيم الاحداث رجلا " عرف باسم قاسم التراب " وقاسم هذا كان أصله من احدى قرى دمشق من قوم من العرب كان يقال لهم الحارثيون وقد نشأ في دمشق ، وكان يعمل في التراب ، ثم انضم الى الاحداث فتزايد أمره بينهم حتى غدا أول رجل بينهم .

وفي القاهرة حيث كان الخليفة المعز قد توفي وخلفه ابنه العزيز ، قام هذا الخليفة باعداد جيش كبير جره نحو دمشق ، وجعل على رأسه جوهر الصقلبي فاتح مصر وأمره ان يسترد دمشق بأي ثمن ، واخفق جوهر ، واستطاع البتكين صد جيوش الفاطميين وأوقع فيها الهزيمة وألحق بها العار في اكثر من معركة ، مما أضطر العزيز الى الخروج بنفسه لحربه ، واستطاع العزيز ايقاع الهزيمة بالبتكين واصطحبه معه الى القاهرة سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م لكن هزيمة البتكين لم تؤد الى سقوط دمشق ، بل حافظت المدينة على استقلالها ، واستبد قسام واحداثه بأمورها ، فضبطوها ضبطا " جيدا " وقام قسام بمراسلة الخليفة العزيز ، فاعترف اسميا بسلطانه ، ودافعه عن دمشق ، واراد خداعه ، وتظاهر العزيز بالرضى لكنه مالبث ان جرد جيشا جديدا أرسله نحو دمشق ، ولم يتمكن هذا الجيش من تحقيق مهمته واضطر الى الانسحاب راضيا بتعهد من قسام بأنه لن يسلم دمشق لحاكم يدين بالطاعة للعباسيين ودام الحال هكذا حتى سنة ٣٧١ هـ / ٩٨١ م حيث جهز الخليفة جيشا " فاطميا " جديدا لاعادة السيطرة على دمشق ، وذلك بعدما باءت بالفشل محاولات اخرى مختلفة مثل قطع المؤن والتجارة عنها ، واثارة الاعراب

ضدها بغية اسقاط حكم قسام ، ووصل الجيش الفاطمي دمشق فحاصرها طويلا ، ولقي من المقاومة الشيء الكثير ، ولكن انشقاقا في صفوف أهل المدينة اجبر قسام على القاء السلاح ، ودخل الفاطميون دمشق ، ولكن مقاليد الامور بقيت بيد الاحداث ، وظل الحال هكذا حتى سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م حيث تمكن الفاطميون من دعوة الاحداث الى وليمة غدر ،جعلوهم فيها طعمة السيوف ، وهكذا توطد حكم الفاطميين في جنوب بلاد الشام ، ولكن الى حين •

وفي الوقت الذي كان فيه الفاطميون يسعون للسيطرة على دمشق حاولت بعض جيوشهم الاستيلاء على مدينة حلب ، فاخفقت بفضل دفاع حكامها من الاسرة الحمدانية عنها وبفضل حماية الامبراطورية البيزنطية لها ، ذلك أن هذه الامبراطورية رغبت في ان تكون حدودها من بلاد الاسلام مع دولة صغيرة لا مع دولة قوية واسعة الاملاك •

وحتى اوائل ايام العزيز كان قوام الجيش الفاطمي الجند البربر الذين فتحوا مصر ثم الذين اصطحبهم المعز حين قدم مصر ، ولكن الان آخذ العزيز بتجنيد عناصر تركية وديلمية على غرار الخلافة العباسية ودول الشام والمشرق ، كما شرع بتشكيل فرق زنجية ، وسيكون لهذا انعكاساته على مستقبل الخلافة الفاطمية ، حيث سيقوم صراع بين جنسيات الجيش وسيؤدي ذلك الى اضعاف الخلافة وزعزعة كيانها •

الخلافة الفاطمية

الطور المصري الثاني :

توفي العزيز سنة ٩٩٦ م ، فخلفه ابنه ابو علي المنصور الملقب بلقب الحاكم بأمر الله وكان صبيا صغيرا ، فاديرت أمور الدولة من قبل عدد من الرجال الى ان بلغ من السن مامكنه مباشرة الحكم بنفسه ، وما ان فعل ذلك حتى طبع العصر بطابعه الخاص ، ونظرا لكثرة ماقام به من اعمال اتسمت بالتناقض الشديد ثم للنهاية التي آل اليها ، اختلفت آراء الناس فيه في القديم والحديث ، فالدروز رفعوه الى المنزلة الالهية ، ويحيى بن سعيد الانطاكي ، وكان من معاصريه - وسمه بالاصابة بالماليخوليا والجنون ، وفي القرن الثاني عشر (م) عد العظيمي - وهو مؤرخ حلبي معروف - رأي الانطاكي دليلا على عدم الفهم وقصورا في الادراك ، وفي هذا الوقت بالذات وصف وليم الصوري وهو كبير المؤرخين اللاتين - الحاكم بتنين الرعب - وفي عصرنا رأى بعض الكتاب في شخصية الحاكم لغزا يستحيل حله ، ورأى آخرون فيه الشر والكفر ، وقام عبد المنعم ماجد فرفعه الى منزلة ابي بكر وعمر .

والحق ان وصف كل من الانطاكي ووليم الصوري متأثر الى أبعد الحدود بعقيدة الرجلين وهي المسيحية ،ذلك ان الحاكم اتبع سياسة خاصة متشددة تجاه أهل الذمة من يهود ونصارى وكان باعثه على اتباع هذه السياسة هو انه كان يعمل على تأسيس عقيدة جديدة اراد أن يجمع الناس عليها ان طوعا وان كرها ،مع الاخذ

بعين الاعتبار أن سياسة التشدد تجاه أهل الذمة كانت قد بدأت في اواخر ايام العزيز ، ذلك أن هذا الخليفة عول على عيسى ابن نسطورس النصراني في تدبير شؤون الدولة المالية بعد وفاة يعقوب بن كلس ، ومال عيسى هنا (الى النصارى فقلدهم الاموال والاعمال والدواوين ، واطرح الكتاب والمتصرفين من المسلمين ، واستناب بالشام رجلا يهوديا يعرف بمنشا بن ابراهيم ، فسلك منشا في التوفر على اليهود سبيل عيسى مع النصارى ، ورفع منهم واستخدمهم واستولى أهل هاتين الملتين على الدولة ، فكتب رجل من أجلاد المسلمين رقعة سلمها الى امرأة بذل لها بذلا على اعتراض العزيز بالله بالظلامة وتسليمها اليه ، وكان مضمون الرقعة: يا أمير المؤمنين ، بالذي أعز النصارى بعيسى بن نسطورس واليهود بمنشأ بن ابراهيم وأذل المسلمين بك الا نظرت في امري) .

وكان لهذه الرقعة تأثيرها في العزيز حيث (تقدم في الحال بالقبض على عيسى بن نسطورس وسائر الكتاب من النصارى ،وانشأ الكتب الى الشام بالقبض على منشأ بن ابراهيم اليهودي والمتصرفين من اليهود .

ويبدو أن الحاكم أراد أن يزلزل أركان مجتمع دولته خاصة في مصر . فكان يصدر الاوامر الغريبة ، ثم يلغيها ويصدر غيرها وهكذا ، ولعله ابتغى من وراء ذلك تمهيد الطريق أمام عقيدته الجديدة ، ثم اقناع الناس بأنه هو فقط فعال لما يريد .

ولم يكتف الحاكم بالاخذ بهذه الوسيلة بل عمد الى الاكثار من سفك الدماء وبخاصة دماء كبار رجالات الدولة ، ولعله اراد من

وراء هذا ازالة رجال العقيدة القائمة لاحلال اتباع العقيدة الجديدة محلهم ، ثم الايحاء بأنه هو وحده قادرا على أخذ الحياة ممن يشاء وساعة يشاء ، له الحق في ذلك كاملا " دون اعتراض "

وقد واجه الحاكم العديد من الثورات كان اولها واكبرها ثورة ابي ركوة الذي ادعى انه هشام بن الوليد الاموي الاندلسي، وكان مسرح نشاطه بين البدو الذين كانوا يقطنون الاراضي الليبية المصرية ، وقد تيسر للحاكم القضاء على هذه الثورة بعد جهود مضنية وتأتي بعد هذه الثورة التي قامت بين قبائل بني قرة العربية ثورة اخرى قامت في فلسطين بين قبائل طيء ، وقد جلبت طيء أحد اشراف مكة واعلنته خليفة في الرملة ، وايضا تيسر للحاكم القضاء على هذه الحركة ثم واجه بعد هذا جيشا شعبيا في بلاد الشام تزعمه الاحداث ، وقد نجح احداث مدينة صور بزعامة رجل اسمه علاقة الملاح في نزع زمام الامور في بلدتهم من الفاطميين وقام العلاقة فضرب نقوده الخاصة وكانت ردة فعل الحاكم تجاه هذه الثورة شديدة حيث بعث اسطوله ضد صور واردفه بجيش بري ، واستطاع الفاطميون أخذ صور ، وأوقعوا الهزيمة بالعلاقة وآسروه ، حيث حمل الى القاهرة وهناك سلخ هذا الثائر حيا وصلب بظاهر القاهرة .

وعندما شعر الحاكم باستتباب الامور له ، بدا بتحركه الديني ، فكان ان تخلى عن ملابسه المذهبة ، ولبس الصوف وتظاهر بالزهد ، وسمح للدعاة بالقول ان الاله قد حل فيه، وأثار هذا القول ردات فعل عنيفة في العاصمة المصرية ، بخاصة في القسم السابق لاقامة القاهرة ، وفي ذروة الصراع من أجل العقيدة الجديدة

التي ستعرف بالدرزية ، اختفى الحاكم من على مسرح الاحداث ، وجاء هذا بشكل مفاجىء أحدث دويا كبيرا واحتار الناس في كشف مبهمه ومعرفة أسبابه وصناعه .

فمن قائل ان الحاكم قد اغتيل بفعل مؤامرة أعدتها اخته ست الملك بالتعاون مع عدد من قادة الجيش ورجالات الدولة ، هذا ويرى الدروز بأن الحاكم تغيب بفعل رغبته وارادته الخاصة ، وانه قام برحلات كبيرة شملت مناطق شاسعة من بلاد الشام والمشرق حتى الهند ، هذا وللغيبة الكبرى والصغرى مكانة خاصة في العقيدة الاسماعيلية ، وفي حين يرى الدروز هذا الرأي يحلو لبعض الكتاب القول ان الحاكم قد اغتيل من قبل رجال دعاة دعوته الجديدة ، ذلك أن تغيبه حوله من حال الواقع الى الاسطورة ، ولاشك أن الوهم والاسطورة أهم ينابيع الكثير من العقائد والديانات .

واختفى في سنة ٤١١ هـ / ١٠٢١ م الخليفة الحاكم عن مسرح الاحداث ، وكان أيام خلافته قد عين عبد الرحيم بن الياس ، وهو من أولاد عمه ، وليا لعهده ثم عزله ، وحين هلك أخرجت أخته ست الملك ابنه أبا الحسن علي واعلنته اماما جديدا وهرب عبد الرحيم بن الياس ، وأمسكت ست الملك بزمام الامور ، ومنح الخليفة الجديد لقب الظاهر لا عزاز دين الله ،وفي هذا اللقب اعلان في العودة الى الدين الحق بعد محاولة الخروج من جادته ، وكان الظاهر يوم أعلن خليفة مايزال صبيا ولهذا استبدت عمته بكل شيء وغلبته على أمره .

ومع توليه للخلافة أخذت مظاهر الضعف والتفكك تبدو على

الامبراطورية الفاطمية ، ففي بلاد الشام تحالفت قبائل الشام الرئيسة وهي : كلب وطيء ، وكلاب ، على طرد الفاطميين من البلاد واقامة دول عربية ثلاث : واحدة في دمشق لكلب ، وثانية في الرملة لطيء ، وثالثة لكلاب في حلب ، وتزعم هذا التحالف : حسان بن المفرج الطائي ، وسنان بن عليان الكلبي ، وصالح بن مرداس الكلابي واستطاع هذا التحالف تحقيق جزء كبير من برامجه ، فطرد الجيوش الفاطمية واجلاها عن الشام ، واقام صالح بن مرداس الدولة المرداسية في حلب ، لكن حدث أن توفي سنان بن عليان ، فتصدع التحالف ، مما شجع الخلافة الفاطمية على ارسال جيوشها الى الشام ، وفي وادي البيرموك هزمت الجيوش الفاطمية صالح بن مرداس وقتلته في معركة عرفت بمعركة الاقحوانة ، لكن رغم هذا النصر لم يستطع الفاطميون تثبيت اقدامهم طويلا في الشام وتوفي الظاهر وهو لايزال في مقتبل العمر فخلفه ابنه معد بلقب المستنصر وكان هذا سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٦ م ، ويعد عصر المستنصر أطول عصور الخلفاء الفاطميين حيث أمتد حتى سنة ١٠٩٤ م .

وفي هذا العصر المديد وصلت الخلافة الفاطمية الى ذروة توسعها ثم هوت بسرعة كبيرة وذلك لاسباب داخلية واخرى خارجية ، ففي عصر المستنصر ضعف شأن الاسرة البويهية التي كانت تتحكم بخلفاء بغداد ووجدت في المشرق دول اسلامية سنية كبرى ، وحيث ان الدعوة الاسماعيلية لم تستطع الوفاء بالوعود التي قطعتها على نفسها ، فقد خبت جذوة هذه الدعوة وفي الوقت نفسه شهدت بلدان العالم الاسلامي ، بعثاً سنياً في المشرق ، لكن الفضل في نجاحه بسرعة

يعود الى السلاجقة الذين خلعوا الدولة الغزنوية في حكم خراسان ٠ والسلاجقة كما رأيناهم أسرة الزعامة لدى القبائل التركمانية ففي بداية القرن الحادي عشر هاجرت مجموعات كبرى من التركمان من موطنها في بلاد ماوراء النهر الى خراسان ، ومن هناك انساحت الى العراق وبلاد الشام والجزيرة وآسية الصغرى وارمينه ، ونجمت من هذه الهجرة نتائج خطيرة للغاية كان لها انعكاساتها على تاريخ العالم الوسيط أجمع وعلى الخلافة الفاطمية بشكل خاص ، وألم بالمناطق التي هاجر اليها التركمان دمار كبير كما انها شهدت تغيرات سياسية واجتماعية ودينية وعرقية كبيرة ٠

ولم تحدث الاستفاقة السنية في المشرق فقط بل قامت في المغرب ايضا ، ففي ولاية افريقية - تونس - أعلن حاكمها المعز بن باديس استقلاله عن الفاطميين ، وترافق هذا بالبطش بعناصر الاسماعيلية في ولايته ، وتجديد قواعد العقيدة السنية ، وجمع الناس كلهم على مذهب مالك ، وحين حدث هذا كانت مصر تعاني من مواسم للجفاف متعاقبة وقصور في النيل افقر البلاد وأصاب الناس بالمجاعة والوباء ، لذلك عجزت الخلافة الفاطمية عن القيام بأي عمل مباشر ضد المعز بن باديس ٠

وكان في مصر العديد من القبائل العربية جلها من هلال وُسلَيْم وكانت هذه القبائل مصدر شغب واخلال بالامن ، وحين قامت المجاعة وحدث الانفصال في إفريقيةَ ، شجعت هذه القبائل ، لا بل دفعت للزحف نحو تونس ، وهنا حدثت الهجرة الهلالية الكبرى ، وحققت هذه الهجرة غرض تدمير سلطة ابن باديس ، لكنها لم ترجع

شمال افريقيا الى العقيدة الاسماعيلية بل ساعدت بشكل حاسم على تعريب الشمال الافريقي ، وتشكل اثار هذه الهجرة واخبارها واحدا من محاور فلسفة ابن خلدون التاريخية الاساسية ، وقد لقيت عناية خاصة من قبل المستشرقين بخاصة الفرنسيين ايام الاستعمار في المغرب وكان الهدف القول ان العرب دمروا الشخصية المغربية البربرية مع الحضارة وان البلاد ينبغي ان تعود الى اصولها الى غير ذلك من الدعاوى الحاوية الزيف والاختراع ، والتي تهاوت جميعا بعد ما كشف باطلها . وفي المشرق ، ومع تدفق التركمان على أراضيه زحفت جموعهم نحو العراق للسيطرة على بغداد وانهاء النفوذ البويهي فيها ، كما زحفوا على الجزيرة وبلاد الشام ، وأثر هذا في كل من التركمان أنفسهم وفي القوى السياسية والعربية لهذه المناطق وقامت تحالفات متنوعة مع العديد من الخصومات ، كما برز عدد من المغامرين خاصة بين صفوف بقايا الجند البويهي وكان من أبرز هؤلاء رجل عرف بالبساسيري .

والبساسيري هو ابو الحارث ارسلان التركي ، نسب الى بلدة بسا بفارس (والعرب تسميها فسا وينسبون اليها فسوي ، وأهل فارس يقولون بسا ، بين الباء والفاء وينسبون اليها البساسيري وكان مولاه رجل من أهل بسا ، فنسب الغلام اليه ، واشتهر بهذه النسبة) . وبدأ البساسيري حياته كعبد تركي لدى الحكام من آل بويه وتدرجت المناصب به حتى اصبح في سنة ٤٢٥هـ /١٠٣٢م الحاكم العسكري للقسم الغربي من بغداد ، وبعد هذا صار من ابرز شخصيات السلطة في بغداد واكثرها قوة ، وعرضه هذا التصارع مع غيره من

رجالات بغداد الى البحث عن الحلفاء من الداخل والخارج وحين رأى خصومه يتحالفون مع السلاجقة راسل القاهرة وعرض عليها امداده بالمعونات والاموال حتى يزيل الخلافة العباسية من الوجود .

وتجاوبت القاهرة مع ماعرضه البساسيري عليها ، وفي سنة ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م ، ارسلت الخلافة الفاطمية الى البساسيري ماقيمته (٢٫٣٠٠٫٠٠٠) من الدنانير مع داعي الدعاة المؤيد في الدين وبعد جهود مضنية واتتت الفرص البساسيري سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م فدخل بغداد ، واعتقل الخليفة العباسي ، حيث اودع في حديقة عامة على الفرات ، وألغيت الدعوة العباسية وخطب الخطباء للمستنصر من على منابر بغداد ، وهكذا تحقق حلم الفاطميين في القضاء على الخلافة العباسية، لكن هذا كله كان سرابيا ، حيث لم يمض العام الواحد على حكم البساسيري لبغداد حتى تمكن طغرلبك سلطان السلاجقة من قيادة مجموعة من التركمان ، فاستعاد بغداد وقتل البساسيري ، واعاد الخليفة العباسي الى داره .

وعقب هذا بوقت تمكن التركمان من أخذ دمشق والانسياح في جنوب الشام وشماله فقامت لهذا مع اخفاق البساسيري ردات فعل كبيرة في القاهرة ، حيث تمرد بعض ضباط الجند على الخليفة وارادوا التحكم فيه ، وتمكن في سنة ١٠٧٤ م أحد الضباط من الاصل الأرمني واسمه بدر الجمالي من الاستيلاء على مقاليد الامور في القاهرة .

وقبل هذا كان الخليفة الفاطمي يسيطر على جميع فروع السلطة في دولته وهي (الادارة ، والدعوة والدعاة ، والجيش) وكان الوزير الذي رأس قسم الادارة ، الشخصية الاولى في الحكم بعد

الخليفة وكان داعي الدعاة يرأس الحزب الفاطمي ويسير جيشا هائلا من الدعاة الموزعين في جميع انحاء العالم الاسلامي والهند ، وكان قائد الجيش رئيسا للجند وثالثا في الترتيب في حكم كان بالاساس مدنيا .

لكن الان صار آمير الجيوش سيدا للبلد ، يحكم على الخليفة ويحجر عليه ويحمل من الالقاب لقب وزير وداعي دعاة ذلك بالاضافة الى لقبه كأمير جيوش ، وغدا منصب أمير الجيوش منصبا وراثيا وقد ايقظ هذا التسلط والتغيير عدم رضا . ومعارضة شديدتين بين صفوف الحركة الاسماعيلية .

وبعد وفاة الخليفة المستنصر سنة ١٠٩٤ م واجه الافضل بن بدر الجمالي الذي ورث منصب ابيه فصار امير للجيوش وداعيا للدعاة ، واجه آمر اختيار خليفة جديد ، كما واجه عددا من المسائل الاخرى نجمت في الاساس عن تملك التركمان لبلاد الشام ، ومن تعرض هذه البلاد لغزو جديد جاء من اوربة الغربية ، وعرف بالغزو الصليبي .

وكان امام الافضل نزار ، الابن الاكبر للمستنصر ، وكان معينا لولاية عهد ابيه ، وكان أمامه ايضا آخوه الاصغر المستعلي وكان حدثا بدون مساندة او جماعة فاختاره آمير الجيوش خليفة اماما جديدا وصاهره على اخته (أي اخت الافضل) وهرب نزار الى الاسكندرية فقام بثورة هناك ، لكن قوات امير الجيوش تمكنت من ملاحقته والقضاء عليه وعلى حركته ، وادى اختيار المستعلي الى انشطار الدعوة الاسماعيلية الى قسمين ، فقد رفض الاسماعيليون في المشرق وكذلك القسم الاكبر من اسماعيلية بلاد الشام الاعتراف

بالخليفة الجديد ، وقامت بين صفوفهم دعوة جديدة أسسها حسن الصباح في المشرق وبنى اركانها في قلعة ألموت ، كما استولى على عدد من القلاع كان من اشهرها قلعة لمسر ، وابدع حسن الصباح طرقا جديدة لنشر دعوته ، واعتمد الاغتيال السياسي بطعن الخصوم حتى الموت ، بالسكاكين ، وقد عرفت دعوته في المشرق باسم الباطنية وقد تمكن اتباع حسن الصباح من الاستيلاء على عدد من القلاع الهامة في بلاد الشام ، ومارسوا هناك دورا بالغ الخطورة وكان اسمهم في بلاد الشام الحشيشية ، وهي كلمة غير معروفة الاصل حتى الآن، انما انتقلت الى اللغات الاوربية لتعني الاغتيال .

ذلك ان حشيشية الشام وباطنية المشرق قاموا بعدد من عمليات الاغتيال الكبرى ضد قادة المسلمين السنة بشكل رئيسي وضد قادة الاسماعيلية المستعلية في مصر . كما نفذوا بعض عمليات الاغتيال ضد بعض قادة الصليبيين ، واثاروا جوا كبيرا من الرعب كما فرضوا فروضا مالية كبرى على قادة المسلمين في المشرق والشام وعلى بعض قادة الصليبيين وحتى تبعا لبعض الروايات - على ملوك اوربه واباطرتها .

وبعد وفاة حسن الصباح خلفه أحد معاونيه وعرف باسم كيابزرك أميد . ويتولى كيابزرك أميد هذا حكم اتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة بيد أسرة وراثية ، وبعد وفاة كيابزرك أميد قام احد أحفاده فادعى لنفسه النسب الاسماعيلي ، وصاغ قصة مفادها بان نزار بن المستنصر خلف طفلا " جلب الى ألموت سرا " وربي هناك وعاش وأنجب ، ثم عندما حان الوقت قام واعلن نفسه

اماما اسماعيليا " جديدا " وترافق هذا الاعلان بطقوس كبيرة للغاية ، عرفت بطقوس القيامة الصغرى ، وقد وصلنا وصف مفيد لهذه الطقوس في كل من بلاد الشام والمشرق .

ففي السابع عشر من رمضان لسنة ٥٥٩ هـ / ٨ آب ١١٦٤ م ، أمر صاحب الموت وسيد الباطنية والحشيشية الحسن بن محمد بن كيابزرك أميد باقامة منبر متوجه الى الغرب نصب على اطرافه اربع رايات كبار واحدة بيضاء ، وثانية صفراء والرابعة خضراء وواحدة حمراء ، واجتمع في الساحة جمهور كبير من الناس من مختلف الاجناس والاقطار وحيث ان المنبر كان موجها الى الغرب فقد كانت ظهور المجتمعين موجهة الى الكعبة وعند الظهر كما يقول مصدر اسماعيلي (نزل المولى حسن - على ذكره السلام - من القلعة مرتديا "رداء ابيض " وعمامة بيضاء ثم ارتقى المنبر بكل جلال وبعد ماتفوه بالسلام صرح برسالة الامام القائم ، باعلان القيامة ، وببعثه صلواته ورحمته لاتباعه وتسميتهم بعباده المختارين وبموجب القيامة أعفاهم من أعباء الناموس وتكاليف الشريعة ، ثم نزل من على المنبر فصلى ركعتي العيد وظهره الى الكعبة ثم مد سماطا عظيما ، ودعا الحسن الناس الى الافطار والمشاركة بالوليمة ، واباح لهم بأن يطربوا ويمارسوا من الاعمال مارغبوا ، ولقد تقبل غالبية الباطنية الاعمال الجديدة ، على ان قلة منهم رفضت التحرر من نير الشريعة فاستخدم حسن ضدهم اصرم العقوبات وأشدها (مؤكدا انه كما في عصر الشريعة اذا لم يطع الانسان الناموس ولم يتعبد ، بل اتبع احكام القيامة بحجة ان الطاعة والعبادة أمران

روحيـــان ،كان ينكل بـه ويرجم او يقتل ، فكذلك الان في عصـــــر القيامة الصغرى ، اذ تقيد المرء بجـرفيه الشريعة ، وواظب علــــى العبادة الجسدية وعلى تطبيق الشعائر فان ذلك يعد تعصبا ينكل مـن أجلـه ويقتـل .

ولقد استمر اتباع ألموت اقويياء يزرعون الرعب في كل مكان ويبرهنون على عجز سلطات دول الاسلام وتجاهلهم حتى قام الغـــــزو المغولي لبلاد الشام ففي طريقه لاحتلال بغداد ، قام هولاكو باحتـلال قلاع ألموت ولمسر وبقية القلاع الاسماعيلية في المشرق ، وقضى على مؤسساتهم السياسية ، لكن اتباع العقيدة الاسماعيلية ظلوا يعيشون في بقاع كثيرة ، وفي العصر الحديث يتزعمهم أئمة يحمل الواحـــــد منهم لقب الاغا خان ، ويدعون الانحدار من أئمة ألموت . وعندمـــا أقام الافضل المستعلي اماما " جديدا " قبل بهذا الاختيار عـــدد لابأس به من الاسماعيلية . وبعد وفاة المستعلي صار ابنة الآمـر اماما " جديدا " وفي سنة ١١٣٠ م تمكن اسماعيلية ألموت من اغتيال الآمر وعقب اغتيال الآمر رفض الاسماعيلية المستعلية الاعتـــراف بالخليفة الفاطمي بالقاهرة ، وتبنوا عقيدة فيها أن طفلا رضيعا للآمر يدعى الطيب كان قد فقد ، حيث استتر وتغيب ، وكان تغيبه في اليمن لدى احدى سيدات الاسرة الصليحيـة التي كانت تحكم اليمـن ، والطيب هو الامام المنتظر ولهذا لم يعد لدى المستعلية أئمة بعده ، انما صار المسؤول عن أمورهم داعي الدعاة ، وقد نقل اتباع هذه الدعوة نشاطهم مع مركز أعمالهم الى الهند،ويوجد الآن في الهنـــد مايقارب المليون ونصف المليون من المستعلية وتعرف طائفتهم باسم

البهرة وافراد هذه الطائفة من اكثر أهل الهند ثراء ويحمل داعي دعاتهم لقب سلطان ، لهم لغتهم الخاصة وجامعتهم ومعاهدهم الثقافية .

وحكم بعد الآمر في القاهرة أربعة خلفاء من الاسرة الفاطمية لكنهم لم يعدوا أئمة ، ثم كانوا بلا صلاحيات او نفوذ داخلي أو خارجي وضعفت مصر في زمنهم ضعفا شديدا ، ونجم ذلك عن توسع الصليبيين وعن تنافس القوى في القاهرة وصراعاتها من أجل منصب أمير الجيوش وأراد بعض أفراد هذه القوى الاستعانة بمملكة القدس الصليبية وعرف الصليبيون مصر وقدروها حق قدرها فعملوا من أجل احتلالها فتدخل نور الدين محمود بن زنكي ، سيد الشام وبطل الاسلام زمن الحروب الصليبية ، فمنعهم بجيش قادة أسد الدين شيركوه - وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب بصحبة عمه أسد الدين ، كما أنه كان أبرز أمراء الحملة بعد عمه وعقب وفاة أسد الدين حل محله صلاح الدين ، وتسلم منصب الوزارة ، وقام صلاح الدين في سنة ١١٧١ م - بناء على تعليمات تلقاها من نور الدين - بالغاء الخلافة الفاطمية واعاد مصر الى حظيرة الدولة العباسية ، ولم يؤد هذا الالغاء الى ردات فعل شيعية في داخل مصر ، ويبدو أن مرد ذلك يعود الى ان العقيدة الاسماعيلية لم تتعد سيطرتها على مصر أطر السياسة ، وكان عدد الاسماعيليين في مصر قليلا خاصة بين المصريين ، ذلك ان الحركة الاسماعيلية انصرفت بعد سيطرتها على مصر الى النشاط الخارجي وأهملت الوضع الداخلي ، وكان هذا من أعظم الاخطاء التي وقعت فيها (١)

---

(١) أنظر كتابي اخبار القرامطة ومصادره ،وكتاب الحشيشية بترجمتي مع كتاب اصول الاسماعيلية لبرناردلويس ، وملاحق كتابي، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية .

الفصل الثاني

الحروب الصليبية

بلاد الشام لدى الجغرافيين الاوائل هي صقع يحده من الشرق نهر الفرات ومن الغرب البحر الابيض المتوسط ومن الجنوب البحر الاحمر وعريش مصر ، ومن الشمال سفوح جبال طوروس المطلة على بدايات آسية الصغرى وهو ماعرف في العصور العباسية باسم : الثغور الشامية والجزرية مع بيزنطة ، وهي تتوغل حتى مابعد مدينة طرسوس في جمهورية تركيا اليوم .

ويعد هذا الموقع موقعا "متميزا" وقد كان ذا اهمية عالية للغاية بالنسبة لبلدان قارات العالم القديم الثلاث : آسية ، اوروبة ، وافريقية . فهذه البلاد الواقعة في البر الاسيوي والمالكة لشواطىء طويلة على البحر الابيض المتوسط قامت بدور صلة الوصل بين افريقية وآسية برا عبر مصر، وبحرا عن طريق البحر الابيض المتوسط وفي الوقت نفسه ، وصلت بين افريقية وأوروبة الشرقية على اعتبار ان بداية اوربة الشرقية تاريخيا وحضاريا وبشريا ولغويا وحتى اقتصاديا ، عند آسية الصغرى وفي نقاط التماس مع الشام ، كل هذا برغم الاقرار الجغرافي بأن البسفور يفصل بين البرين الاسيوي والاوربي .

وفي بلاد الشام التقت تيارات المد من أمواج الهجرات البشرية في العصور القديمة والوسيطة ، فالمهاجرون البداة من سهوب ماوراء النهر " ترانس اوكسانيا " في اسية الوسطى ومن الاصل ((التركي

المغولي)) ، وصلوا عبر عدد من حقب التاريخ الى الشام ،ولنتذكر في هذا المقام أسماء لامعه مثل : الهون والغز ، والتركمان ،والتتار بقيادة المغول ، والتركمان ، والتتار بقيادة تيمورلنك . هذا من آسية أما من اوربة فان حميع الشعوب التي احتاحت هذه القارات او تحركت من داخلها مندفعة نحو الخارج وصلت نهايات تيارات مدها الى ارض الشام ، ومن ثم تحولت الى جزر ولنتذكرها هنا : الحثيين ، وشعوب البحر والاغريق ، والرومان والفرنجة مع سواهم من الشعوب الجرمانية .

صحيح أن نصيب افريقية كان ادنى انما علينا ان نتذكر دائما المصريين القدماء والسودان ، والبربر وكان لهؤلاء جميعا ادوارهم الخاصة . ولكن برغم كل هذا فان بلاد الشام واقعة على طرف واحد من أهم الخزانات البشرية في التاريخ وهو شبه جزيرة العرب وبلاد الشام بالنسبة لهذا الخزان كانت دائمة محطة أولى تشرب بشكل متواصل ، ليست نهاية الحد ، لذلك طبعت الشام بالطابع العربي بشكل أصيل وتلونت ببقية الالوان العائدة لمختلف الشعوب والاجناس,وأدى هذا الى منح بلاد الشام وعربها مزايا خاصة لها عطاءات ايجابية رائعة برغم انه حدث في بعض الاحيان أن جاءت العطاءات سلبية مضرة .

لقد كان من المفترض للألوان ان تكون مؤثراتها آنية. تزول بسرعة من أرض الشام،ولكن استمرار تدفق الهجرات في العصور القديمة والوسيطة مع البيئة الجغرافية لبلاد الشام كانت عاملا حاسما في ابقاء الالوان وجعلها تأخذ صفة الاستمرار ، وبالتالي لتتسبب في العطاءات السلبية .

اذا استعرضنا بلاد الشام من حيث البنية الجغرافية والتضاريس

بدءا من سواحل البحر الابيض المتوسط في الغرب سائرين نحو الشرق، نلاحظ أولا وجود شريط ساحلي ضيق ، ثم سلسلة من الجبال الحاجزة ، وقامت خلف الجبال منطقة بلاد الشام حيث وديان الانهار الكبيرة ، وعلى أطراف الوديان تأتي السهوب شبه الصحراوية والعائدة لبادية الشام .

لقد سببت هذه البيئة بتضاريسها المعقدة وضمن شروط الحياة في الماضي قيام عدة انماط احتماعية ، فهناك من حيث المبدأ نمطان رئيسان : واحد في الشمال وآخر في الجنوب ، ثم هناك نمط شواطىء البحر الابيض المتوسط ، ثم نمط الاقليات المتقلصة في الجبال ، ثم نمط المجتمعات الزراعية الصناعية التحارية للمنطقة الجوفية ، واخيرا ، ولكن ليس آخرا ، المجتمع القبلي غير المستقر لسكان السهوب .

ان وجود الانماط الاجتماعية المختلفة والتيارات البشرية المتباينة ، مع ماتحمله من طبيعة الماضي في جميع الجوانب جعل بلاد الشام لاتنعم في كثير من الاحيان بالوحدة السياسية وطبعها بطابع التجزئة وبشيء من التمايز الاجتماعي والحضاري والعقائدي، فهذه البلاد غالبا ما كانت في الماضي مسرحا تلتقي فيه قوى العالم أجمع وتتصارع وتتلاقح وتتمازج ، ولذلك امتاز تاريخ بلاد الشام بمزايا منفردة خاصة عامة ، وقامت على أرضه اكبر احداث التاريخ الانساني واعظمها وقعا واستمرارية من حيث النتائج ، حتى انه ليس من المبالغة القول : انه طالما ان الصراعات في الدنيا مستمرة فان الشام مضطرب الاحوال ، غير مستقر الامور ، ومعلوم أن

الاضطراب وعدم الاستقرار يعني استمرارية الحركة ، والحركة طاقة ودليل حياة متدفقة ، واذا ما أحسن قيادتها أعطت بشكل ايجابي • أمام هذا الحال يحار المؤرخ الذي يود ان يؤرخ لحدث جليل من أحداث التاريخ التي وقعت على ارض الشام في كيفية تعليل أسباب هذا الحدث ونتائجه ، فكل أمر هنا له عدة وجوه •

وينطبق هذا الحال على ما اصطلح على تسميته باسم (تاريخ الحروب الصليبية) ويمكن ان نراه في الدراسات التي خرجت منذ القرن الماضي خاصة في اوربة ، فالدراسات هذه عللت أسباب هذه الحروب بشكل اوربي اما شرقي ارثوذكسي ، او غربي كاثوليكي انما بشكل عام جعل هؤلاء المؤرخون احداث الحروب الصليبية جزءا - يكاد أن يكون كاملا - من تاريخ اوربة في العصور الوسطى ،لكن بحكم طبيعة الموضوع اضطروا الى عدم اغفال أحوال بلاد الشام ، وهكذا التفتوا بشكل غير مباشر نحو دراسة أحوال بلاد الشام قبل قيام الحروب الصليبية واثناء اندلاع احداثها ، وحيث أن بلاد الشام كانت وماتزال اقليما من اراضي الوطن العربي فان الاهتمام قاد نحو دراسة واقع الوطن العربي وتاريخه ودور كل قطر في الاحداث ، ونظر للارتباط الوثيق بين الوطن العربي وبلدان العالم الاسلامي ، ونتيجة لتفاعل الاحداث ، فان البحث أمتد نحو العالم الاسلامي •

وفي ايامنا هذه أخذت الدراسات تتركز حول الشام والوطن العربي مع العالم الاسلامي خاصة في القرن الحادي عشر للميلاد / الخامس للهجرة ، وأولي جانب العلاقات مع اوربة المسيحية ممثلة بالامبراطورية

الرومانية الشرقية - بيزنطة - ودول الغرب ومؤسساته السياسية والاقطاعية والتجارية البحرية اهتماما مباشرا ، وقد فتح هذا الاهتمام - الذي بدأ بشكل جانبي غير مباشر - محاولات حديدة للبحث والكشف عن امور كانت مجهولة ، وعدل بالتالي كثيرا من التفسيرات والنظريات السابقة وبعملية مقارنة سريعة بين الكتابات التي صدرت في اوربة قبل الحرب العالمية الثانية وماصدر بعدها مثل كتابي: (رنسمان " و " تاريخ فيلادلفيا للحروب الصليبية " يمكن أن نرى شاهدا موضحا .

ولما كانت بواكير الدراسات التاريخية قد بدأت في اوربة والكثير منها ترجم الى العربية فانه عندما بدأ العرب يكتبون عن تاريخهم ويبحثون فيه جاء نتاجهم يحمل طابع التقليد انما بدرجات ، صحيح ان الدراسات العربية للماضي العربي سارت على المنطلقات ذاتها التي رسمت في اوربه لكنها لم تخل من شيء من الاتجاهات الاستقلالية. ومع مرور الايام ، قويت الاتجاهات الاستقلالية وكشف العرب أن الدراسات الاوربية عن ماضيهم صنعت من قبل صنفين من الباحثين : المستعربين والمستشرقين ، اما المستعربون : فهم من موظفي الادارات الاستعمارية او عسكرييها الذين مكنهم وجودهم على رأس وظائفهم في الوطن العربي من تعلم العربية ثم الاهتمام بأوضاع العرب وبخاصة ماضيهم . فهم على هذا هواة في البحث التاريخي لايملكون ادوات وطرائق المحترفين وذوي الاختصاص ، ولذلك قادت ابحاثهم القراء نحو الهاوية .

أما المستشرقون : فهم في الاصل ممن احترف البحث في التاريخ الاوربي ثم تحول نحو البحث في التاريخ العربي وغالبية هؤلاء لاتحسن استخدام النصوص العربية بشكل مباشر ، ولهم ارتباطات معينة بالدوائر والمؤسسات الغربية الموقوفة على خدمة المصالح الاستعمارية ثم أن جل مراكز الاستشراق في ايامنا هذه واقع تحت سيطرة باحثين يهود يؤمنون بالصهيونية ويعملون لصالح اغراضها ، وعليه اذا كانت أبحاث المستعربين تقود نحو الهاوية ، فان كتابات الاستشراق تكمل المسيرة نحو الدمار الكامل .

وأمام هذا الواقع المرعب ظهر الان على صعيد الوطن العربي جيل من الباحثين العرب بدأ يقوم بدور الفاضح لكتابات الاستشراق والاستعراب ، وينادي بكتابة تاريخ العرب من وجهة نظر عربية علمية هادفة ، وشمل هذا مسألة (الحروب الصليبية (وظهرت الى الوجود وجهات نظر عربية تسلحت بآراء منطقية وعلمية على أساس أن هذه الحروب لها أسباب اوربية مباشرة وغير مباشرة ، انما وقائعها قامت على أرض الشام العربية ، وانتهت على الارض ذاتها ، وأن المشكلة الاساسية فيها ليست في اسبابها الاوربية ، بل في أسباب اخفاق العرب في التصدي للغزاة الصليبيين عندما طرقوا ديارهم للمرة الاولى ثم في عدم تمكنهم من اقتلاعهم من اراضيهم المحتلة الا بعد وقت طويل للغاية .

والمسألة بدهية فالجسد الضعيف منعدم المناعة وموزع الطاقات هو الذي يصاب بالمرض العضال عندما يتعرض لمؤثراته ، والجسد القوي هو الذي يتصدى للمرض ويقاومه حتى اذا ما أصيب

بالعدوى فانها تكون عارضة تزول بسرعة .

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نفهم سبب النجاحات الباهرة التي حققها الصليبيون عندما وصلت جموعهم سنة ١٠٩٨ الى مشارف بلاد الشام ، فدخلت هذه الجموع البلاد واحتلت أجزاء كبيرة منها دون مقاومة تذكر .

انها قد فعلت ذلك لان هذه الجموع تميز أفرادها بميزات خاصة خارقة للعادة - كما اراد جيل اوربي سابق من الباحثين أن يقول - ولكن لان الخصم العربي الذي واجهته كان من الضعف والتمزق بمكان سهل مهمة الغزاة ويسرها ، ودام هذا الحال طوال الوقت الذي عانى فيه العرب من الضعف العام الناشيء عن تمزق قواهم والقاء بأسهم بينهم ، وعندما شرع العرب في توحيد صفوفهم ، ونبذ خلافاتهم الداخلية جانبا ، وتوجيه قواهم نحو خصومهم الحقيقيين، حلت الفرقة بين صفوف خصومهم واصابهم التمزق وهكذا بدت أيام بقاء الغزاة الفرنجة في بلاد الشام مرهونة بالوقت .

لما سلف ذكره فان التفاسير التي صنعت في اوربة لتعليل احداث تاريخ الحروب الصليبية مرفوضة تماما ومرفوض معها بالتالي المراحل التي حددت وقيل فيها ان هذا التاريخ قد مربها على أساس عدد الحملات الكبرى التي جاءت من اوربة ، ذلك أنه كانت هناك حملة واحدة مستمرة تصلها النجدات بشكل متواصل برا وبحرا ، انما بأشكال مختلفة وبأحجام متفاوتة .

وحين نقوم بعملية الرفض هذه نحن مطالبون ببديل مقنع

بشكل منطقي لا عاطفي ، والبديل هنا ينبع من الارض العربية ـ بخاصة في الشام ـ حيث قامت المعارك ، وحدثت الوقائع ، انما هناك قبل طرح النظرية البديلة حاجة ماسة تقضي بالقاء نظرة متفحصة عامة على مجمل ماحدث ، وبذلك يسهل فهم ماتمت الاشارة اليه من قبل وماسيشار اليه فيما بعد .

والعمل المتوجب علينا تنفيذه الان هو الحديث عن :

١ـ أحوال اوربة بجزئيها الغربي والشرقي في العصور الوسطى وبخاصة في القرنين العاشر والحادي عشر .

٢ـ أحوال بلاد العالم الاسلامي بجناحيه الشرقي والغربي .

٣ـ أحوال بلاد الشام والجزيرة بشكل خاص ومركز .

٤ـ طبيعة العلاقات الاسلامية العربية مع كل من اوربة الشرقية الارثوذكسية واوربة الغربية الكاثوليكية .

٥ـ الغزو الصليبي لبلاد الشام والجزيرة واحتلال الارض .

٦ـ حرب الاسترداد العربية ومراحل أعمال التحرير .

ان هذا يصلح ـ فيما لو نفذ بشكل مفصل ـ مخططا لدراسة مطولة عن تاريخ الحروب الصليبية ، على أمل ان تسمح الايام بالتنفيذ ، لكن في هذا المقام نعمد الى التنفيذ الموجز الذي يليق بالمقالات على أمل أن الطرح الموجز قد يثير مايدفع على الاستمرار أو التعديل أو التغيير .

* * *

وصلت الامبراطورية الرومانية الى قوتها وعظمتها ايام حكم أوغسطس الذي كان أول اباطرتها ، فصارت سيدة لاوربة ولاجزاء هامة للغاية من آسية وافريقية ، وغدا البحر الابيض المتوسط بحيرة رومانية ، وأداة وصل لاجزاء الامبراطورية في آسية وافريقية وأوربة ، وحملت السفن القمح والمنسوجات وانواع البضائع المرئية وغير المرئية — الفكرية — كافة الى قلب الامبراطورية وصارت كل الطرق تقود الى روما ، واستهلكت روما في البداية كل شيء صدر اليها ، ومن المقرر أن الدول الامبراطورية بعد ما تصل الى الذروة بوساطة الادارة الحربية المفرغة من العقيدة الاممية لاتستطيع المكوث في القمة طويلا بل تأخذ بالانحدار لكن ليس في طريق العودة نحو الاصول ، انما في الطريق نحو النهاية المحتومة •

وفي أيام أوغسطس حققت روما أمجادا عسكرية طائلة ، لكن المجتمع الروماني الذي كان سيده صاحب السيف ، عانى آنئذ من الانحلال الفكري والعقائدي والديني ، فلم تعد الديانة الرومانية الوثنية الملفقة من عدة ينابيع وأصول مستوردة كافية لمتابعة الاخذ بها ، كما ان المدارس الفلسفية من رواقية الى افلاطونية محدثة لم تستطع تقديم الزاد الروحي لشعوب الامبراطورية ، وزاد الرومان من الاستعارة من عقائد الشرق لكن ذلك لم يغنهم ،وكانت هناك اليهودية لكن هذه الديانة بعنصريتها وانغلاقها على اتباعها وبما لحقها من انحرافات لم تكن الدواء الذي احتاجه ذلك المجتمع الذي بلغ الفساد فيه الحد الذي جعل كل شيء قابلا للبيع من ذمم الساسة والقادة الى ضمائر الكهان •

وعلى ذلك نلاحظ أن المجتمع الروماني كان يعاني من الفراغ الديني الروحي والعقائدي العام الذي يربط بين شعوب الامبراطورية فيأخذ بها من مرحلة تحكم شعب واحد بعدد من الشعوب الى مرحلة الاندماج،وشهدت عددا من المحاولات لملء هذا الفراغ ،ولقد صنعت غالبية هذه المحاولات في الشرق وتحقق لواحدة منها فقط صنعت في بلاد الشام نجاح كبير .

ففي أيام أغسطس ولد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام في بلدة بيت لحم في فلسطين ، ولد كما هو مجمع عليه في المصادر كافة ،من أم عذراء لم يمسها بشر قط ، على انه هناك خلاف حاد في المصادر حول الحياة المبكرة وحتى المتأخرة للسيد المسيح ، وشدة الخلاف حول مراحل حياته دفع بعض الباحثين في ايامنا هذه الى انكار وجوده تاريخيا ، والذي اعتدل قال ان المعلومات المتوافرة عنه في المصادر المسيحية فيها زيف كبير واختراع مفضوح ، ومهما بلغت درجة الخلاف فانه من المؤكد أن رسالة السيد المسيح كانت طوال حياته عبارة عن حركة اصلاحية داخل الديانة اليهودية ، أي كانت محلية ضيقة ، على انه بعد غيبة المسيح – وبعضهم يذكر في ايامه الاخيرة – نقلت الحركة الى العمل العالمي ، ومن المقرر أن الذين تولوا عمليات نشر المسيحية في العالم هم غير المسيح، ولقد كانت لعمليات النشر هذه انعكاسات متميزة على الديانة المسيحية تبعا للزمان والمكان ، وخلال قرون ثلاثة اضطرت المسيحية أولا للرومنة بشكل عام ، وللتأقلم مع كل بلد وشعب بشكل منفرد، فكانت نتيجة هذا قيام عدة ديانات مسيحية متصارعة ، ولهذا أخفقت روما في البقاء وجاءت العصور الوسطى التي كان الصراع بين

الديانات المسيحية لقرون أهم مزاياها والصانع الاكبر لاحداث اوربة في العصور التي وصفت . ان معلوماتنا عن تاريخ المسيحية في عصورها الاولى غير مؤكدة ، ثم أن المتوفر من الاخبار عن انتشار المسيحية والطرق التي اتبعتها غير كافية . وفيها الكثير من الغموض على أنه رغم كل هذا نجد أنه من الثابت أن الفضل الاول في تنظيم المجتمعات المسيحية الاولى ووضع قواعد اللاهوت ومايرتبط بها من مبادئ المسيحية الخلقية مع أمور الحياة والموت وغير ذلك يعود الى القديس بولص . وهو ايضا المنظم الاول للكنيسة وباني اركانها الاساسية .

وسهل على المسيحية الانتشار في العالم الروماني توفر طرق المواصلات وتوفر الامن واستتبابه مع اعتماد جميع المقاطعات الرومانية لاحدى لغتين هما : اللاتينية والاغريقية ، صحيح أن هذا يسر نشر المسيحية ، لكنه منذ البداية مهد لفصمها ، فكانت هناك مسيحيتان : اولى لاتينية واخرى اغريقية . ليس المكان هنا للتاريخ المسيحية والبحث المفصل في انتشارها في عالم الامبراطورية الرومانية ،المهم القول انها غدت مع مطلع القرن الثالث قوة مؤثرة لايمكن سحقها ولايجوز للساسة تجاهلها او الاستهانة بها . وقد دفع هذا الحال العديد من الساسة الرومان الى اعادة النظر في مواقفهم من النصرانية واتباعها خاصة ايام الازمات الداخلية والحروب الاهلية ، وفي سنة ٣١٣ م أصدر الامبراطور قسطنطين الكبير مرسوما في ميلان " عرف فيما بعد باسم مرسوم ميلان " أعترف به بالمسيحية كشرعة قانونية يحق لاتباعها ومعتنقيها اعلانها ، وممارسة طقوسها بكل حرية ،

مثلها مثل الديانة الوثنية الرسمية . وكان لهذا المرسوم أبعد الاثر ، حتى أن بعضهم رأى فيه بداية العصور الوسطى ، ولئن اختلفت الآراء حول الدوافع التي حرضت الامبراطور قسطنطين الكبير على اصدار مرسوم ميلان ، فان هناك شبه اجماع بأن هذا المرسوم لم ينه عهد الاضطهاد الروماني للمسيحية بل هيأ الفرصة أمام هذه الديانة للانتشار ،ونقلها من مكانة المضطهد من قبل السلطة الى مكانة المدعوم ، ثم الى السلطة ذاتها . وهكذا سارت المسيحية على سنن غيرها من الديانات الكبرى السابقة ، فغدت الى حد كبير احدى ادوات السلطة الزمنية الكبرى ، لابل اكبر الادوات . صحيح أن هذه الاداة لم تكن في كثير من المناسبات مطواعة ، لكنها غالبا ماجعلت كذلك ، وتاريخ العصور الوسطى في اوربة الغربية والشرقية هو الى حد الكبير تاريخ للسلطة الزمنية ومشاكلها وطرق استخدامها لهذه الاداة . من هنا جاءت أهمية اعتراف قسطنطين بالمسيحية ، ويزداد هذا وضوحا اذا ربطناه بقيام الامبراطور قسطنطين الكبير ببناء القسطنطينية وجعلها عاصمة الجزء الشرقي من الامبراطورية ، ثم ازدياد سرعة الاحداث التي ادت الى شطر الامبراطورية الى شطرين غربي وشرقي .

وعندما نقل قسطنطين العاصمة الامبراطورية الى الشرق ترك روما لقدرها الذي حكم عليها بالسقوط ، وهي مدينة الشيطان لتقوم مكانها مدينة الله - على حد قول القديس اوغسطس - فروما التي خلت من الامبراطور - الاله - قام فيها البابا - خليفة ابن الاله - وسعى البابا ليأخذ مكان الامبراطور ، ولاقى في مسعاه

هذا العديد من العقبات ، وبذلت الباباوية كل طاقاتها في سبيل تذليل العقبات التي اعترضت سبيلها ، ودخلت حلبة كل صراع ،وعلى هذا فان احدى مزايا العصور الوسطى في اوربة الغربية قيام الباباوية في روما وصراعها مع الامبراطورية البيزنطية ومع حكام اوربة الغربية من أجل نشر نفوذها وجعله يشمل العالم أجمع كما كان حال اباطرة روما العظام .

ولقد شهدت المسيحية منذ بداية عهودها خلافات مذهبية شديدة للغاية ، وتركزت مشاكل الخلاف حول طبيعة الاقانيم الثلاثة (الاب - الابن - روح القدس) ومع طبيعة العلاقة بينها ، ثم طبيعة السيدة العذراء ام عيسى وتفجرت اولى اكبر المشاكل في الاسكندرية بين اثنين من رجال الكنيسة هما : آريوس ، واثناسيوس ، حول تحديد العلاقة بين (الاب والابن) فقد قال آريوس ان العقل والمنطق يحتمان وجود الاب قبل الابن ، وانه تبعا لهذا يكون المسيح الابن مخلوقا للاب ، وعليه هو ادنى منه منزلة ، ولايمكن أن يعادله بالمكانة والقدرة ، او بكلمة اخرى ان المسيح مخلوق لاله عظيم وحيد منفرد بطاقاته وصفاته واذا لم يكن الحال كذلك فان المسيحيين يكونون غير مؤمنين بعقيدة التوحيد ، ويعبدون اكثر من اله ، ورد عليه اثناسيوس بقوله : ان فكرة الثالوث المقدس تقتضي أن يكون الابن مساويا للاب ومن العنصر نفسه تماما ودونما خلاف في الفترة والمكانة ، كل هذا رغم تمييزها عن بعضها بعضا ، ويبدو أن أثناسيوس والذين اتبعوا خطه فيما بعد كانوا يدركون ان المسيحية تعتمد بأصولها على ماصيغ حول المسيح ، وما تم فيه

من صفات سامية ومكانة علوية ، وان كل اتجاه للتقليل من هذه المكانة سيؤدي الى اضعاف الدعوة المسيحية والغاء مسوغاتها لقد كان آريوس اكثر ثقافة من منافسه ، وقد آيده المثقفون في الشرق ولكن اثناسيوس كان اكثر عاطفية واثارة للجماهير، ولهذا لاقت آفكاره قبولا شعبيا وعمت فيما بعد في الغرب الاوربي الذي كان متخلفا عن الشرق ثقافيا وحضاريا واشتد الجدل بين الرجلين ، وتدخلت الامبراطورية عن طريق المبعوثين فلاقت جهودها الاخفاق : فتقرر عقد مجمع مسكوني مقدس لبحث قضية الخلاف ، وهكذا عقد في نيقية سنة ٣٢٥ م برئاسة الامبراطور قسطنطين الذي قيل انه لم يكن معمداً - اول مجمع في تاريخ المسيحية ، وستتلو هذا المجمع في المستقبل مجامع كثيرة ذات سمة عالمية ابتغت حل المشاكل الكبيرة ، واستهدفت وحدة الكنيسة بلا فائدة فرقعة الخلافات كانت كل يوم تتسع والفراق يزداد لكن مع الايام حققت الاثناسيوسية المزيد من المرابح ليس في الغرب فقط ولكنه في الشرق ايضا وهكذا دخلت الى العقيدة مسألة تقديس الشهداء والقديسيين ، وقامت قضية عبادة المخلفات المقدسة والصور،وانتصرت الحركة "الايقونية " / عبادة الصور / وحدث اقبال شديد على اقتناء الاثار المقدسة والصور وسعت كل كنيسة من الكنائس نحو الحصول على بعض الاثار المقدسة وصناعة المزيد من الايقونات ، ومع الايام علت شهرة بعض الاثار والصور على سواها واذيع حولها الكثير من معجزات وكرامات واحاديث عن شفاء الامراض وحل المعضلات وجلب السعادة والغاء التعاسة الى غير ذلك كثير ، وأقبل الناس على الاكثار من زيارة الاثار المقدسة للتبرك بها ، وصار هذا الامر

عادة مالبثت ان تطورات كثيرا حتى صار المؤمنون يسافرون من بقعة الى اخرى لزيارة الاثار والكنائس والاديرة الحاوية لها مع قبور القديسين ومشاهدهم ، وهكذا جاءت الى الوجود عقيدة جديدة دخلت الى اركان الديانة المسيحية وهي عقيدة الحج ، وتبارى الناس في زيارة القديسين والاثار الاعظم مكانا ، وحيث آن ارض ميلاد المسيح تضم أعلى الاثار مكانة وقدسية فقد أخذ بعضهم يسافرون نحو فلسطين ، ومنذ القرن العاشر للميلاد ، ازداد الحج الى فلسطين ،وعظم عدد الحجاج بشكل ملحوظ جعل بعض المؤرخين العرب يأتي على ذكرهم للمرة الاولى ، ولقد ترافق هذا مع قيام جمهوريات ايطاليا البحرية ونشاطاتها المؤرخة في حوض البحر الابيض المتوسط ، لذلك شجعت حركة الملاحة على اقبال الحجاج الى فلسطين ، وبدأت بعض المؤسسات التجارية والسياسية الاولى تسعى للحصول على تسهيلات خاصة من سلطات جنوب بلاد الشام وشرعت في اقامة مراكز لخدمة الحجاج في فلسطين على شكل فنادق ومشاف .

وعندما كان الحجاج يعودون الى ديارهم حملوا معهم تقارير وافية عن احوال بلاد الشام والمشرق العربي من جميع النواحي ، وبالغوا في تصوير أحوال الرفاه وكثرة الثروات . كما تم الالحاح بشكل منقطع النظير على قضايا الخلافات الدينية والصراعات المذهبية التي تجددت بشكل عنيف في القرن الحادي عشر ، وهذه مسألة سنعرج عليها فيما بعد . ومنذ القرن السابع للميلاد حدثت الفتوحات العربية الكبرى ، وانتزع الاسلام من المسيحية فلسطين ، دار قيام هذه الديانة كما انتزع منها بقية الشام مع مصر وبلدان شمال افريقية ، ثم

الاندلس مع عدد من جزر البحر الابيض المتوسط .

وهكذا حاصر المسلمون اوربة الغربية من جميع منافذهـا وهددوها بشكل متواصل وكان الحصار الاسلامي جديدا بالنسبة لاوربة حيث شمل الجوانب العقائدية الدينية واللغوية والقانونية والاقتصادية والاجتماعية ، وأخذ سمة حربية توسعية ذات أهداف دينية مقدسة .

لقد دفع هذا الحصار اوربة الغربية نحو تغيير بنيانهـا بشكل جذري كامل ، كما دفعها الى اكتشاف الاجزاء الشمالية منها ، والتحول موّقتا – من بلد متوسطي الى شيء آخر ، وقامت اوربة الان بالاعتماد على انتاج الغذاء وبخاصة القمح بدلا من الاستيراد الذي توقف ، وهكذا أخذت صيغة المجتمعات الاوربية تتغير ، ونشـأت أسس علاقات اجتماعية زراعية جديدة هي التي ستكون أصل نظـام الاقطاع في اوربة الغربية وفي الوقت نفسه انقضى عصر اللغـة اللاتينية وثقافتها الكلاسيكية ، وبدأت لغات عامية ولهجـات أصلها جرماني تحل محل هذه اللغة .

ان قيام هذه الاحداث الحاسمة دفع اعداد من الباحثيـن الاوربييـن الى القول ان سقوط روما الغربية جاء بعد قيام الاسلام ، وبسبب الفتوحات العربية ، ذلك ان مشكلة هذا السقوط لايجوز جعل سببها سياسيا فقط ، بل ينبغي ان يكون هذا السبب شاملا لجميع الجوانب من عقيدة واقتصاد وثقافة ولغة وقانون وعلاقـات اجتماعية ثم مؤسسات سياسية جديدة .

ويلاحظ أنه في الوقت الذي ارسيت فيه قواعد النظم الاوربية

الجديدة ، كانت الامبراطورية البيزنطية بدورها قد أوجدت الحلول لكثير من مشاكلها الداخلية والخارجية ، صحيح أن الفتح العربي أنتزع منها املاكها في اسية وافريقية ، لكنه في الوقت نفسه حررها من اعباء ثقيلة ، ذلك أن هذه الممتلكات لم تمحض الولاء قط للادارة الامبراوطورية وعبرت شعوبها عن نزعاتها الاستقلالية بأشكال مختلفة ، وحين تمكنت بيزنطة من حل مشاكلها استردت قواها الاقتصادية والعسكرية برا وبحرا وتوحد مجتمعها دينيا بانتصار التيار المؤيد لعبادة الصور .

وفي الوقت نفسه وفي المقابل نجد أنه منذ أواخر القرن التاسع للميلاد أخذت أركان الخلافة العباسية تتصدع ، وقواها تنهار ، واطرافها تتمزق ، كما أن الاضطرابات الداخلية والثورات الحادة أزدادت في الاراضي الاسلامية الى درجة شغلت جيوش الخلافة عن الالتفات الى المخاطر الخارجية ، كما دفعتها نحو اهمال الاسطول، وهكذا بدأ المدّ العربي يتحول الى جزر .

فقد قامت الخلافة الفاطمية في تونس وكان من نتائج ذلك انهيار نظام الرباطات المتوسطية ، وانهارت الخلافة الاموية في الاندلس وحلت محلها دول الطوائف المتصارعة ، ونشطت حرب الاسترداد نشاطا مروعا ، ثم انتقل الفاطميون الى مصر حيث غرقوا في مشاكل صراعاتهم مع امراء الشام والقرامطة مع مشاكل اخرى داخلية عقائدية ومتنوعة ، ونشطت بيزنطة عسكريا ضد بلاد الشام ، وعجزت الدولة الحمدانية عن ايقاف التحرك البيزنطي وأدى هذا الى انهيار نظام الثغور والى احتلال بيزنطة لاجزاء كبيرة من شمال

بلاد الشام وسواحلها . ذلك أن الاهتمام الاوربي بالبحر الابيض المتوسط تجدد ، وعملت اوربة الغربية على العودة من جديد الى الحياة المتوسطية ، فالاندفاع الاوربي نحو الشمال أدى فيما أداه الى اندفاع الشعوب الشمالية ذات الطاقات البحرية الخلاقة نحو شواطىء البحر الابيض المتوسط ، وتجلى هذا بغارات شعوب الفيكونغ على الشواطىء المتوسطية الاوربية والاسلامية في الاندلس والمغرب ، وجاء بعد الفيكونغ النورمان وقامت جمهوريات ودويلات ايطالية البحرية .

ويرى الباحثون ان الحصار العربي لاوربة الغربية أثمر في قيام الامبراطورية الكارلونجية ، وهذا ماعناه المؤرخ البلجيكي " بيرين " بقوله : " لولا محمد لما كان شارلمان " واندفاع شعوب الشمال نحو الاراضي الكارلونجية أدى فيما أداه الى سقوط هذه الامبراطورية والى انتصار نظام الاقطاع ، ومع انهيار امبراطورية شارلمان قامت الحروب الداخلية بين الاقطاعيات وازدادت البابوية قوة وأخذت تنشط - بالاضافة الى العمل الديني - سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وحتى عسكريا برغم آن الديانة المسيحية بالاصل تحرم الحرب واستخدام العنف .

وراجت في اوربه منذ القرن العاشر نبوءات وتيارات ، وشاعت بين جماهير الاوربيين روح دينية صليبية متعصبة بشكل حساد ، وعدوانية في الوقت نفسه ، وقد غذت هذه الروح حرب الاسترداد في الاندلس بامكانات تكاد آن تكون غير محدودة حتى بات وجود العرب في الاندلس رهينا بالوقت فقط وهددت سواحل صقلية مع الشمال الافريقي ، وآخذت تتضح صورة مخطط أوربي يستهدف فك الحصار

العربي من جهة الغرب باسترداد صقلية واحتلال شواطىء من تونس بحيث تتوفر حرية الملاحة الاوربية وتتحقق السيادة للقوى البحرية الاوربية من جديد على شواطىء المتوسط ٠

ولقد تحقق هذا كله لاوربة قبل نهاية القرن الحادي عشر وبعد تحققه في الغرب حدث الالتفات الاوربي نحو الشرق فكانت احداث ماعرف باسم الحروب الصليبية ٠

وفي القرن الحادي عشر حدثت تغييرات جذرية في اراضي المشرق العربي ومغربه ، فقد حدثت يقظة جديدة في المشرق ترافقت مع هجمة شعوب الغُزّ – التركمان – من منطقة ماوراء النهر الى خراسان والعراق والجزيرة والشام مع ارمينية وآسية الصغرى ، وقد نجم عن هذه الهجرة فيما نجم قيام السلطنة السلجوقية حيث دعمت قوى اليقظة وآمدتها بقوى فكرية منظمة وان كانت تحوي عناصر تعصب شديدة وجديدة على الحياة العربية ٠

وانتقلت روح اليقظة الجديدة من الاراضي الشرقية الى الغرب ، فحلت بتونس آولا ثم قفزت نحو الصحراء فنجم عنها قيام حركة المرابطين وتأسيس دولتهم وبناء مدينة مراكش العتيدة ٠

وفي الشرق تضررت الامبراطورية البيزنطية من هجرة التركمان الى اراضيها بالغ الضرر لذلك سعت الى طردهم من داخل اراضيها واقفال حدودها في وجههم ، فحشدت لهذه الغاية كل طاقاتها العسكرية واستعانت بأعداد كبيرة من المرتزقة وجاء عدد كبير من اوربة الغربية ، وهكذا تسنى لرجالات اوربه الغربية الحصول على مزيد من المعلومات عن المشرق العربي وطرائق العرب في الحياة

العامة والقتال ، كما حصلت على وصف أوفى للثراء والرفاه المتوفر، ولاشك أن هذا كان له أثر في النفوس وخاصة ادارات الجمهوريات والدويلات البحرية الايطالية .

وأخفقت الامبراطورية البيزنطية في الوصول الى أهدافها المبتغاة وكان نصيبها أن حلت بها كارثة عسكرية مروعة ، فلقد حطم السلطان آلب ارسلان المؤسسة العسكرية البيزنطية على أرض معركة منازكرد قرب بحيرة وان في تركية حاليا .

ففي هذه المعركة التي نشبت سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م هزم المسلمون جيوش الامبراطورية العتيدة وأسروا الامبراطور رومانوس ديجانس ، فكان أول امبراطور يقع في أسرهم ، في الحقيقة جاءت منازكرد لتكمل الانجاز الذي صنع في معركة اليرموك ، ذلك أن هذه المعركة رسمت طريق النهاية لحياة الامبراطورية الرومانية الشرقية لتحل محلها الامبراطورية العثمانية المسلمة التي ورثتها دولة تركيا الحالية .

لاشك أن معركة منازكرد كانت احدى معارك التاريخ الكبرى ، فعلى الرغم من تقاعس السلطان آلب ارسلان عن استثمار نتائجها بشكل مباشر ، فانها أعطت الكثير من العطاءات بقوة دفع ذاتية ، ولقد دقت أصداء النصر المبين في منازكرد بوابات اوربه بعنف ، وأحدثت في ارجاء القارة ذعرا يماثل الذعر الذي احدثه الفاتحون العرب الاوائل ، وهكذا وصلت الى اوربه الغربية وفود ارسلتهم القسطنطينه تطلب العون ، وتنشد النجدات وتفاوض من أجل الوحدة بين الارثوذكسية والكاثوليكية .

وكما سلفت الاشارة عندما وقعت منازكرد في الشرق كانت أراضي المغرب الاقصى تشهد نجاحات متوالية لحركة المرابطين ، وهكذا بعد ثلاث عشرة سنة من منازكرد عبرت جيوش المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين مضيق جبل طارق الى اراض الاندلس وأوقعت بجيوش حرب الاسترداد الصليبية هزيمة نكراء في الزلاقة - قرب بطليوس في منطقة الحدود - البرتغالية الاسبانية الحالية ، ومن جديد قرعت أصداء نصر الزلاقة بوابات اوربة من الجهة الغربية بعنف شبيه بالعنف الذي كان يوم افتتح طارق وموسى الاندلس ، ولاشك أن ذلك كان له أبعد الاثر في نفسية سكان اوربة الغربية مما ساعد بشكل كبير على نجاح حركة التبشير بالحروب المقدسة التي قادها مبشرون عدة حفظ لنا التاريخ ذكر اشهرهم وهو بطرس الناسك

انه لما يؤسف له أن السلطان آلب ارسلان لم يعش طويلا بعد نصر منازكرد ، كما أن امبراطورية السلاجقة ذاتها لم تعمر غير بضع سنوات لتنهار وتحل محلها قوى صغيرة متصارعة من آجل السلطة ، وكان معنى هذا انتكاسة كبيرة لقوى العرب والمسلمين في المشرق ، خاصة اذا آخذنا بعين الاعتبار النفقات الهائلة التي تحملها آهل المشرق حتى قامت سلطنة السلاجقة ، وعدم تمكنهم في الفترة الوجيزة التي عاشتها من استرداد عافيتهم ، ثم اضطرارهم بعد ذلك الى تحمل المزيد من الاعباء ، وقد مكن انهيار سلطنة السلاجقة الامبراطورية البيزنطية من استرداد عافيتها وتمالك جأشها ثانية للمشاركة في عمل هجومي جديد ضد بلاد الشام والجزيرة .

وعلى صعيد المغرب حدث الشيء نفسه تقريبا ، ففي الوقت

الذي كان فيه أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين يعد الخطط ليس فقط لتحرير جميع أراضي الاندلس بل لاستئناف حركة الفتوح العربية داخل اوربة ، في هذا الوقت ظهر في المغرب المهدي بن تومرت حيث بدأ نشاطه وهو ماقاد الى حركة الموحدين التي تكفلت باسقاط دولة المرابطين بعد حروب أهلية مريرة ، واقامة امبراطو[ر] الموحدين .

لقد اعطى هذا كله اوربة بشطريها المزيد من الفرص للاقلا[ع] برا وبحرا بهجمات مضادة على الاسلام في عقر دار العروبة ، وكان عرش البابوية في روما قد احتكره افراد أسرة يهودية ايطالية يقال انها تظاهرت بالمسيحية ، وقد تخرج من مدرسة هذه الاسرة اليهودية البابا أوربان الثاني ، وهو الذي قام باعلان الدعوة للحروب الصليبية وأعد الخطط لها للتوجه نحو المشرق العربي .

ليست النية متجهة هنا للحديث بتفاصيل عن الخلفيات الاخرى لحوادث تجمهر اعداد كبيرة من شعوب اوربة للسير نحو المشرق فهذا الامر له صلة بنظام الاقطاع وصراعاته الداخلية وتوجيه الطاقة الحربية الداخلية الى عمل خارجي ، وكذلك بالوضع الاقتصادي لاوربة مع العلاقات الاجتماعية والانفجارات السكانية ، وهذه مسائل أسهب الكتاب الاوربيون في بحثها .

الهام هنا الحديث عن اندفاع اعداد هائلة من شعوب اوربة على شكل مجموعات برا وبحرا باتجاه الشرق ، فبعد العديد من الازمات والمشاكل عبرت هذه الحشود الى قبل انها فاقت مجتمعة مليون انسان من اوربة الى اسية الصغرى تريد الوصول الى القدس .

يقتضي الحال منا الآن وقفة نستعرض فيها اولا اوضاع آسية الصغرى ثم بلاد الشام والجزيرة ، وهي البلاد التي ستكون مسرح عمليات الحروب الصليبية .

فبعدما أخفقت الامبراطورية البيزنطية في منع التركمان من الهجرة الى اراضيها ، اندفعت إثر معركة منازكرد اعداد كبيرة من قبائل التركمان متوغلة داخل آسية الصغرى واستطاع سليمان بن قطلمش وهو من أفراد الاسرة السجلوقية أن يحتل مدينة نيقية ، واتخذ من هذه المدينة القريبة من القسطنطينة مركزا لدولة تركمانية جديدة عرفت باسم : "دولة سلاجقة الروم " فاستولى سليمان على مناطق الثغور الشامية ثم نجح في سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م في أخذ مدينة انطاكية ، وكانت هذه المدينة واقعة تحت الحكم البيزنطي منذ ايام الدولة الحمدانية في حلب في القرن العاشر للميلاد .

وعقب احتلال سليمان لانطاكية تطلع نحو حلب ، ودخل في صراع من آجلها مع القوى البدوية العربية في الشام والجزيرة بقيادة مسلم بن قريش العقيلي ثم مع تتش بن الب ارسلان حاكم دمشق السجلوقي ، وقتل سليمان في هذا الصراع كما قتل مسلم بن قريش ، وجاء السلطان ملكشاه بنفسه الى شمال الشام حيث تسلم كلا من حلب وانطاكية ثم عاد نحو الشرق وقبل عودته في سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٧ م ترك في حلب نائبا عنه يزير حكم شمال بلاد الشام اسمه آقسنقر قسيم الدولة ، كما ترك في انطاكية حاكما اسمه يغي سغان - او سيان - وكان برفقة كل واحد من هذين الواليين حامية عسكرية فيها نحو / ٤٠٠٠ / فارس .

ان مقتل سليمان بن قطلمش وانتزاع انطاكية لم يؤد الى سقوط دولته التي آسسها في نيقية فقد ورث الحكم فيها احد أولاده واسمه قلج ارسلان ، وعندما عبرت حشود الصليبيين من اوربة الى آسية حاولت قوى دولة سلاجقة الروم التصدي لهذه الحشود فعجزت عن ذلك ، وهكذا وصلت حشود الغزاة عام ١٠٩٨ الى مشارف الشام ، فانقسمت عنها فئة صغيرة توجهت نحو بلدة الرها (اورفا الحالية في تركية) حيث تمكنت من احتلالها واقامة اول امارة صليبية في الشرق ٠

ووصل الحشد الاعظم انطاكية وشرع في حصارها ، ولنقف هنا مجددا بعض الوقت نطل اثناءها على اوضاع العرب في المشرق ٠

في بداية القرن الذي وصل في آواخره الصليبيون الى مشارف الشام كان المشرق العربي والاسلامي يعيش في حالة من الفوضى السياسية والعقائدية لانظير لها ، فقد كانت هناك خلافتان : واحدة في بغداد وثانية في القاهرة ، وكانتا في صراع دائم ونزاع عقائدي دموي مستمر ، كما أن الاحوال الداخلية في كل من هاتين الخلافتين كانت سيئة جدا ، حيث كان الخلفاء محكوما عليهم من قبل جند نسوا كيف يقاتلون للدفاع عن دولهم ضد الظلم والعدوان الخارجي ، وتذكروا فقط كيف يقاتلون من آجل الفتن والاستغلال والتسلط على سدة الحكم ٠

في هذا القرن وهو الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد حدثت هجرة شعوب الغز الى خراسان والعراق والشام والجزيرة وآرمينية وآسية الصغرى ، وكان البداة - قبل تأسيس السلطنة السلجوقية واثناء ذلك -

قد أحدثوا دمارا مريعا في كل من الشام والجزيرة ، أسهب المؤرخون في الحديث عن تفاصيل أحداثه وكنتيجة مباشرة لذلك ضعف سكان البلاد وهجر الكثير من أهل المدن مدنهم ، وتعطل النشاط الزراعي والاقتصادي العام ، فنضبت الموارد ونهبت الموجودات أو أحرقت ودمرت ، كما ازيلت قوى المؤسسات السياسية المحلية ، وعندما قامت السلطنة السلجوقية كانت بلاد الشام على حافة الافلاس والتداعي الداخلي ، صحيح أن قيام هذه السلطنة وادخالها للشام تحت ادرايتها قد جلب بعض الاستقرار ، وسبب بعث شيء من النشاط لكن لسوء الحظ فان السلطنة السلجوقية لم تعمر طويلا ، لذلك لم تتوفر فرصة كافية لرأب الصدع واعادة التعمير .

ولما كانت شعوب الغز عبارة عن عشائر وقبائل بدوية كره افرادها الوحدة ومجوها وآلفوا الفرقة وأحبوها وارتضوا بعدم الاستقرار وآنفوا من الانصياع لمناهج الحكومات المركزية ذات الانظمة والقوانين ، فانه ما ان انهارت السلطنة المركزية حتى تجددت الصراعات الداخلية وبالتالي زاد ضعف الشام ضعفا . لقد بحثت في تاريخ هذه المرحلة بالغة الخطورة بشيء من التفصيل في كتابي : (مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية) وأُلخص هنا بعض ماجاء في هذا الكتاب ، موليا الجزء الجنوبي من بلاد الشام / فلسطين / المزيد من العناية لان فلسطين كانت هدف الغزاة الصليبيين ، علما بأن هؤلاء الغزاة احتلوا حين هجموا على الشام اجزاء خارج فلسطين بخاصية المناطق الساحلية ، لمكانة البحر الابيض المتوسط ودوره ، وهكذا سنرى انه قد طرد الصليبيين اولا من فلسطين ، ثم من اجزاء الشام .

مع نجاح الثورة العباسية وقيام الخلافة الجديدة في العراق ، بدأت تظهر الى الوجود معالم انقسام العالم الاسلامي الى قسمين : واحد عجمي ، وآخر عربي ، ففي الجزء العربي ازدادت أهمية مصر حتى تمكنت من الاستقلال عن جسم الخلافة عند تأسيس الدولة الطولونية ونظرا لموقف الخلافة العباسية من هذا الاستقلال وسعيها للقضاء عليه عن طريق استخدام القوة العسكرية ، ولاسباب ترتبط بالمؤثرات السياسية الخارجية لاي دولة مصرية مستقلة ، تجاه بلاد الشام ، فقد سعت مصر الاسلامية المستقلة نحو السيطرة على بلاد الشام ، واتخاذها خطوطا دفاعية في العمق لصد الهجمات عن مصر ، ومعروف أن هذا العمل غالبا ماقاد نحو قيام توسع امبراطوري .

لقد نجحت مصر في احتلال الشام كله ، لكن لفترة وجيزة من الزمن ، لكنها عجزت عن الاحتفاظ بشمال البلاد لاسباب عديدة بينها :

بعد هذا الشمال عن مصر ووجود الامبراطورية البيزنطية التي رغبت دائما في وجود دويلة اسلامية ضعيفة مستقلة او تحت الحماية في مدينة حلب ، تقوم بوظيفة الحجز بينها وبين دولة مصر المستقلة يضاف الى هذا موقف الخلافة العباسية من استقلال مصر ، ثم وجود قبائل عربية قوية في شمال الشام طمحت الى انشاء دول خاصة بها .

وكانت قبيلة كلاب اكبر قبائل شمال الشام وذات مطامح سياسية قوية ظهرت منذ القرن الاول للهجرة في معركة مرج راهط ، واستمرت حتى اثمرت في مطلع القرن الخامس بتأسيس الدولة المرداسية في حلب ، ثم بقيام تحالف مع كل من قبيلة كلب زعيمة قبائل

منطقة دمشق وقبيلة طيء زعيمة قبائل فلسطين والاردن من أجل العمل على تحرير الشام من حكم مصر ، وتأسيس دول عربية متحالفة واحدة في الرملة ، وثانية في دمشق ، وثالثة في حلب ، واخفقت المحاولة بالنسبة لدمشق والرملة ونجحت فقط في حلب ٠

وذلك أن مصر تساهلت مع فقدان الشمال لكنها آدركت أن فقدانها لجنوب الشام معناه فقدان لاستقلالها ، وكانت مدن الشام قد شهدت قيام منظمات بلدية عسكرية ـ ميليشيات ـ عرفت باسم الاحداث ، ولقد كان العداء وراثيا بين الاحداث وحكومات مصر ، لذلك لم تتمكن دول مصر الاسلامية في القرن الحادي عشر من تثبيت اركانها في الشام وبسبب جميع مابينت فان الاوضاع السياسية في النصف الثاني للقرن الحادي عشر في الشام كانت كما يلي :

١ـ دولة مستقلة في حلب تدعى بالامارة المرداسية كانت تحكم معظم شمال الشام مع اجزاء من الجزيرة ٠

٢ـ اجزاء من شمال الشام وسواحله تحت الادارة البيزنطية المتمركزة في انطاكية ٠

٣ـ دويلة شبه مستقلة في طرابلس تحكم من قبل أسرة آل عقيل.

٤ـ دويلة مستقلة في شيزر وكفر طاب ـ قرب حماه ـ تدعى باسم الامارة المنقذية ٠

٦ـ عدد من الاقطاعيات والادارات شبه المستقلة في مناطق الساحل بخاصة في جبلة ومنطقتها الجبلية ٠

٧ـ دمشق وفلسطين تحت حكم الخلافة الفاطمية ٠

وكانت غالبية شعب بلاد الشام في هذا القرن تدين بالاسلام انما على مذاهب الاثني عشرية وكانت هناك مجموعات من الاسماعيلية وسواهم ومجموعات من النصارى كثير منهم في الشمال وغالبية هؤلاء من أصل ارمني، وكانت هناك قلة من اليهود، وكانت الحريات الدينية والفكرية مصانة ، وظهر ازدهار ورفاه وتقدم ثقافي وحضاري رائع من أعلامه ابو العلاء المعري ، وابن سنان الخفاجي ، وابن أبي حصينة ، وابن حيوس ، لقد كانت هناك يقظة اسلامية عامة وتراجع شيعي واضح ، وقد زاد من سرعة هذا التغيير قيام السلطنة السلجوقية وأكسبه التركمان أشكالا جديدة فيها عنف وتعصب شديدان ففي سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م ، دخل حلب مجموعة من التركمان بزعامة رجل عرف باسم هارون بن خان ، وقامت مجموعات اخرى عرفت باسم بالناوكية بالتوجه نحو الجنوب والنشاط فيه بشكل كثيف ثم ظهرت على مسرح الاحداث زعامات جديدة لعصابات برز من بينها واحد عرف باسم الافشين ، أحدث تخريبا في جوف سورية بحيث خرّب الضياع ودمر القلاع ، وقتل الناس وسلب أرزاقهم ، واحرق مالم يقدر على حمله ، ثم ظهر زعيم جديد عرف باسم أتسز بن أوق قام بانتزاع دمشق ثم فلسطين من الفاطميين حتى انه حاول احتلال مصر والقضاء على الخلافة الفاطمية .

وفي سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م حوصرت مدينة حلب من قبل جيش تركماني كبير قاده السلطان ألب ارسلان ، واخفق هذا الجيش في اختراق أسوار المدينة ، فعاد أدراجه نحو الشرق ليخوض معركة منازكرد الحاسمة ، وتسارعت الاحداث عقب هذه المعركة في انتزاع

سليمان بن قطلمش انطاكية من بيزنطة وذلك بعدما أسس إمارة سلاجقة الروم ، ومات السلطان ألب ارسلان ، وجرت محاولات لاحتلال حلب من قبل سليمان بن قطلمش .

ومن جديد جاء الى الشام جيش تركماني كبير على رأسه السلطان ملكشاه ، ونجم عن هذه الحملة الحاق الشام كله بالسلطنة السلجوقية ، لكن ليس تحت ادارة مركزية واحدة بل تحت عدة ادارات واحدة في الرها وثانية في أنطاكية وثالثة في حلب ، ورابعة في دمشق ، وقد بقيت الدويلات الساحلية متمتعة باستقلالها مع عدد من الاقطاعيات الداخلية .

وبعد انسحاب ملكشاه الى الشرق جرت محاولات لانشاء امارة تركمانية جديدة في القدس الا ان الخلافة الفاطمية تمكنت من استردادها ، كما أن هذه الخلافة قامت باثارة اتباعها المذهبيين في وسط سورية وتفجر صراع مرير بين الحكام السلاجقة في الشام ، وقامت عدة مصادمات عسكرية اشتدت كثيرا عقب وفاة السلطان ملكشاه .

وخلاصة القول ان التركمان انساحوا في بلاد الشام وتمكنوا في مدى ثلث قرن من الزمان من تدمير بلاد الشام قلما

عرفت مثيلا له في تاريخها المديد ، وعندما اشرف القرن الحادي عشر على النهاية ، كانت بلاد الشام في حالة من الانهاك والضعف والتداعي الداخلي والخارجي لامثيل لها ، وكانت هذه البلاد مثل رقعة الشطرنج فيها مربعات عديدة ، على كل مربع دمية لها اسمها وصفاتها ومزاياها تتصارع مع بقية الدمى ، وكانت الدمى غالبيتها تركية

الاصل ، غريبة المولد والنشأة بلا ارتباطات بحضارة البلد ولغته وتقاليده ومعتقداته ، وكانت كلها تتصارع في سبيل السلطة والمزيد من الارباح الخاصة والمال فقط دونما رادع واعتبار ، وكان من محصلات اعمالها بالاضافة لما ذكر تحطيم قوة قبائل العرب في البلاد مع قوة أهل المدن ومنظمات الاحداث •

وفي ذروة حالة الدمار هذه والعنف والعذاب وصلت الى انطاكية ، في مشارف الشام حشود من فرنجة اوربة ، ذهب بعضهم في تقدير أعدادها الى ماينوف المليون مابين رجل وشيخ وطفل وامرأة ،وقيل ان القوة المقاتلة لهذه الحشود كانت مالايقل عن مئة الف مابين فارس وراجل وتابع •

لقد كان الهدف المعلن لهذه الحشود الوصول الى القدس لقضاء واجب الحج وتخليص الاراضي المقدسة من المسلمين والعرب وتحويلها الى جزء من اوربة الكاثوليكية فيما وراء البحار • ودخلت هذه الجموع الشام وعاثت في دياره واستولت على كثير من مدنه وبلداته ، وقتلت وأحرقت وهدمت دون أن تلقى مقاومة تذكر •

احتلت أولا انطاكية وجعلت منها مركزا لامارة صليبية ثانية في المشرق ، ثم أخذت الحشود طريقها جنوبا ، فجردت حلب من كثير من املاكها ، ومرت بمعرة النعمان مركز الحضارة والثقافة والشعر واللغة والتاريخ والفلسفة في الشام ، فدمرتها كليا وقتلت جميع السكان فيها من بشر وحيوانات ، ثم تابعت هذه الحشود السير نحو الجنوب تحتل وتدمر الى أن وصلت الى القدس فحاصرتها حتى سقطت في ١٦ تموز ١٠٩٩ م ، ونترك هنا وصف ماحل بالقدس لصاحب

كتاب " اعمال الفرنجة " وهو شاهد عيان شارك في الاحداث فها هو يقول : (تقدم واحد من فرساننا واسمه " ليتو " واعتلى سور المدينة ، وما كاد يرتقيه حتى هرب جميع المدافعين عنها من الاسوار الى داخلها فتعقبهم رجالنا وأخذوا في مطاردتهم معملين فيهم القتل والتذبيح حتى بلغوا هيكل سليمان حيث جرت مذبحة هائلة فكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى ولما ولج حجاجنا جدوا في قتل المسلمين ومطاردتهم حتى قبة عمر حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين اعملوا فيهم أعظم القتل طيلة اليوم بأكمله ، حتى لقد فاض المعبد كله بدمائهم ... وانطلق الصليبيون في جميع انحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة ، والجياد والبغال ، كما أخذوا في نهب البيوت الممتلئة بالثروات . آشتد السرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم ، ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع وقضوا واجباتهم الدينية ازاءه ، وفي صباح اليوم التالي تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على المسلمين رجالا ونساء واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل وصدر الامر بطرح كافة قوى المسلمين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم ولان المدينة كادت أن تكون جميعها مملوءة بجثثهم ، فقام المسلمون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس ، وطرحهم امام الابواب . وتعالت آكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا . وما تأتى لاحد قط ان سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التي المت بالشعب المسلم) .

وصفت القدس للغزاة الجدد فأقاموا فيها ثالث دولهم في الشرق وأعظمها مكانة ثم أخذوا يوسعون رقعة املاكهم في فلسطين

وبعد عدة سنوات احتلوا مدينة طرابلس وأقاموا فيها دويلتهم الرابعة في الشام .

لقد نزلت بالشام ضربة مروعة ، وأصاب العرب خزي لم يعرفوا مثله قيام الاسلام ، لكن هذا كله لم يعد الرشد الى حكام دويلات الشام التركمان فاستمروا في صراعاتهم الداخلية ، واحتدم الصراع من جديد بين دمشق وحلب واضطر الطرفان لمهادنة الصليبيين ليفترغوا لصراعاتهم الداخلية ، وأخذ الناس في الشام يتململون مما حصل وبدأ التململ يتحول الى أعمال ناقدة ومعارضة لتصرفات الحكام ، وأول ما انفجر الوضع في مدينة حلب .

كان حاكم حلب عند حصار انطاكية هو رضوان بن تتش ،وكان شغله الشاغل احتلال حمص ثم دمشق من أخيه دقاق بن تتش، وعرف الصليبيون انشغاله في هذه المقاصد فارادوا الاطباق على حلب لملء الثغرة القائمة في امارتيهم في الرها وانطاكية ، وعندما اشتد الضغط الصليبي على حلب ضاق الامر بأهلها فتوجه في سنة ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م وفد منهم الى بغداد ، واستغاثوا في ايام الجمع ، ومنعوا الخطباء مستصرخين بالمسلمين على الفرنج ، وكسروا بعض المنابر ، ومنعوا الخطباء من القاء خطب الجمعة واحدثوا هياجا في بغداد ، فاضطر الخليفة والسلطان الى تجهيز جيش كبير عهد بقيادته الى مودود صاحب الموصل .

وتحرك الجيش هذا ، لكنه عندما وصل الى حلب أغلق رضوان في وجهه بوابات المدينة واتخذ منه موقفا معاديا فاضطر مودود الى الرحيل نحو دمشق حيث دخلها وتحالف مع طغتكين اتابكها الذي

أصبح سيدها بعد وفاة دقاق بن تتش ، لكن عندما بدأ هذا التحالف يؤتي بعض ثماره اغتيل مودود في مسجد دمشق في سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣م وكان مغتاله من فئة الحشيشية الاسماعيلية ، ويبدو أنه كان لرضوان يد في الاعداد لهذا الاغتيال ، ومع ذلك فان رضوان توفي بعد مودود بفترة وجيزة وأخذت الاحداث تتحرك في الشام بسرعة جديدة .

وحل بساح حلب اضطراب سياسي شديد تحرك خلاله شعب المدينة باكثر من ثورة أثمرت اخيرا وأدت الى تجميد الحكام التركمان وقيام حكم شعبي يسير امور الدفاع عن المدينة ، وفي هذا الوقت الذي بدأ فيه سكان شمال الشام يستردون فيه انفاسهم وبدأ يظهر الى الوجود جيل عربي مؤمن جديد مع روح جديدة ، في هذا الوقت بالذات وبعد مضي زهاء ربع قرن على الغزو الصليبي كان مد التوسع الصليبي في الشام قد وصل الى أقصى مداه ، ومن ثم بدأ يتحول الى جزر .

ومعلوم ان الصليبيين قد وصلوا الى مشارف الشام جمعا واحدا لكن ما ان توغلوا فيه وفتحوا بعض أراضيه حتى حل بهم داؤه العضال ، فدب بين صفوفهم التمزق ، وانقسموا الى عدة دويلات ، وبما أن عددا كبيرا من رجالات الحملة الاولى كانوا قد استقروا في الشام ، فقد انجبوا هناك جيلا جديدا تمتع بصفات بلدية خاصة ، وحيث أن تدفق الفرنجة من اوربة الى الشام لم ينقطع فقد غدا المجتمع الصليبي مؤلفا من مجموعتين متمايزتين هما : مجموعة البلديين ومجموعة الوافدين ، بالاضافة الى هذا قامت بين صفوف الصليبيين تنظيمات غالبا ماكانت ذات صبغة عسكرية وذات

مطامح سياسية ، ولقد تعقد هذا الوضع مع مرور الزمن ، وازدادت الفرقة عمقا ، والخلافات حدة ، كما زالت من بين صفوف الصليبيين الروح التي وجدت في الحملة الاولى خاصة بين صفوف الفقراء منهم .

لقد وقعت الحادثة التي وصل فيها المد الصليبي الى مداه ثم أخذ يتحول الى جزر امام اسوار مدينة حلب وكان ذلك سنة ٥١٨ هـ / ١٠٢٤ م ففي هذه السنة حضر الصليبيون كل شيء للاستيلاء على مدينة حلب ، وكانت مدينة حلب في هذه الآونة تتبع رسميا لتمرتاش ابن ايلغاري أحد أفراد الاسرة الأرتقية التركمانية ، وقام الصليبيون بالاتصال مع دبيس بن صدقة صاحب الحلة في العراق وآمير قبيلة آسد ، فاتفقوا معه على ان يساعدهم في احتلال مدينة حلب مقابل تعيينه آميرا عليها شرط آن يسمح لبعض القوات بالمرابطة فيها ، كما اتفقوا مع سالم بن مالك بن بدران العقيلي صاحب قلعة جعبر ، ومع ابراهيم بن رضوان بن تتش الذي كان أبوه أميرا لحلب عندما بدأ الغزو الصليبي ، وجمع الصليبيون قواتهم مع قوات حلفائهم ، وزحفوا على مدينة حلب ، وآخذوا في حصارها ، واثناء الحصار عدل الاتفاق بين المحاصرين فاتفقوا من جديد على ان تكون حلب لابراهيم بن رضوان بن تتش " لانها كانت لابيه " .

ولم يكن الحاكم الرسمي لحلب مقيما بها ، بل كانت الامور في المدينة بأيدي شعبها الذي شكل آنئذ نوعا من آنواع الجمهوريات للدفاع عن المدينة برئاسة قاضيها آبي الفضل بن الخشاب يعاونه مجلس يمثل المدينة وكبار العلماء .

وشدد المحاصرون تطويقهم لحلب ، وطال الحصار وامتد ،وآخذ الصليبيون مع حلفائهم يزحفون على أسوار المدينة (وقطعوا الشجر ، وخربوا مشاهد كثيرة ، ونبشوا قبور موتى المسلمين وآخذوا توابيتهم الى الخيم ، وجعلوها أوعية لطعامهم ، وسلبوا الاكفان، وعمدوا الى ما كان من الموتى لم ينقطع اوصاله ، فربطوا في أرجلهم الحبال وسحبوهم مقابل المسلمين ، وجعلوا يقولون : هذا نبيكم محمد ، وآخر يقول : هذا عليكم ،وآخذوا مصحفا من بعض المشاهد بظاهر حلب ، وقالوا : يامسلم أبصر كتابكم ،وثقبه الفرنجي ، وشده بخيطين وعمله ثفرا / الثفر : السير الذي يجعل في مؤخر السرج / لبرذونه ، وأقاموا كلما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه الى المسلمين .

ولم يؤثر هذا ـ على شدته ـ في معنويات الحلبيين ، فداوموا على الدفاع ، وازدادوا اصرارا على المقاومة ،" وبلغ الضر الى حالة عظيمة حتى أكلوا الميتات والجيف ، ووقع فيهم المرض " ، ويحدثنا مؤرخ حلب الصاحب كمال الدين عمر بن العديم عن بعض شهود العيان بأن الحلبيين " كانوا في وقت الحصار مطروحين من المرض في أزقة البلد ، فاذا زحف الفرنج ، وضرب بوق الفزع ، قاموا كأنما نشطوا من عقال ، وقاتلوا حتى يردوا الفرنج ، ثم يعود كل واحد من المرضى الى فراشه " .

ولما اشتد الحصار على حلب ، وقلت الاقوات بها وضاق الامر " بالحلبيين اتفق رأيهم على تسيير وفد الى تمرتاش حاكم المدينة الرسمي ، وكان آنذاك مقيما في مدينة ماردين مشغولا

بمسائل خاصة ، وخرج الوفد ليلا من البلد ، وعلم الفرنج بخبـــره ، وحاولوا اعتقاله فأخفقوا ، ورغم هذا حاولوا أن يوهموا أهـــل المدينة أنهم اعتقلوا رجالات الوفد ولكن ذلك لم ينطل علـــى الحلبيين ، وعرفوا بعد وقت نبأ وصول وفدهم سالما الى ماردين .

وفي ماردين واجه الوفد مفاجأة كبرى غير متوقعة ،ويتحدث جد ابن العديم – وكان أحد رجالات الوفد – واصفا ماحدث فـــي ماردين فيقول : " لما وصلنا الى ماردين ، ودخلنا على حسام الدين تمرتاش ، وذكرنا له ماحل بأهل حلب ، وماهم فيه من ضيق الحصار والصبر ، وعدنا بالنصر ، وانه يتوجه اليها ، ويرحل الفرنج عنها ، وانزلنا في مكان في ماردين ، وجعلنا نطالبه بما وعد وهــــو يدافعنا من يوم الى يوم ، وكان آخر كلامه ان قال : خلوهم اذا أخذوا حلب ، عدت وآخذتها ،فقلنا في انفسنا : ماهذه الا فرصة ، وقلنا له : لاتفعل ، ولاتسلم المسلمين الى عدو الدين ، فقـــال : وكيف أقدر على لقائهم في هذا الوقت ؟ فقال له القاضي أبو غانم / جد ابن العديم / وايش هم حتى لاتقدر عليهم ونحن أهل البلـــد اذا وصلت الينا نكفيك أمرهم " . قال القاضي ابو الفضل – عـــم ابن العديم وراوي الخبر – : فكتبت كتابا من حلب الى والـــدي ابي غانم اخبره بما حل بأهل حلب من الضر ، وانه قد آل الامر بهـــم الى أكل القطـــط والكلاب الميتـــة ، فوقع الكتاب في يد تمرتاش ،وشق عليه ، وغضب وقال : انظروا الى جلد هؤلاء الفعلة الصنعة ، وقـــد بلغ بهم الامر الى هذه الحالة وهم يكتمون ذلك ، ويغرونـنــــــي ويقولون : اذا وصلت الينا نكفك أمرهم ،

قال القاضي ابو غانم : فأمر تمرتاش بأن يوكل علينا ، فوكل بنا من يحفظنا خوفا أن ننفصل عنه الى غيره ، فأعملنا الحيلة في الهرب الى الموصل ، وأن نمضي الى البرسقي - صاحب الموصل - ونستصرخ به ونستنجده ، فحدثنا مع من يهربنا ، وكان للمنزل الذي كنا فيه باب يصر صريرا عظيما اذا فتح وأغلق ، فأمرنا بعض أصحابنا أن يطرح في صائر الباب زيتا ويعالجه لنفتحه عند الحاجة ، ولايعلم الجماعة الموكلون بنا اذا فتحناه بما نحن فيه ، وواعدنا اذا جنّ الليل ان يسرجوا الدواب ويأتونا بها ، ونخرج خفية في جوف الليل ونركب ونمضي •

قال : وكان الزمان شتاء والثلج كثيرا على الارض ، قال القاضي أبو غانم : فلما نام الموكلون بنا جاء الغلمان بأسرهم الا غلامي ياقوت ، وأخبر غلمان رفاقي أن قيد الدابة تعسر عليه فتحه ، وامتنع كسره فضاقت صدورنا لذلك ، وقلت لاصحابي : قوموا انتم وانتهزوا الفرصة ولاتنتظروني ، فقاموا وركبوا والدليل معهم يدلهم على الطريق ولم يعلم الموكلون بشيء مما نحن فيه ، وبقيت وحدي من بينهم مفكرا لايأخذني نوم حتى كان وقت السحر ، فجاءني ياقوت غلامي بالدابة ، وقال : الساعة انسكر القيد ، قال : فقمت وركبت لا اعرف الطريق ، ومشيت في الثلج أطلب الجهة التي أقصدها ، قال : فما طلع الصبح الا وانا وأصحابي الذين سبقوني في مكان واحد ، وقد ساروا من أول الليل وسرت من آخره ، وكانوا قد ضلوا الطريق ، فنزلنا جميعا وصلينا الصبح ، وركبنا وحثثنا دوابنا ، وأعملنا السير حتى وصلنا الموصل " •

وفي الموصل قابل هذا الوفد آق سنقر البرسقي حاكم المدينة واستطاع اثارته واقناعه بالذهاب على رأس قواته لانجاد حلب، وعندما أشرفت عساكره على البلدة الباسلة ، رحلت قوات الصليبيين منسحبة ، وهكذا نجت حلب ، وبنجاتها نجت بلاد الشام مع المشرق العربي والاسلامي ، وقد علق في عصرنا هذا المؤرخ البريطاني الكبير توينبي على هذا الحادث بقوله : (لو سقطت حلب للصليبيين لصار الشرق لاتينيا) .

بوصول صدّ الاحتلال الصليبي سنة ٥١٨ هـ / ١٠٢٤م الى نهايته انتهى عهد التوسع الصليبي وبدأت حرب التحرير والاسترداد ، وانتقل المسلمون من حالة الدفاع الى حالة الهجوم وبدأوا يخططون لاعمال التحرير ، وتوقف الصليبيون عن أعمال الهجوم ، وبات شاغلهم الرئيس الاحتفاظ بما احتلوه .

لقد مرت حرب الاسترداد بأربع مراحل ، ارتبطت كل منها باسم مدينة من مدن العرب تحملت عناء المسؤولية العظمى لقيادة أعمال التحرير ، كما آن كل مرحلة من المراحل كان لها مزاياها وخصائصها وتعلقت الامور كلها بشكل أساسي بأوضاع العرب والمسلمين من حيث اليقظة والوحدة وشخصيات القادة ، وهذه المراحل المتتالية هي :

مرحلة الموصل ، مرحلة حلب ، مرحلة دمشق ، مرحلة القاهرة .

كانت مدينة الموصل أعظم مدن منطقة الجزيرة وفي التاريخ الاسلامي نجدها في المراحل المبكرة منه دائما متورطة في مشاكل العراق السياسية وغير السياسية ، وقلما كان لها دورها الفعال

في احداث بلاد الشام ، انما يلاحظ منذ القرن العاشر بداية تحول للاشتراك في احداث بلاد الشام ، على أنه ظلت هذه المشاركة هامشية حتى اواخر القرن الحادي عشر ، وبالتحديد عندما ازداد تدفق الغز على الجزيرة والشام ، فلقد قدم الغز من اتجاه معاكس لاتجاه البداة العرب ، وقبل قدوم الغز واقامة السلطة السلجوقية رست مقاليد التغيير السياسي في بلاد الشام في ايدي رجال القبائل العرب ، وقد انتزع الغز هذه المقاليد منهم كما سبق الحديث عن هذا .

وكانت الموصل أول محطة للمهاجرين الغز نحو الشام ، وسبب هذا تحولا جذريا في تاريخ الموصل مع اقليم الجزيرة والشام ، فقد أخذ اتصال الموصل بالعراق يخف وغدت هذه المدينة بالتدريج جزءاً من الشام ، وتورطت في مشاكله ، وأصبح الاستيلاء على الموصل الخطوة الاولى والاساسية نحو الاستيلاء على شمال بلاد الشام ،وربما على الشام بأسره ، ويمكن أن نرى في تاريخ الدولة العقيلية ، ثم الدولة الاتابكية مايكفي للتدليل على صحة هذا .

لقد أراد الصليبيون احتلال مدينة حلب ، لسد الثغرة بين الرها وانطاكية ولعزل الشام عن المشرق بعد ماتم عزله الى حد بعيد عن مصر ليسهل بعد ذلك الاطباق عليه واحتلاله بشكل كامل، لكن مدينة حلب نجت ودخلت في وحدة طوعية شعبية مع الموصل ، وهكذا توحد شمال بلاد الشام مع اعالي بلاد الرافدين تحت قيادة البرسقي ، ووجهت الآن طاقات المسلمين في الدولة الجديدة ضد الصليبيين وانتقل العمل ضد الفرنجة من مرحلة الدفاع السلبي الى مرحلة الهجوم الايجابي ، لكن لسوء حظ المسلمين أن البرسقي قد

أغتيل من قبل الحشيشية الاسماعيلية بعد عامين من انقاذ حلب وبدء حرب التحرير .

ولقد أدى اغتياله الى انتكاسة مروعة ، لكن موقتة ذلك أن الامة كانت تعيش بداية عصر اليقظة لذلك اجتازت المحنة وتغلبت عليها ، لقد تآمرت قوى سياسية محترفة على سيادة الموصل ، وانجرفت السلطنة في تيار هذه المؤامرات مع دار الخلافة ، لكن شعب الموصل كان يعرف مايريد عن ايمان وعزيمة ، وبعد عام من مصرع البرسقي ، توجه وفد يمثل أهل الموصل الى بغداد ، وقام هذا الوفد باختيار الضابط زنكي بن آق سنقر قسيم الدولة ،وتعاقدوا معه على تولي مقاليد الامور في دولة الموصل ضمن شروط معينة ، ولتأدية واجبات محددة ، وبعد ماتم التعاقد معه أجبر الوفد سلطان بغداد على الموافقة على تعيين زنكي حاكما جديدا على الموصل واستبعاد سواه .

وفي عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م تسلم عماد الدين زنكي زمام الامور بالموصل ، وكان زنكي هذا عسكريا من الطراز النادر له من العزم والشجاعة والبطش ، وحب النظام والتقيد به مع المطامح العالية ما أحلّه محل الزعامة ، ومكنه من شغل الدور الذي كانت الامة في مرحلة استحقاقها آنذاك قد اوكلته اليه وعهدت بمسؤولياته الجسام الى اخلاصه وكفايته ، لقد ادرك زنكي حجم المسؤولية التي ألقيت على عاتقه فقام بها خير قيام ، وأدرك ان عليه – حتى يحقق النجاح – أن يوحد بأي ثمن وبأية واسطة بين اجزاء الامة الممزقة سياسيا ، وأن كل شيء جائز وقانوني في سبيل تحقيق

الوحدة وازالة جميع العوائق والفوارق لتطوير حركة اليقظة وتنميتها ونفي الفوضوية عنها والزامها بالجدية والنظام والعمل الجاد البناء .

وكانت خطته في العمل ضد العدو تهدف أولا الى ازالة مملكة الرها ، ثم اسقاط انطاكية ، حتى تسد الثغرة مابين أعالي/بلاد الرافدين وشمال بلاد الشام ، ومن ثم تغلق المنافذ البرية للصليبيين ، فتتوقف بذلك الهجرة البرية ، ويحال بين الامبراطورية البيزنطية والتدخل وتقديم المساعدات للصليبيين ، الذين يمكن بنجاح هذه الخطة وضعهم داخل نطاق الحصار من الجوانب البرية .

وعندما يطالع الباحث سيرة حياة زنكي يجده قد ضرب المثل الاعلى بالجدية والالتزام بالنظام ، وقد وصفه ابن العديم في كتابه (بغية الطلب في تاريخ حلب) بقوله : " كان زنكي ملكا عظيما ، شجاعا ، جبارا ، كثير العظمة والتجبر ، وهو مع ذلك يراعي أحوال الشرع ، وينقاد اليه ، ويكرم أهل العلم ، وبلغني أنه كان اذا قيل له : أما تخاف الله ؟ يخاف من ذلك ويتصاغر في نفسه " ووصفه أحد معاصريه بقوله : " كان أتابك زنكي ابن قسيم الدولة آق سنقر رحمه الله اذا مشى العسكر خلفه كأنهم بين خيطين مخافة ان يدوس العسكر شيئا من الزرع ولايجسر أحد من هيبته يدوس عرقا من الزرع ، ولاتمشي فرسه فيه ، ولايقدر أحد من الاجناد يأخذ لفلاح علاقة تبن الا بثمنها او بخط من الديوان الى رئيس القرية ، وان تعدى أحد صلبه عليها ، وكان اذا بلغه عن جندي انه تعدى على فلاح قطع خبره ، وطرده ، حتى عمّر البلاد

بعد خرابها ، وأحسن الى أهالي مملكته وكان لايبقي على مفسد... ونهى عن الكلف والمغارم والسخر والتثقيل على الرعية وأقام الحدود في بلاده " وفرض زنكي على شعب دولته نوعا من انواع الجندية الاجبارية ، حتى صار معظم جند قواته متطوعة من ابناء الشعب . وما ان مكن زنكي نفسه في الموصل حتى التفت الى جهاد الصليبيين والعمل على قلعهم من ديار الشام ، وكان زنكي من مواليد مدينة حلب ، فيها نشأ وأمضى طفولته ، وكان الحلبيون يعرفونه ويحبونه ، لذلك قاموا عند قدومه الى الموصل فانتزعوا زمام مدينتهم من أمراء الاسرة الارتقية التركمانية الذين استولوا عليها اثر اغتيال البرسقي ، وذهب جماعة منهم الى زنكي فاستدعوه الى حلب ، وهكذا عادت الوحدة بين شمال الشام وأعالي بلاد الرافدين .

وسخر زنكي طاقاته ودولة للتحرير ، وأوقف نفسه عليه ، فاسترد من الصليبيين أولا معرة النعمان وكفر طاب ، وبارين ، والاثارب مع المنطقة الشمالية والغربية لدولة حلب ، فاستردت حلب بذلك شيئا من عافيتها وتوفرت لديها امكانات اعظم للمساهمة بشكل اوفر في اعمال التحرير .

وكان همّ زنكي وشغله الشاغل احتلال الرها ، والقضاء على الدولة الصليبية التي كانت فيها ، وبعد عمل طويل وجهاد عاشته الامة كلا وأفرادا استطاع زنكي سنة ١١٤٤ م احتلال الرها والقضاء على اولى دول الفرنجة تأسيسا في المشرق ، ولقد عم لسقوط الرها صدى بالغ في الشرق والغرب ، وكانت تلك أقسى ضربة نزلت بالفرنجة مذ دخلوا الشام وأفدح خسارة ألمت بهم .

وتابع زنكي نشاطاته لتنفيذ خططه وحدث انه بعد مضي عامين على سقوط الرها آن قضى نحبه غيلة من قبل أحد غلمانه ، حدث ذلك وهو يحاصر قلعة جعبر ، ووقع ليلا بينما كان زنكي نائما ، وهرب الغلام الذي اقترف جريمة قتله وجاء الى تحت قلعة جبر (فنادى أهل القلعة : شيلوني فقد قتلت السلطان ، فقالوا اذهب الى لعنة الله قد قتلت المسلمين كلهم بقتله "

لقد كان لمصرع زنكي أثر مفجع في نفوس المسلمين فدعوه (بالشهيد) وبرغم كثرة الشهداء في التاريخ العربي ، فان زنكي هو الوحيد الذي عرف بهذا الاسم ، لكن برغم هذا كله لم يوقف موت زنكي مسيرة التحرير ، ولم يؤثر كثيرا في اوضاع الامة ، ذلك ان الامم الحية لا تتأثر كثيرا بفقدان القادة ، ولا تتعطل مسيرتها بمصرعهم لانها تخلقهم الواحد تلو الاخر .

لقد طوى حادث اغتيال زنكي مرحلة حرب الاسترداد الاولى ، وهكذا انتهت مرحلة الموصل لتبدأ مرحلة حلب وهي المرحلة الثانية للتحرير ، فقد تسلم نور الدين محمود بن زنكي القيادة بعد سقوط أبيه ، وكان نور الدين - الذي اتخذ من حلب مقرا له - مثله مثل ابيه في الشجاعة والحزم والاخلاص والطموح ، انما تميز عن ابيه بتقواه وزهده وسلامة نيته ، فقد كان يعتقد بأن الله تعالى قد أوكل اليه مهمة اقتلاع الفرنجة من ديار المسلمين ، وتوحيد هذه الديار وأهلها تحت راية واحدة ولهدف جهادي واحد .

وكانت اولى الاعمال التي قام بها نور الدين محمود استعادة الرها من الصليبيين الذين استغلوا حادث اغتيال زنكي والفوضى التي

رافقته ، فاستولوا عليها ثانية . وبعد هذا بذل ما أوتيه من قوة وطاقات في سبيل اثارة الامة ، وبعث روح الجهاد والتضحية بين جميع افرادها في جميع مناطق الوطن العربي ، ويعد نور الدين من أعظم الذين أسهموا في ايجاد جيل جديد مسلم له روح جديدة تضحي في سبيل الجهاد والتحرير ، وتخترع وتبدع كل مايحتاجه الجهاد والتحرير ، وهي بالوقت نفسه روح مثقفة متحضرة تحب حياة الوحدة والتعاون والتكاتف ، وتكره الفرقة وتمجها ، هذه الروح الجديدة التي تجسدت في معظم افراد الامة وفي شخص نور الدين ، فكان لها مثلا أعلى ، هي التي مكنت من عدد من الانجازات العسكرية وهي التي مكنت نور الدين في سنة ١١٥٤ م من الذهاب الى دمشق بناء على دعوة أهلها ، فوحد لاول مرة منذ قرون بين شمال الشام وجنوبه ، وشملت هذه الوحدة اجزاء من الجزيرة ، وهي ايضا التي سببت بناء العديد من الرباطات والمدارس والجامعات والمشافي ،ورعت الثقافة وشجعت المثقفين ، فنور الدين هو الذي شجع ابن عساكر على كتابة تاريخ لمدينة دمشق جاء في ثمانين مجلدة كبيرة ، وهذا أمر لم يعهد له مثيل في سير الامم وتواريخها .

وبتحول نور الدين من حلب الى دمشق انتهت المرحلة الثانية ، وتحولت مدينة دمشق عن الموقف السلبي تجاه الصليبيين الى وضع ايجابي تقود به حرب الاسترداد وبشكل حاسم ، فمن دمشق خاض نور الدين عدة معارك ضد الصليبيين وكانت جميع المعارك التي وقعت بين المسلمين والصليبيين حتى هذا التاريخ غير فاصلة ، فبلاد الشام هي بلاد تساعد بنيتها الجغرافية على قيام كثير من القلاع والحصون،

وكانت معظم المدن والبلدان فيها ذات اسوار للدفاع ، لذا كانت كلما حدثت معركة بين قوة عربية وقوة صليبية ، كانت هذه المعركة غالبا ماتحدث قرب آسوار احدى القلاع او الحصون ، ولذلك كانت تستغرق وقتا طويلا ، وتستهلك جهدا عظيما دونما فائدة تذكر ، واذا ماحدث ووقع اشتباك في أحد السهول فان المهزوم غالبا ماكان ينسحب الى واحد من مواقعه المحصنة القريبة ، فيتخذ موقف الدفاع ، لذلك طال أمد الحروب الصليبية ، واحتاجت الى تكاليف باهظة ، وبات على المسلمين وقادتهم تأمين الموارد الكافية من الرجال والمؤن ، والسلاح والمال لنفقات هذه الحروب ، وبالوقت نفسه العمل من أجل خلق ظروف وحالات مواتية لقيام معركة فاصلة مع العدو ، تحطم فيها قواه العسكرية ذلك ان الصليبيين ظلوا في المشرق عبارة عن مؤسسة عسكرية محتلة ، ولم تقم بينهم وبين المسلمين علاقات حياة اجتماعية وتعايش ، وما جاء في بعض المصادر عن بعض العلاقات لايمكن آخذه مأخذ القانون الشامل . لقد عاش الصليبيون في المشرق غرباء ، وملكوا القدرة على البقاء طالما ملكوا القدرة العسكرية ، لكن عندما فقدوا ذلك بضربة حاسمة صار وجودهم مؤقتا .

وبعد ما وحد نور الدين الشام والجزيرة نظر أمامه فرأى مصر بطاقاتها الهائلة ومواردها الكبيرة الجبارة ، وكان الحكم في مصر على غاية من الضعف والتمزق والاضطراب ، وتوجه نور الدين بأنظاره نحو مصر كي ينقذها من فوضاها ، وكي يدخل اليها الروح الجديدة التي حلت بالشام ، وحتى تستخدم موارد مصر ، وتزج

طاقاتها في المعركة بدلا من التبعثر والهدر والضياع . وكان الصليبيون قد وصلوا الى قناعات مفادها أنه بات من المحال بالنسبة لهم التوسع في بلاد الشام ، وانه ليس امامهم في مستقبل قريب غير مصر او البحر ، لذلك أرادوا احتلال مصر ، ورغبوا في الاستفادة منها ومن مواردها ، لكي يحولوا بين المسلمين وبين تطويقهم ، والعمل في سبيل القضاء عليهم واقتلاعهم ، لهذا أعدوا العدة ، ورسموا الخطط ، وجردوا عدة حملات ضد مصر ، لكن نور الدين كان لهم ولاعوانهم من المتحكمين بمصر بالمرصاد ، فسارع الى التدخل ، وبفضل شجاعة قوات نور الدين ، وتجاوب شعب مصر معها أخفقت جميع جهود الصليبيين وتمكن نور الدين في سنة ١١٦٧ م من توحيد مصر مع بلاد الشام والجزيرة ، وفي سنة ١١٧١ م تم الغاء الخلافة الفاطمية وقامت في مصر حياة جديدة ويقظة متفتحة ، وبدأت مصر تستعد للاسهام في اعمال التحرير ، وطوقت الان ممتلكات الصليبيين ، وأعد نور الدين قواته من آجل معركة فاصلة ، وكان موقنا من أن النصر سيكون حليفه ، وأنه لن يكون بعد فترة للصليبيين وجود في الشام ، وعلى هذا الاساس آمر نور الدين بصنع منبر لتخطب عليه خطبة الجمعة الاولى في المسجد الاقصى بعد تحرره (١)

وكان صلاح الدين يوسف بن ايوب واليا لنور الدين على مصر ، وقبل ان يتوجه نور الدين على رأس قواته نحو فلسطين أصدر أوامره الى صلاح الدين بقيادة قوات مصر ، والالتقاء معه على

---

(١) لقد احرق هذا المنبر منذ سنوات عدة اثر احراق المسجد الاقصى بعد حرب ١٩٦٧ .

اسوار الكرك ، ولكن - ولكل عظيم سقطة - غلبت انانية صلاح الدين وشهوته للسلطة على نفسه - وذلك بتحريض جهازه الذي احاط به له ، وتخويفه من نور الدين - فتلكأ صلاح الدين ولم ينفذ أوامر نور الدين متعللا بأوهى الاسباب ، وهكذا تأجل موعد المعركة الفاصلة ، وكلفت شهوة السلطة الامة سنين طويلة اخرى من السدم والعذاب .

وتوفي نور الدين بشكل مفاجئ عام ١١٧٤ ، وقد انفرط عقد دولته عشية وفاته ، ذلك انه خلف ولدا صبيا لم يستطع القيام بأعباء المسؤولية ، فخف صلاح الدين من القاهرة الى الشام ، حيث تمكن خلال سنوات من حسم حالة الفوضى في البلاد ، وحال بين الفرنجة وأي توسع في الشام ، وأقام دولة تمتد من ليبيا الى جنوب الموصل وتشمل بلاد الشام والجزيرة مع مصر والحجاز واليمن وليبيا .

وملكت هذه الدولة مايكفي من طاقات بشرية واقتصادية للاعداد للقيام بعمل حاسم ضد الصليبيين ، وأيقن صلاح الدين انه قد حان الوقت لمنازلة جميع القوى الصليبية في ارض معترك واحدة ، وفي ظروف مناسبة ، وخلال زمن يكون لصالحه ، ويتيح له احراز النصر وسحق القوات المعادية .

وشهدت هذه الفترة تطورا كبيرا في العلوم العسكرية لدى المسلمين ، من حيث تحسين عدد كبير من الاسلحة ، ومن حيث رفع مستوى التدريب والمقدرة القتالية الهجومية لدى قوات صلاح الدين ، كما ان دولة صلاح الدين ملكت اقتصادا عسكريا متينا ، واصبحت لديها نواة اسطول يؤدي بعض الخدمات في البحر الابيض المتوسط ،

لكن برغم هذا كله كانت تعاني من نقص في الاخشاب والفولاذ . وكان الصليبيون يمتلكون آنئذ الشريط الساحلي لبلاد الشام ابتداء من انطاكية ، وكان عرض هذا الشريط لايتجاوز احيانا الثمانين كيلو مترا ، وكانت آراضيهم موزعة بين دول ثلاث ، مراكزها انطاكية ، والقدس ، وطرابلس ، وكانت هذه الاراضي محاطة من ثلاث جهات بالاراضي العربية حيث وجدت مدن بلاد الشام الكبرى مثل: دمشق ، حمص ، حماه ، بعلبك ، حلب ، وكانت هذه المدن واقعة على مقربة من (الحدود الصليبية) كما كان معظم سكان المناطق الواقعة في حوزة الصليبيين من العرب السوريين ،ولم تدرس بعد بشكل عميق انماط علاقاتهم بالصليبيين المحتلين ، وذلك آن هذا من المواضيع الخطيرة التي درست من قبل باحثين فرنسيين وسواهم واستخدمت في تسهيل مصالح الاستعمار الفرنسي الى حدّ القول او الايحاء بوجود فرنسيين فيما وراء البحار في الشرق .

وكانت المساعدات البشرية والحربية والاقتصادية ترد الى الصليبيين من اوربة بلا انقطاع عن طريق الاناضول ، وعن طريق البحر فقد كانت أساطيل الدويلات الايطالية تتحكم بأعمال الملاحة في البحر المتوسط ، وكانت قوى صلاح الدين البحرية أضعف من آن تخوض معركة مواجهة مع هذه الاساطيل .

واذا كان اسطول صلاح الدين أضعف من اساطيل الدويلات الايطالية ، فقد ملك المسلمون آنذاك اساطيل جبارة ،كان بامكانها فيما لو تعاونت مع اسطول صلاح الدين تقديم خدمات كبيرة للغاية ، لقد كان هناك اسطول امبراطورية الموحدين ، وكان الموحدون

يخوضون غمار حرب ضروس ضد الصليبيين في جبهة الاندلس .

وبفطرة الشعور بوحدة المصير ووحدة المعركة وجد آنئذ مواطنون من مدن المشرق والمغرب كان بعضهم يغزو عاما في فلسطين وعاما آخر في الاندلس ، من هذا المنطلق راسل صلاح الدين يعقوب المنصور الموحدي بسفارة سامية المستوى ، واستقبل المنصور الموحدي السفارة ببعض الحفاوة ، لكنه لم يلب المطلب الذي قدمت من أجله السفارة وذلك لاسباب عقائدية وسياسية مختلف حول تحديدها .

هذا واعتمد الصليبيون على حماية الامبراطورية البيزنطية ومساعدتها لهم ، وكانت هذه الامبراطورية القوية تسعى دائما للتنسيق مع الصليبيين والاستفادة من نشاطهم ، يضاف الى هذا ان الصليبيين ركنوا في كثير من الاحيان الى المساعدات التي كانت تأتيهم من أرمينية ، واحيانا من موارنة جبل لبنان .

ومفيد هنا أن نتذكر ان الصليبيين حققوا نجاحاتهم بسبب تمزق المسلمين وانصرافهم الى النزاعات الداخلية ، لكن الان أيام صلاح الدين انعكست الاية ، وانقلب السحر على الساحر ، فلقد توحد المسلمون في الشرق تحت راية صلاح الدين ، وأخذت الفرقة تحل بين صفوف الصليبيين اجتماعيا وحضاريا واقتصاديا ، كما أخذ التمزق يبدد قوى قادتهم سياسيا ، وكانت الروح المتوقدة التي ظهرت بين طلائع الصليبيين قد خمدت ، كما أن الفوارق بدت جلية بين ابناء الصليبيين الذين نشأوا في الشام ، وبين هؤلاء الذين قدموا حديثا من اوربة ، وظهرت بين صفوف الغزاة الفرنجة منظمات عسكرية دينية اصطدمت مصالحها في كثير من الاحيان وتعارضت سياساتها ،

كما جلب الصليبيون معهم الى الشام نظم الاقطاع التي كانت سائدة في اوربة ، لهذا تضاءلت سلطات الدول على الفرسان الاقطاعيين الذين تمركزوا في بعض قلاع الشام ، ولم تعرف جيوش الفرنجة انظمة الطاعة والضبط والربط ، يضاف الى هذا ان بعضا من الاقطاعيين تطلع نحو عروش احدى الدول الثلاث وحكمه حكما مباشرا او على شكل وصاية .

وقام صلاح الدين في كثير من المناسبات ، وببراعة متناهية ، بتوسيع شقة الخلافات بين قادة الصليبيين ، كما كشف النشاط العسكري ضد القلاع مستهدفا تدمير الفرنجة اقتصاديا ليكون ذلك مقدمة للتدمير العسكري والسياسي ، وتركزت في البداية جهودة على حماية منطقة دمشق ، وذلك بتحرير أراضي الجولان مع منطقة جبل عامل وبعلبك ، ثم الاشراف على الطريق البري الواصل بين مصر والشام وكان للصليبيين على هذا الطريق حصن الكرك ، فجهد صلاح الدين في سبيل الاستيلاء عليه .

وقبيل وفاة نور الدين كان أموري الاول – ملك القدس – آبرز قادة الصليبيين ، واعمقهم تجربة ، وكان يسعى لاستغلال الظروف التي نجمت عن وفاة نور الدين المفاجئة ، انما فوت عليه ذلك منيته التي حاقت به ، بعد قرابة شهرين من وفاة نور الدين ، وقد خلفه على عرش القدس ابنه بلدوين الرابع ، وكان صبيا في الثالثة عشرة من عمره ، مصابا بالجذام عاش حتى الرابعة والعشرين . وقد حرمه صغر سنه ومرضه من ممارسته للسلطة ، وكانت مملكة القدس في آمس الحاجة الى من يقودها حيال نشاط صلاح الدين وآعماله .

ودبت الفوضى في مملكة القدس ، وقام صراع بين الامــــراء الاقطاعيين حول الاستبداد بأمورها والوصاية على عرشها ، وتدخل صلاح الدين مرارا في هذا الصراع ليزيد من رقعتـه ، واثناء ذلـك تمكن أحد الامراء الصليبيين واسمه رينودي شاتيون ـ الذي عرفه العرب باسم ارناط ـ من السيطرة التامة على قلعتي الكرك والشوبك، وكان ارناط هذا ارعن أحمق متعصبا ومتهورا ، ركز ميادين نشاطه على قطع طريق الحج والطريق الواصل بين مصر والشام ٠

ولم يهمل صلاح الدين نشاط ارناط هذا ، وحاول الحد منـه ، لكن حدث سنة ١١٨٧ ، ان هاجم (ارناط) قافلة مسلمة كانت قادمة من القاهرة الى دمشق ، فانتهب ثرواتها ،وأسر الذين جاؤوا فيها ، وفي مواجهة هذا الحادث تذرع صلاح الدين في البداية بالحلم والصبر، فأرسل وفدا الى أرناط يطلب منه اطلاق سراح الاســرى، ورد (المنهوبات) فاجاب (ارناط) رافضا بتحد ووقاحة ، وهنـا أرسل صلاح الدين رسالة الى ملك القدس ، فلم يستطع فعل شيء ،وامام هذا الحال استنفر صلاح الدين قواته ، واستنفر قوى المسلمين فـي الجزيرة وسواها ، وأخذت القوات تتدفق على دمشق ، لتنطلق منها مسيرة التحرير ٠

وكان قوام جيش صلاح الدين الفرسان ، وكان سلاح هؤلاء الاساسي القسي والنشاب مع السيوف والدبابيس ، وتفوقت قسي جيش صلاح الديـن على ما وجد لدى الفرنجة ، اذ كانت اكثر مرونة وآخف وزنـا وأسهل استعمالا ، وصنع القوس في الغالب ـ على الطريقة التركمانية من قطع من العظام صف بعضها الى جانب بعض ، ثم لفت بخيوط مـن

جلود الحيوانات ، المبللة بالماء ، وكانت اوتار الاقواس ايضا من جلود الحيوانات وعندما كانت هذه القسي تجف بالشمس كانت قدرتها (النابضة) كبيرة للغاية ، وكان الفارس الرامي يستطيع الرماية في جميع الجهات ، وأن يرمي في الدقيقة الواحدة عشرة أسهم او اكثر ، وكان السهم يصل الى مسافة اربعمئة متر أحيانا ،وعندما كانت قوات صلاح الدين تتقدم الى معركة ما ، كانت تغطي سماء المعركة بالسهام ، وغالبا ما استهدفت السهام خيول فرسان العدو، وأمام هذا اضطر الصليبيون الى تغطية انفسهم وخيولهم بدروع واقية ، ولكن غالبا ما كان ضرر هذه الدروع اكثر من نفعها ذلك ان القوات العربية كانت تفضل القتال في مواسم الصيف لاسباب كثيرة ، منها ماكان زراعيا ، ارتبط بنظام الاقطاع العسكري ، ومنها ماكان لغايات فنية قتالية ، فقد كانت الامطار والاجواء الرطبة العدو الاول والاكبر للقسي ، لانها تفقدها فاعليتها •

وحين كانت المعارك تتم في مواسم الحر ، كانت قوات الصليبيين (المدرعة) تعاني من العطش ويصاب فرسانها بالانهاك نتيجة لانحباس التعرق ، وسنرى تأثير ذلك في نجاح المسلمين بكسب معركة حطين •

وفي مواجهة القواعد القتالية عند المسلمين لم يكتف الصليبيون بتغطية فرسانهم وخيولهم ، بل عدلوا من طرائق قتالهم وتسليح جيوشهم ، فقد آخذوا باستخدام قوات من المشاة الذين كانوا يرتدون معاطف من الجلد السميك فوقها قميص من الشباك المعدنية ، وكان سلاح هؤلاء القسي الثقيلة ، والفؤوس والحراب ، وكانوا يتقدمون

امام فرق الفرسان التي كان سلاحها الرئيس الرماح القوية ، التي كان كل منها عبارة عن اسطوانه خشبية طويلة لها سنان معدني حاد، وزج كان يوضع اثناء القتال في مكان مخصص له تحت ابط الفارس او كان الفارس يمسك به بكلتا يديه ، وكان اذا ماحدثت معركة حاول فيها المسلمون التقدم ، كان مشاة الفرنجة يتمركزون على الارض ، ويأخذون بالرمي المؤثر الممهد ، وهنا كان اذا حاول فرسان العرب الاغارة عليهم ، كان الفرسان الصليبيون الثقال يتصدون لهم بالانقضاض عليهم كالصواعق ، رماحهم مسلطة الى الامام ، قادرة على الخرق بقوة اندفاع الخيول ، لربط الفارس نفسه الى ظهر فرسه ، وسنده لرمحه على نقطة ارتكاز معدة خصيصا لهذه الوظيفة ،ولهذا بنى العرب خططهم على تجنب معركة مباشرة في سهل مكشوف ، وعمدوا دائما الى استدراج الفرنجة للقتال في اماكن وعرة ومرتفعة حيث تشل فاعلية فرسانهم ، واستهدفوا دائما الاستفادة الى ابعد الحدود من انعدام النظام والضبط والربط لدى فرسان الفرنجة ،الذين ماكان أحدهم ليعتلي فرسه ويشرع رمحه حتى كان ينقض على من وقف قبالته كائنا من كان بشكل فردي وعشوائي ودون انتظار أوامر من رئيس او قائد ٠

لهذا بنى العرب خططهم على استدراج فرسان الفرنجة والقيام بعملية فصل للقوات او للاسلحة ،أي ابتغوا احداث ثغرة بين سلاح الفرسان وسلاح المشاة ، وعملية الفصل هذه عملية معقدة للغاية تطبيقا وتنفيذا ، لهذا استخدم العرب انظمة الكر والفر والهجوم المخادع وغير المباشر بغية جذب الفرسان أبعد مسافة وتسبيب

الاعياء لهم ولخيولهم والايقاع بكل منهم على حده ، وكان العرب اذا مانجحوا في ذلك كله كانوا يرسلون سهامهم في السماء حتى تهبط على رؤوس الفرسان ، او كانوا يرسلونها سطحية تصيب بطون الخيل المعادية فتعقرها ، فقد كان في عقر الخيول تعطيل لسلاح الفرسان ، فالفارس المدرع المسلح بالرمح الطويل كان يعجز عن العمل بعد عقر مطيته ، وعقب هذا كله كان الرماة بخفتهم ومرونتهم يطلقون قسيهم ، ويتناولون سيوفهم او دبابيسهم ويقومون وهم يكبرون بأصوات مجلجلة ، بالانقضاض على الفرسان والمشاة كل على حدة ويجهزون عليهم .

وعندما كان صلاح الدين يعزم على خوض معركة ما مع الصليبيين كان يمهد لذلك قبل عدة اشهر ، فيرسل كتائب الجيش لتقوم باتلاف مزروعات العدو ، وبافساد الابار وموارد المياه ،وبضرب المنشآت الاقتصادية ، وبعدما يتحقق له هذا ، كان يقود قواته نحو الالتحام .

في ربيع ١١٨٧ ، دعا صلاح الدين الى الجهاد فأخذت القوات النظامية من دولته ، ودولة الموصل وسواها تصل تباعا الى دمشق فوصلت معها اعداد من المتطوعة ، وكان ماتجمع لدى صلاح الدين اكثر من عشرين الف مقاتل ، وانما دون الثلاثين ، وقامت القيادة العسكرية بوضع خطة للهجوم على فلسطين بغية تحريرها ،واستهدفت هذه الخطة استدراج قوات الصليبيين الى المنطقة المرتفعة حول طبرية لايقاع ضربة قاصمة بها .

وشعر الصليبيون بالخطر المقبل نحوهم ، فازالوا خلافاتهم ، وحشدوا قواتهم كلها ، ولعلها قاربت الخمسين الفا ، وهو عدد لم يجتمع للصليبيين مرة واحدة مثله في الشام من قبل ولا من بعد ، وعسكرت قوات الصليبيين في صفورية - قرب الناصرية - وباتت تترقب الاحوال وتنتظر تطور الامور ،وكما هو واضح فان تعداد هذه القوات فاق تعداد ماتجمع لدى صلاح الدين ، وكانت فيها خيرة رجال الفرنجة في المشرق . اذ ملك الصليبيون تفوقا في التعداد مع تفوق هائل بالتسليح ، ومع ذلك عوض صلاح الدين ذلك كله بالتكتيك ، وهذا لاشك يضفي صفة خاصة على معركة حطين .

غادر صلاح الدين دمشق ، وأخذت قواته الطريق نحو الاردن ، وفي يوم الجمعة ٢٦ حزيران ١١٨٧ عبرت هذه القوات الاردن جنوب بحيرة طبرية ، واتخذت مواقعها قرب أطراف النهر ، وبات عليها تنفيذ خطة موضوعة بدقة .

وكان أصحاب التجربة من قادة الصليبيين على معرفة بمرامي صلاح الدين واهدافه ، وكان على رأسهم آنذاك ريموند الثالث صاحب طرابلس وطبرية ، ويروي مصدر لاتيني عاصر الاحداث ، ان ريموند الثالث خاطب قادة الفرنجة المعسكرين في صفورية في اول مجلس حربي عقدوه ، بقوله : (انصحكم واقترح عليكم ان تشحنوا مدنكم وقلاعكم بالرجال والموّن والسلاح وكل مايلزم من وسائل الدفاع واطلبوا المساعدات من جميع الاطراف ، ذلك أنني موقن بأن صلاح الدين سيظل حيث هو ، وانتم تعلمون انه الان منتصف الصيف ، واكثر الاوقات حرارة في السنة ، ولاشك ان الحر سيبعث على الاسترخاء

والكسل ، وآنذاك نقوم بمهاجمة مؤخرة قوات صلاح الدين ونجبرها على الانسحاب وهكذا تسلم المملكة - مملكة القدس - وتبقى آمنة) ، ووافق القادة على هذا الاقتراح فقرروا الاقامة .

وعلم صلاح الدين بهذا ، وجرب استدراج الصليبيين واقتلاعهم من معسكرهم فاخفق ، وكان صلاح الدين يدرك أحوال القوات الصليبية ، وأحوال جندها النفسية ، فقد كان قوام جيش الفرنجة من الفرسان وكانت كمية كبيرة من هؤلاء الفرسان تتبع (فرسان المعبد والمستشفى (الداوية والاسبتارية) ، فغالبا ماكان الفارس أرعن متهورا ، تسهل اثارته ، فهو قد ملك الشجاعة لكن مع الحماقة ، ففرسان الصليبيين كانوا مقاتلين هواة ، ولم يكونوا جندا محترفين . وبالنسبة لصلاح الدين وجنده ، لم تكن الحروب هواية بل حرفة قائمة على التخصص الموروث والعقل ، وحين يصطدم العلم والاحتراف والعقل والحكمة من جانب بالقوة والجبروت والهواية ، فان النصر يكون نصيب الفريق الاول .

وأدرك صلاح الدين فيما ادركه أن الخطر قد جمع بين قوى الصليبيين ، لكنه لم يزل الخلاف والتنافس من بين صفوفهم ، ومن هذا الادراك سدد صلاح الدين ضربته البارعة ، فقام بمهاجمة طبرية ، وكانت آنذاك تعسكر فيها زوجة ريموند الثالث مع عدد من الاسر الصليبية النبيلة ، وسقطت طبرية وانسحب المدافعون عنها الى قلعتها وارسلوا يستغيثون ويطلبون النجدة من المعسكرين في صفورية على بعد خمسة عشر ميلا .

وعندما وصلت الاستغاثة الى الصليبيين ، عقد قادتهم مجلسا حربيا جديدا لدراسة الموقف ، وأعطي الكلام لريموند الثالث لمرتبته العالية ، ولان طبرية من املاكه ، وزوجته هي المدافعة عنها ، وهي صاحبة الاستغاثة ايضا ، وعرض ريموند رأيه في ان لاتستجاب الاستغاثة ، ذلك ان التحرك من صفورية سيؤدي الى تدمير مملكة القدس وزوالها من الوجود ، وقال : (دعوا طبرية تسقط فان صلاح الدين لن يحتفظ بها ، بل سيكتفي بتدمير اسوارها وأخذ من فيها أسرى ، وسنعيد بناء الاسوار ، ونفاوضه من أجل الاسرى) واضاف ان الزحف الى طبرية في ارض قاحلة لاماء فيها في هذا الفصل الحار سيؤدي الى دمار الجيش ، ثم اني اعرف غطرسة صلاح الدين وتجبره وهو ان لم نزحف اليه سيزحف الينا ، وآنئذ سندمر جيشه ، وان تكن الاخرى ، فقلاعنا على مقربة منا ، حيث يمكن أن نلجأ اليها .

وقام ارناط ومقدم الداوية ، وعدد آخر من كبار الفرسان، بمعارضة آراء ريموند هذه ، واتهموه بالخيانة والجبن ، وبينوا أن قانون الاقطاع الناظم للعلاقة بين الملك والتابع يقتضي من ملك القدس أن يهب لنجدة طبرية مهما كانت المخاطر والنتائج ، وكثرت الضغوط على الملك ، فمال الى المعارضين لريموند ، لكنه لم يصدر آمرا بالتحرك ، وانفض المجلس الحربي والامور معلقة ، وبات الجيش الصليبي حيث كان ، انما حدث في آخر الليل أن سمعت أصوات تنادي بالرحيل ، وان الملك أصدر بذلك أمره ، ويرى أغلب الذين كتبوا في تاريخ الحروب الصليبية ان الملك لم يصدر امر التحرك ، وحيث لم تعرف الجهة التي أصدرت الامر ، يتساءل بعضهم عما اذا كان قد

تحقق لجماعة من عملاء صلاح الدين النشاط في المعسكر الصليبي، واجباره على التحرك ، واذا صح هذا ، ففيه براعة وفهم كبير .

وخلاصة الامر أن الجيش الصليبي تحرك في تموز – شهر الحر – تحرك لينقذ طبرية ، لا ليشتبك بجيش صلاح الدين في معركة فاصلة ، وخيل اليه انه سيصل الى طبرية خلال ساعات فقط .

وتحرك الجيش الصليبي ، وهو مؤلف من ثلاثة أقسام ، فقد سار في المقدمة ريموند الثالث لعلو مرتبته ، ولان الارض كانت تابعة له ، وبقي الملك غوي في القلب ، وسار الفرسان في الساقة ، وعندما عرف صلاح الدين بخبر تحرك الجيش الصليبي سر سرورا كبيرا ، لان خطته قد نجحت حتى الان ، فترك طبرية ، وعاد الى مقر قيادته ليشرف بنفسه على العمليات ، وكان جيش الفرنجة حين ترك صفورية ، قد أخذ الطريق المؤدي الى طبرية ، لكن هذا الجيش مالبث أن أخذ يتعرض لهجمات صاعقة من كمائن قوات صلاح الدين ، وكانت مؤخرة الجيش اكثر الاقسام تعرضا وتأثرا ، وكان يوم الثالث من تموز ١١٨٧م شديد الحرارة وقد حالت قوات صلاح الدين بين الصليبيين وبين الحصول على الماء ، وفي منتصف الطريق الى طبرية عرف الملك ان جيشه الذي أجبر على أخذ المسالك الوعرة ، قد أصيب بالانهاك ، وأن مؤخرته أصبحت عاجزة عن متابعة التحرك ، وهنا قرر الانحراف الى احدى القرى القريبة للحصول على الماء ، وزاد هذا العمل الجديد جيشه ارتباكا وفوضى ، كما ازدادت هجمات القوات المسلمة عليه ضراوة وشراسة ، فاضطر الى ضرب مخيمه حيث كان في منطقة تعرف بلوبية ، وهي منطقة جرداء لاماء فيها ولاشجر ، وأحدق فرسان صلاح الدين

بمعسكر الصليبيين ، وأخذوا ينقضون عليه من كل جانب ، وعاش الصليبيون ليلة كلها هول ، فاشرفت معنوياتهم على الانهيار .

وكانت الحال في معسكر صلاح الدين على نقيض معسكر الصليبيين فالمعنويات كانت مرتفعة ، والنفوس باتت واثقة من النصر المؤزر وقد سهر صلاح الدين ليلته يشرف على توزيع قواته ، ويقوم بالاعدادات الاخيرة لليوم التالي ، وأمر في ليلته بتوزيع كميات وافية من النبال على فرسانه .

ومع صباح يوم السبت الرابع من تموز جاء الجيشان وجها لوجه ، وكان كلاهما يدرك أن قدر مملكة القدس الصليبية ، وبالتالي الوجود الصليبي بأسره في المشرق معلق على نتيجة الصراع ، وكان الجند المسلم قد نال قسطا كبيرا من الراحة ، بينما عض العطش والتعب والهلع الجند الصليبي ، ومع هذا لم يلق الصليبيون السلاح وأرادوا انقاذ الموقف بتسديد ضربة قاسية الى صفوف قوات صلاح الدين لخرقها ، والوصول الى مياه طبرية مهما بلغت التكاليف ، وادرك صلاح الدين غايات القوم ، وعرف خطتهم ، فعمل على الحيلولة بينهم وبين النجاح .

وحسب المصادر اللاتينية المعاصرة رتب الصليبيون أنفسهم بأن قسموا قواتهم الى عدد من الصفوف بحيث وضعت كتائب الرجالة في المقدمة لحماية الفرسان وللتمهيد برماياتها الطريق لهم لانجاز عملية الخرق والوصول الى مياه طبرية ، ووقف ملك القدس في الوسط، وكان بصحبته الاساقفة ، وزمرة من النبلاء من خيرة الفرسان .

وكان من المفترض أن يقوم الفرسان عقب الرمايات التمهيدية بالاندفاع مسلطين رماحهم الى الامام ، وأن يلحق بهم الرجالة لحمايتهم ، وبالفعل اندفع الفرسان فتصدى لهم فرسان المسلمين ، وقاوموهم بضراوة ، ثم تظاهروا بالعجز والانهزام ، فلحق بهم الفرسان ، وهنا ابتعدوا عن المشاة ، وقامت في هذه اللحظة كمائن المسلمين المتمركزة على الجوانب بالانقضاض على المشاة فاضطروا الى التكتل ، واتخاذ مواقف الدفاع ، بأن تخلوا عن مواقعهم وانسحبوا الى ظهر تل هناك عرف بتل حطين له قمتان - عرفتا بقرني حطين - وهنا أرسل الملك وحاشيته خلفهم ، وطلبوا منهم التراجع ، فأبوا الاستجابة قائلين : (لانستطيع لاننا نموت عطشا ، ولانستطيع القتال) .

وهكذا غدت خيول فرسان الصليبيين بلا حماية ،وشدد المسلمون هجماتهم على هؤلاء الفرسان ،وأمطروهم بوابل من النبال ،فاستنجد الفرسان بالملك ، وأخبروه أنه لم يعد بامكانهم متابعة القتال، ولم يستطع الملك انجاد الفرسان ، كما أنه وجد نفسه مع اتباعه قد حاق بهم العجز وحل بهم الفشل ، وحالت الرمايات المكثفة بينهم وبين التحرك ، ولهذا وجد الملك أن أفضل الحلول هو أن يأمر بضرب الخيم ،حيث كان على مقربة من المشاة آملا في القدرة على متابعة الدفاع ، وزاد هذا القرار الفوضى داخل صفوف الفرنجة ، كما أكد عملية الفصل بين الفرسان والرجالة ، وعندما رأى ريموند ما آل اليه الحال دبر أمر نجاته من الطوق المضروب حوله ، وتغاضى المسلمون عنه ، كما يفقد الفرنجة خير رجالاتهم تجربة وحنكة ،

ثم ليكون موضع اتهام في المستقبل ، وفي اثناء هذا كله آخذ بعض الفرسان يعود الى حيث وقف الملك ، ونظرا لصعوبة الاتصال، واتساع رقعة مسرح العمليات ، لم يكن لدى صلاح الدين صورة واضحة عما آل اليه الامر ، لكن ذلك تيسر عندما جلب اليه جنده عددا من الاسرى ، تم جمع المعلومات منهم ، وفي ضوء ذلك تحرك صلاح الدين ، وحرك قواته فتمكن اولا من ابادة المشاة ، وسحق الجزء الاكبر من الفرسان ، ثم عمل - وهو ممسك بزمام السيطرة على قواته - على حسم المعركة .

وفي هذا الوقت كانت مجموعة كبيرة من الصليبيين قد تجمعت حول الملك ، واتخذ الجميع موقف الدفاع عن أحد قرني حطين ، وادرك صلاح الدين ان المعركة ستنتهي بتصفية هذه المجموعة ، فقاد الهجوم عليها بنفسه ، وبدأ بطرح النار في الاعشاب التي كانت موجودة في اتجاه الريح ، فغطى الدخان تحرك قواته ، كما زادت النيران من سوء احوال الصليبيين وشدة عطشهم .

ويصف الملك الافضل بن صلاح الدين نهاية المعركة بقوله :
(كنت الى جانب ابي في ذلك المصاف ، وهو أول مصاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنجة على التل في تلك الجماعة ، حملوا حملة منكرة على من هم بازائهم من المسلمين ، حتى الحقوا بوالدي ، قال : فنظرت اليه ، وقد علته كآبة ، واربد لونه ، وأمسك بلحيته ، وتقدم وهو يصيح ، كذب الشيطان ،قال : فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا فصعدوا الى التل ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا ،والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي : هزمناهم ، فعاد الفرنج ، فحملوا حملة

ثانية مثل الاولى ، ألحقوا المسلمين بوالدي ، وفعل مثلما فعل أولاً ، وعطف المسلمون عليهم ، فالحقوهم بالتل ، فصحت انا ايضا: هزمناهم ، فالتفت الي والدي وقال : ماتهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة ، قال : فهو يقول لي ، واذا بالخيمة سقطت ، فنزل السلطان ، وسجد شكرا لله تعالى ، فبكى من فرحه ، وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشا ، وقد كانوا يرجون الخلاص في تلك الحملات مما هم فيه ، فلم يجدوا الى الخلاص طريقا ، فنزلوا من دوابهم ، وجلسوا على الارض فصعد المسلمون اليهم ، فألقوا خيمة الملك وأسروهم عن بكرة ابيهم ، وفيهم الملك وأخوه ، والامير ارناط ، صاحب الكرك ، ولم يكن في الفرنجة أشد منه عدوانا لنا ، وكثر القتل والاسر فيهم ،فكان من يرى القتلى لايظن أنهم أسروا واحدا ومن يرى الاسرى لايظن أنهم قتلوا أحد وما اصيب الفرنج منذ خرجوا الى الساحل ، وهو سنة احدى وتسعين واربعمائة. الى الان بمثل هذه الوقعة) .

ان حطين واحدة من معارك التاريخ الفاصلة ، حطمت فيها المؤسسة العسكرية الصليبية ، وقام صلاح الدين بعد ذلك بقليل بتحرير القدس حيث جلب الى المسجد الاقصى منبر نور الدين،فالقيت عليه خطبة التحرير ، وبات الان أمر وجود الصليبيين في المشرق قضية زمن لا اكثر وإن من يستعرض اخبار الفترة التاريخية ، مرحلة دمشق بقيادة نور الدين ثم صلاح الدين يجد أمة تتحرك كجسد واحد بلا تناقضات كبيرة ، ولا أمراض مستعصية وكان بودي أن استعرض هنا بعض النماذج الشاهدة ، لكن ذلك يحتاج الى مكان آرحب .

عاش صلاح الدين مدة سنوات بعد حطين وتحرير القدس واجه خلالها مشاكل صعبة للغاية حتى على الصعيد العسكري ، انما ذلك كان عديم التأثير ، فلقد حكم نصر حطين على الوجود الصليبي في المشرق بالزوال ، وما كان لقوة أن تغير ذلك الحكم ، كل ماحدث محاولات لتأخير حركة التنفيذ لكن بشكل يائس .

ولقد ترعرعت الروح الجديدة التي حملت من الشام الى مصر ، فجعلت بعد فترة وجيزة من الزمن القاهرة عاصمة لديار العرب ، ومركزا لقواهم وثقافتهم وحضارتهم ، وبعد وفاة صلاح الدين صارت القاهرة مقر السلطنة الايوبية ، ومن القاهرة قاد خلفاء صلاح الدين من الايوبيين اولا ثم من المماليك ، قادوا أمة العرب نحو تصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام ، ونحو تسبيب الاخفاق لجميع محاولات اوربة في احتلال اي جزء من بلاد العرب ، كما ان القاهرة حمت الوطن العربي في مشرقه ومغربه وصانته عندما تعرض هذا الوطن للغزو المغولي ، فهزمت المغول في معركة عين جالوت وأجبرتهم على الجلاء عن ارض الشام .

وفي دمشق وحلب والموصل والقاهرة طور العرب زمن الحروب الصليبية فنونهم الحربية ، وصناعات الاسلحة ، واخترعوا الكثير من الاسلحة الجديدة ، وتحفل المكتبة العربية بالكثير من المؤلفات عن السلاح وفن الحرب ، كلها تعود الى هذه الفترة .

وبعدما طرد الصليبيون من المشرق ، وزال خطر المغول بدأت قوة العرب وحضارتهم بالتدهور السريع والجمود ، بينما بعثت في

اوربة التي خسرت الحروب الصليبية حضارة سببت لها القوة وقادتها من جديد نحو ديار العروبة والاسلام .

ويتساءل الباحث عن أسباب انحطاط العرب مع انهم حازوا النصر ، وبعث اوربة مع انها كانت المهزومة ؟ ولعل من اسباب ذلك أن اوربة الاقطاعية الشديدة التمسك بالكاثوليكية حين خسرت الحرب كانت تلك الخسارة ضربة مميته للنظام الاقطاعي والكنيسة معا في اوربة ، وفي المقابل نجد ان الحروب الصليبية التي طال أمدها قد مكنت في البداية القادة العسكريين في الشرق المسلم من تسلم زمام الامور وساعدت على التعصب الديني ، وخلقت الى جانب الاقطاع العسكري اقطاعا دينيا كان جديدا كل الجدة في تاريخ الاسلام ، ومع الايام زادت صلاحيات الجند على حساب المؤسسات الدينية ،وترسخت قواعد انظمة للكهنوت الاقطاعي في الاسلام ، وعندما توقفت الحرب أصبح الجند عالة على الامة ، ثم أن الشعور بالنصر والسلم والامان بعد عهود طويلة من الحروب والدمار ، مع زوال عوامل التحدي دفع العرب نحو الاخلاد الى الراحة والسكينة والى قبول نوع جديد من التمزق السياسي ، وحيث ان الامة قد وجهت ايام الحروب معظم طاقاتها ، ورصدت امكاناتها المادية والعقلية كافة للمعركة ، فقد عطل هذا مع الايام الكثير من جوانب الحياة الثقافية ، والحضارية ،وولد مع الاقطاع الديني والعسكري التعصب والتزمت والاحتكار .

ان اهمال الحضارة والثقافة والتعصب الاعمى كان ومازال آفة العرب الكبرى ، ومعلوم ان العرب لم يتمكنوا قط من صنع

حضارة وثقافة وهم ممزقون ، لكنهم كانوا كلما اتحدوا وتسامحوا بعقل ومنطق صنعوا كل شيء ، ففي الوحدة الهادفة الواعية كمن – ولايزال يكمن – سر نهوض العرب وقوة المسلمين .

بعض المصادر الرئيسية :

١- الكامل في التاريخ لابن الاثير

٢- التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية - له

٣- تاريخ دولة آل سلجوق - للعماد الاصفهاني

٤- الفتح القسي في الفتح القدسي - له

٥- تاريخ ابن ابي الدم - نسخة خطية خاصة

٦- مرآة الزمان - لسبط ابن الجوزي

٧- زبدة الحلب في تاريخ حلب - لابن العديم

٨- بغية الطلب في تاريخ حلب . له - نسخة خطية خاصة

٩- الروضتين في اخبار الدولتين - لابي شامة

١٠- تاريخ العظيمي - نسخة خطية خاصة

١١- أعمال الفرنجة لكاتب فرنجي رافق الحملة الاولى - ترجمة عربية .

١٢- تاريخ الاعمال المنجزة ماوراء البحار - لوليم الصوري - ترجمة انكليزية .

١٣- تاريخ ابن ابي الهيجاء - نسخة خطية خاصة

١٤- الحركة الصليبية - د. عبد الفتاح عاشور

١٥- تاريخ فيلادلفيا للحروب الصليبية .

الفصل الثالث

الدول : الزنكية والبورية والايوبية

مقدمة : أوضاع المشرق العربي الاسلامي قبل قيام الدولة الزنكية :

كانت اراضي الخلافة العربية الاسلامية في نهاية القرن الخامس ومطلع القرن السادس الهجريين / الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين تخضع لقوى متعددة متنافرة وقع بينها الخلاف ، وعملت كل منها على التوسع على حساب الاخرى . وكان على رأس هذه القوى :

١- السلاجقة :

تعد دولة السلاجقة من أهم الدول التي ظهرت على مسرح التاريخ العربي الاسلامي ، وقد لعبت دورا هاما في توجيه سير الاحداث في المنطقة ،وقد توسعت سلطتها تدريجيا حتى شملت أغلب مناطق الخلافة العباسية الشرقية ،وسيطروا على الخلافة العباسية ،وأصبحوا سلاطين بغداد. ونهضوا في عهد سلاطينهم طغرل بك وآلب آرسلان وملك شاه بحماية اراضي الخلافة العربية الاسلامية ،لابل وضع طغرل بك نصب عينيه منذ اعلان السلطنة،تحقيق هدفين على جانب كبير من الاهمية (١) :

---

١) من آجل السلاجقة وتأسيس دولتهم انظر الراوندي : راحة الصدر واية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية ،ترجمة ابراهيم الشواربي وعبد النعيم حسنين ،وفؤاد الصياد ، القاهرة ١٩٦٠ - عماد الدين الاصبهاني : تاريخ دولة آل سلجوق ، طبعة بيروت ١٩٧١ -
ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، طبعة دار صادر بيروت ١٩٦٦م
البيهقي : تاريخه : ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت ،القاهرة
عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ م

١- اولهما الوصول الى حدود بيزنطة ،والعمل على القضاء عليها •

٢- وثانيهما العمل على توحيد العالم العربي الاسلامي تحت سلطة خلافة واحدة هي الخلافة العباسية ،وبالتالي العمل على القضاء على الخلافة الفاطمية •

وفي سبيل تحقيق الهدف الاول تمكنوا من الوقوف في وجه البيزنطيين وتوسعوا غربا على حسابهم • وتوج آلب ازسلان نضاله مع البيزنطيين بمعركة منازكرد (١)•

تلك المعركة التي كانت اثارها كبيرة على الصعيد المحلي والدولي فعلى صعيد المنطقة فتحت هذه المعركة ابواب اسيا الصغرى أمام السلاجقة ،ودحرت القوات البيزنطية باتجاه الغرب ،وأعطت فرصة للسلاجقة لتأسيس دولة سلاجقة الروم• وعلى الصعيد الاخر، فان هذه المعركة كانت سببا من اسباب توحيد اوربا الشرقية والغربية ضد المشرق العربي الاسلامي ، اثر استنجاد اباطرة القسطنطينية بالبابوية لرد خطر السلاجقة الذين أخذوا في اجتياح ممتلكاتهم •

لم تستمر قوة السلاجقة في الصعود ، بل اخذت قوتهم بالانحلال اثر وفاة ملك شاه سنة ٤٨٥ هـ /١٠٩٢ - ١٠٩٣ م،وانقسموا على انفسهم ووقعت الحروب بينهم • وقد تجلى ذلك بوضوح في الصراع الحاد على العرش بين ابناء ملك شاه واخيه تتش صاحب دمشق (٢)•

---

(١) عن منازكرد، انظر: ابن الاثير: الكامل في التاريخ دار صادر للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٦م جزء ١٠ ص ٦٥ - ٦٨

(٢) حول هذا الصراع انظر ابن الاثير :المصدرالسابق ج ١٠ ص ٢٢٠- ٢٢٢
- ابن العديم: زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان دمشق ١٩٥٤م ،جزء ٢ ، ص ١٢٣
- ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر،طبعة الاعلمي ، بيروت ١٩٧١ م ،جزء ٥ ص ١١

وأسفر النزاع الذي دام مايزيد على سنتين عن انتصار بركياروق بن ملك شاه وتسلمه لعرش السلطنة السلجوقية (١).

واذا كان النزاع على العرش بين السلاجقة قد انتهى ، فان اثاره لم تنته . فقد ذهبت وحدة السلاجقة وتماسكهم ، وأصبحوا شيعا واحزابا ومعسكرات متباينة تتصارع فيما بينها ، وانقسمت دولتهم الى خمس ممالك متنازعة ، مملكة سلاجقة خراسان وماوراء النهر وعلى رأسها سنجر ، ومملكة سلاجقة فارس وعلى رأسها بركياروق ، ومملكة سلاجقة الروم وعلى رأسها قلج ارسلان بن سليمان بن قتلمش ، ومملكة سلاجقة حلب وعلى رأسها رضوان بن تتش ، ومملكة سلاجقة دمشق وعلى رأسها دقاق بن تتش (٢)

وفقد السلاجقة بذلك حماسهم المتدفق للتوسع الخارجي ومحاولة بسط نفوذهم على اقاليم جديدة ، وصار بأسهم بينهم شديدا ، فبدأوا يتناحرون ، وأصبح الظفر بالعرش هدفا في ذاته ، وقلدهم وزراؤهم وقوادهم ، فتنافسوا وتناحروا للظفر بالوزارة او القيادة ، وأخذت السلطنة السلجوقية تضعف منذ ذلك الحين ، وأخذ نجمها يفقد بريقه حتى افل في النهاية (٣) . وقد استغلت القوى المحيطة تحطيم قوة البيت السلجوقي بانقسامه على نفسه لصالحها ، فعمل الخليفة العباسي في بغداد على تحرير نفسه

١- ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٢١٤
- الراوندي : المصدر السابق ، ص ١٤٢ - ١٤٣
٢- ابن الاثير المصدر السابق جزء ١٠ ص ٢٦٥ - و ص ٢٦٧- ٢٦٩
- سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، مكتبة الانجلو المصرية ،ط ٢ ١٩٧١ ، جزء ١ ، ص ١١٣ - ١١٤
٣- عبدالنعيم حسنين : المرجع السابق ،ص ٩٠

من سيطرة السلاجقة ، كما استقلت قبيلة بني مزيد العربية عنهم ، وأسست امارة بني مزيد في الحلة (١) .

وأخذت قوة السلاجقة في الشام تنحسر سريعا للخلاف بين ولدي تتش ، رضوان صاحب حلب ٤٨٨ – ٥٠٧ هـ/ ١٠٩٥ – ١١١٣م ،ودقاق صاحب دمشق (٤٨٨ – ٥٠٨ هـ / ١٠٩٥ – ١١١٤ م)

ولعل اكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة في بلاد الشام والعراق وغيرها ، ظهور عدد من البيوت الحاكمة لاتجمعها رابطة الا الاتصال بالبيت السلجوقي ، ومن تلك البيوت ظهرت وحدات سياسية اطلق عليها اسم الاتابكيات ، وعلى اصحابها اسم الاتابكة .

– والاتابك لفظ تركي مركب يتألف من اتا أي الاب المربي وبك أي الامير ، ومعنى ذلك انه مربي الامير او الملك . فكان آل سلجوق اذا امتاز أحد قادتهم ، وأرادوا تشريفه اضفوا عليه هذا اللقب امعانا في تكريمه (٢).

وبعض هذه الواحدات صغير جدا لايتعدى أسوار مدينة او قلعة واحدة . وقد تعاظم دور الاتابكة لانهم عدة كل سلطان او مدع للسلطة وأساس قوته في صراعه مع الاخرين . فلم يلبثوا ان عملوا لمصلحتهم الخاصة تحت ستار الحفاظ على مصلحة الامير السلجوقي

---

(١) قامت دولة بني مزيد الشيعية على الضفة الغربية لنهر الفرات من هيث الى الكوفة وواسط ،وصارت هذه الامارة خطرا هدد السلاجقة ، وحال دون استمرار سيطرتهم في مناطق واسعة بين العراق .

انظر : بيطارة موقف امراء العرب في الشام والعراق من الفاطميين حتى اواخر القرن الخامس الهجري ، ط دار دمشق ١٩٨٠م ص ٣٥٧ ومابعدها .

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشاء ،الطبعة الاميرية جزء ٤ ، ص ١٨

الذي يربونه والدفاع عن حقوقه في حكم بلد او سلطنة . وعندما يتحقق لهم ذلك يمارسون الحكم الفعلي باسمه ، ثم يحلون محله رسميا ، ويورثون الحكم لابنائهم . ومن أظهر تلك الاتابكيات . آتابكية دمشق ومؤسسها ظهير الدين طغتكين والتي استمرت من سنة ٤٩٨ – ٥٤٩ هـ / ١١٠٤ – ١١٥٤ م ، واتابكية الموصل بزعامة عماد الدين زنكي ، (٥٢١ –٦٦١ هـ / ١١٢٧ – ١٢٦٢ م) وقد امتد نفوذ هذه الاتابكية من شمال العراق الى شمال الشام (١)

٢– الخلافة العباسية :

وكان خلفاؤها قد قبعوا في مدينة بغداد ، ورضوا من الحكم بالاسم بعد ان خرجت عن سلطتهم غالبية آراضي الخلافة العربية الاسلامية ، ولم يعد يتبع لهم الا بغداد ومايحيط بها ، والامر والقول الفصل حتى في هذه البقعة للسلاجقة سلاطين بغداد .

٣– الخلافة الفاطمية :

كان للفاطميين آثر كبير في احداث المنطقة في تلك الفترة ، لتنازعها مع الخلافة العباسية على زعامة العالم العربي الاسلامي. ولكن قوة الفاطميين أخذت بالانحسار تدريجيا عن بلاد الشام بفضل جهود السلاجقة ،حيث تمكن قائدهم إتسز التركماني من تحريرها حتى مدينة دمشق في ذي القعدة سنة ٤٦٨ هـ حزيران ١٠٧٦م(٢)

(١) انظر فيما بعد .

(٢) انظر ابن الاثير: المصدر السابق ،جزء ١٠ ص ٩٩ – ١٠٠ المقريزي : اتعاظ الحنفا ،طبعة المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ١٩٦٧ م جزء ٢ ، ص ٣١٥
– عاشور : المرجع السابق ، جزء ١ ،ص ١١٦ – ١١٧

وقد تطلع اتسز الى فتح مصر كلها ، ووصل الى اطرافها ولكنه فشل في تحقيق اهدافه [1] .

وتتالت خسائر الفاطميين في الشام لاملاكهم ، حتى لم يبق لهم بها الا المناطق الساحلية من جبيل حتى الجنوب [2].

وقد كان سبب ذلك وصول الفاطميين الى مرحلة الضعف بسبب عوامل متعددة لاداعي لذكرها [3]

٤ - الاوضاع العامة في آسية الصغرى :

والى جانب القوى العربية الاسلامية هذه ، فقد كانت هناك منطقة آسية الصغرى التي كان يحسب حسابها ، لقد كانت هذه المنطقة بكاملها قبل القرن الخامس الهجري من املاك الامبراطورية البيزنطية ، وكانت مناطق الحدود ساحة قتال دائمة بين العرب المسلمين والبيزنطيين ، حتى كان عهد السلاجقة وانتصار ألب آرسلان السلجوقي على الامبراطور البيزنطي رومانوس ديوجينوس في معركة منازكرد سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م وأخذ السلاجقة بالاستيلاء على آسية الصغرى ،

---

(١) بيطار : المرجع السابق ، ص ١٥٠ و ص ١٦٢

(٢) عاشور : المرجع السابق ،جزء ١ ، ص ١١٦ - ١١٧

(٣) من أجل عوامل ضعف الفاطميين انظر : المقريزي : اغاثة الامة بكشف الغمة ، نشر زيادة والشيال ، طبعة ثانية ١٩٥٧م ص ٢٤ ومابعدها وص ٢٨ - اتعاظ الحنفا ،جزء ٢ ،ص ٣٣٢

راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية زمن الفاطميين ، طبعة اولى - القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٨٥ ومابعدها .

حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ،ط ٣ مكتبة النهضة المصرية ،ص ٣٥٤ - ٣٧١

وأصبحوا يحدقون بالقسطنطينية عاصمة البيزنطيين . ولم يبق للامبراطورية البيزنطية اثر قيام الحروب الصليبية سوى سواحل البحر الاسود والمضائق وبعض المدن الداخلية المتناثرة التي انقطعت صلتها بالحكومة المركزية .

ولم يوحد السلاجقة هذه المناطق التي تبعت لهم في آسية الصغرى ، اذ خضعت بعض المدن لامراء اعترف بعضهم بالسلطان السلجوقي في آسية الصغرى ، على حين أعلنت الاغلبية الولاء للسلطان ملك شاه السلجوقي في بغداد . وبعد وفاته بدت امارة سلاجقة الروم اكثر انفصالا عن دولة سلاجقة المشرق .

والى جانب سلاجقة الروم البيزنطيين في آسية الصغرى ، أقام الارمن امارات عديدة ، أهمها امارة روبين في قليقية الوسطى، وامارة اوشين في قليقية العربية ، وامارة فيلاريت التي امتدت من جبال طوروس الى ماوراء النهر (١) .

٥ – بلاد الشام :

عاشت بلاد الشام اثر دخول دولة السلاجقة مرحلة الضعف والتجزئة ، فترة مظلمة من حياتها . وأصبحت موزعة بين قوى متعددة . ومما زاد التمزق أن السلاجقة حتى في ايام قوتهم لم يحكموا اكثر بلاد الشام حكما مباشرا ، بل قبلوا بوجود أسر محلية قدمت لهم الولاء . فقد تركوا حكم حلب في بداية الامر الى بني مرداس (٢) .

---

(١) البازالعريني : مصر في عصر الايوبيين ، مطبعة الكيلاني الصغير ١٩٦٠ م ص ٧ – ٨

(٢) انظر بيطار: المرجع السابق ،ص ٢٤٧ – و ص ٢٨٦ ومابعدها .

وكانت طرابلس في يد بني عمار ، وحكم شيزر في يد بني منقذ ، وصور في يد بني عقيل ،وحمص في يد ابن ملاعب ، وبيت المقدس وشمال الشام في يد الاراتقه . وكان ولاة السلاجقة أو مقطعوهم في بلاد الشام ، وحكام المناطق المستقلة فيها على خلاف فيما بينهم الى حد الاقتتال(١).

وقد توحدت غالبية بلاد الشام تحت حكم تاج الدولة تتش لسنوات قليلة ، توفي بعدها تتش ليعود الصراع بين ولديه اللذين خلفاه في حكم حلب ودمشق ، اذ أراد كل منهما أن يستأثر بملك أبيه وجده ، وعمل على ضم الانصار اليه لقتال أخيه ، فتحالف رضوان مع قبيلة كلاب العربية ومع صاحب مدينة سروج سكمان الارتقي، وتحالف دقاق مع الغازي الارتقي وصاحب انطاكية الذي مالبث ان تحول الى جانب رضوان . وجرت الاستعدادات لمهاجمة دمشق ، وبينما الحال على ذلك جاءت الانباء بقدوم الصليبيين ، فتفرق المتنازعون ،وتوجه كل منهم الى امارته لحمايتها من الصليبيين (٢).

كان تتش قد اقطع فلسطين لقائده التركماني ارتق الذي خلفه سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩٩ م ولداه سقمان وايل غازي (٣)

وقد استغل الفاطميون انشغال السلاجقة بالغزو الصليبي ، فخرج من مصر جيش فاطمي تحت قيادة الوزير الافضل بن بدر الجمالي .

(١) ابوالمحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب ، جزء ٥ ص ٨٧

(٢) الباز العريني : المرجع السابق ، ص ٥ – ٦

(٣) عن الاراتقة : انظر ابن الاثير : المصدر السابق ،ج ١٠ ص٣٨٢–٢٨٣ ابن شداد : الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، وزارة الثقافة ١٩٧٨م ،تحقيق عبارة ،ج ٣ قسم٢ ص ٢٤٨ ، ابو المحاسن: المصدر السابق جزء ٥ ،ص ٢٠١

للاستيلاء على بيت المقدس . فاضطر الارتقة حكامه للانسحاب في شوال سنة ٤٩١هـ/ آب ١٠٩٨م[1] ،ولم تلبث بقية فلسطين ان سقطت بعد ذلك في ايدي الفاطميين . ولم يكتف الفاطميون بذلك ،بل ارادوا استغلال الاوضاع الى حد اكبر وعملوا على مد نفوذهم الى حلب، فارسلوا الى رضوان ملك حلب يدعونه الى الطاعة واقامة الدعوة مقابل مده بالمساعدة ضد خصومه . فاستجاب رضوان لذلك بضعة اسابيع . وتقدم بالدعوة للفاطميين على سائر منابر الشام التي في يده ، ثم اعاد الدعوة للخليفة المستظهر العباسي (٢) .

الدولة الزنكية :

ساعد الجو العام في مشرق العالم العربي الاسلامي الصليبيين الذين جاؤوا في الحملة الصليبية الاولى على تأسيس اربع امارات لهم وهي بالتتابع امارة الرهاء ،وامارة انطاكيه،وامارة بيت المقدس ،وامارة طرابلس ،ومما ساعدهم على تحقيق اهدافهم ،ان اهتمام السلاجقة في نهاية القرن الخامس الهجري كان منصبا على استعادة قواعدهم الاساسية في ايران والعراق . وكان الشغل الشاغل لخلفاء العباسيين استعادة سلطتهم في عقر دارهم ،وسلموا امر قتال الصليبيين الى الامارات الناشئة في اطراف الشام ،وعلى رأسها

(١)- كان بيت المقدس تابعا للفاطميين حتى استعاده اتسز التركماني باسم السلطان ألب رسلان سنة ٤٦٣هـ/١٠٧١م، انظر ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ،طبعة الآباء اليسوعيين ١٩٠٨م،ص ١٣٥- المقريزي اتعاظ الحنفا ،جزء ٣ ،ص ٢٢ .

(٢)- عاشور : المرجع السابق ،جزء ١ ،ص ١١٦ - ١١٧ .

امارات الموصل التي اضحت قاعدة المواجهة الرئيسة ،وخط الدفاع الاول . وقد تعاونت احيانا مع الامارات الاخرى الناشئة في بلاد الشام وكان هذا التعاون بدافع من الحفاظ على املاكهم المعرضة للخطر الصليبي . واذا ماشعروا بأن الخطر على ممتلكاتهم اصبح من قبل امارة اسلامية أخرى ،فانهم لايترددون عن الاستعانة بالصليبيين ضد اخوانهم ،حتى كان عهد الامارة الزنكية التي حملت على كاهلها عبء توحيد القوى المواجهة للصليبيين بشكل تام ،والوقوف بصلابة وحزم امامهم .

تأسيس الدولة الزنكية

١- حكم آق سنقر

كان آق سنقر جد نور الدين محمود زنكي أول من ظهر على الساحة السياسية من افراد هذه الاسرة التي تنتسب الى قبائل الساب يو التركمانية . وقد بدأ حياته مملوكا ورفيقا لطفولة السلطان السلجوقي ملك شاه وشبابه . ولما اعتلى الاخير عرش السلطنة ، جعله من المقربين ، وقيل اعطاه حجابته (١) واطلق عليه لقب قسيم الدولة (٢) .

---

(١) ابن خلكان: وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر بيروت ١٩٧٨ م جزء ١ ، ص ٢٤٢

(٢) ابو شامه : تاريخ الروضتين في اخبار الدولتين، دار الجيل ، بيروت ، جزء ١ ،ص ٢٤

أبدى آق سنقر لملك شاه انه أهل لهذه الثقة الممنوحة لـه ، فساعده في القضاء على دولة العقيليين في الموصل وحلب ، وكانت مكافأته ولاية حلب (١)، في سنة ٤٧٨ هـ /١٠٨٥ - ١٠٨٦ م (٢).

حكم آق سنقر حلب مايقارب سبع سنوات أحسن فيها السياسة والسيرة ،وأقام الهيبة ، وجمع الزعار ، وأفنى قطاع الطرق ومخيفي السبل ، وطلبهم من كل فج ، وعاقبهم بما يستحقون ، وتتبع اللصوص والحرامية في كل موضع ، فاستأصل شافتهم ،وكتب الى الاطراف ان يفعلوا مثل فعله . وأحيى أحكام الاسلام، وعمر الاطراف وكثرت في ايامه الامطار وتفجرت العيون والانهار ، ونشطت الاحوال الاقتصادية تبعا لذلك ، فنشطت التجارة ، وورد الى حلب التجار والجلابون من جميع الجهات ، فرخصت الاسعار (٣)

كان آق سنقر اول حاكم سلجوقي لحلب ، وكان حكامها قبله من العرب ، أشرف بذاته على أمور الحكم ، وتدخل في كل قضية صغيرة كانت أم كبيرة ، وطبق مبدأ العقوبة الجماعية ، من ذلك أنه شرط على أهل كل قرية في بلاده غرامة كل مايؤخذ في قريتهم قليلا كان او كثيرا . فأمنت الطرق ، وتحدثت الركبان بحسن سيرته ، حتى أنه حين علم بأن بنات آوى تأخذ الجلد الذي على النير ،

(١) ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٤ - ٢٥

(٢) ابن خلكان : المرجع السابق ، جـزء ١ ص ٢٤١

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ١١٩- ابن الاثير: المصدر السابق جزء١٠، ص ١٥٠ .

ابن العديم: المصدر السابق ،جزء ٢ ،ص ١٠٢- ١٠٣، ابن واصل: مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ،مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣م جزء ١ ، ص ١٩

آمر الصيادين بتتبع بنات آوى ، فتتبعوها في بلد حلب وصادوها جتى أفنوها (١).

كما تقرب من سكان حلب الذين كان آكثرهم شيعة اثنى عشرية ، ببناء المشاهد الجديدة مع ترميم بعض المشاهد القديمة رغم انه كان سنيا ، لانه وضع مقتضيات السياسة فوق كل اعتبار ، كما عمر منارة جامع حلب ، وقرب اليه المتدينين واعتمد عليهم دون غيرهم ، فخلق بذلك طبقة جديدة في المجتمع هي طبقة رجال الدين المحترفين التي أصبح لها مكانها ونفوذها وسياستها ومصالحها ، مما آضر بالفئات الاخرى التي كانت تحيط بالحكام فيما سبق .

استطاع آق سنقر نتيجة لحسن سيرته مع الرعية في حلب أن يوطد حكمه فيها ويتخذها قاعدة لتوسيع حدود سلطان السلاجقة ، فضم اليه حمص وأفامية ، وحصل على اعتراف آل منقذ أصحاب شيزر بسيادة السلطان السلجوقي على املاكهم . ومالبث آق سنقر ان ذهب ضحية للنزاع بين افراد الاسرة السلجوقية في جمادى الاولى ٤٨٧ هـ / مايس ١٠٩٤ م (٢) فحفظ بركياروق بن ملك شاه الذي تولى عرش السلطنة بعد أبيه اليد البيضاء التي كانت لاق سنقر ، ومساعدته له في الوصول الى العرش في ابنه عماد الدين زنكي الذي كان مايزال صبيا في العاشرة من عمره حين قتل أبوه ، فضم اليه مماليك أبيه وجعله في حاشية والي الموصل (٣)

(١) ابن العديم : المصدر السابق ،جزء ٢ ص ١٠٤ – ١٠٥

(٢) ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٥ – ٢٦ ، ابن الاثير: المصدر السابق جزء ١٠ ، ص ١٤٨ – ١٥٠ و ص ٢٣٣ ، ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٤١

(٣) ابو شامه : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٧

٢- اوضاع حلب قبل تأسيس الامارة الزنكية :

اضطربت اوضاع حلب بعد مقتل آق سنقر ، وذلك في اثناء حكم تتش لها ، وكذلك في عهد خلفائه . وتعرضت لهجمات الصليبيين الذين استقروا في الساحل ، حتى اتفق رأي الحلبيين على استدعاء ايل غازي بن ارتق لحكمها .

كان ارتق الذي ينتسب اليه الاراتقة من مماليك السلطان ملك شاه [١] . وقد قدم له خدمات عسكرية جليلة ، كما تولى مناصب ادارية متعددة . ومالبث أن توجه الى الشام وانضم الى تتش . فتقلبت به الاحوال معه الى ان أقطعه تتش القدس سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ - ١٠٨٧ م للاعتماد على مقدرته العسكرية [٢].

توفي ارتق في القدس في سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ - ١٠٩٢ م . مخلفا اياها لولديه سقمان وايل غازي حتى استعادها منهما الفاطميون [٣]

ويمكن عد ارتق واضع الكيان السياسي للاراتقة . فقد تمكن ابناؤه الذين بقوا في القدس فترة بعد وفاته ان يؤسسوا امارتين في ديار بكر ، كما لعبوا دورا أساسيا في الصراع الذي شهدته

---

(١) ابن خلدون : المصدر السابق ،جزء ٥ ،ص ٤٦١ - ابن حجر العسقلاني الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة ، دائرة المعارف العثمانية حيدر اباد الهند ١٣٤٩ هـ ،جزء ٢ ، ص ٩٦ .

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ،ص ١٤٧

(٣) انظر فيما سبق .

بلاد الشام . ولمقدرتهم قرر اهالي حلب استدعاء ايل غازي اثر تردي اوضاعها سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ - ١١١٨م فتولى مقاليد الامور فيها وفرض سيطرته على المواقع التابعة لها كبالس والقليعة ، وجمع الاموال اللازمة للدفاع عنها من الاهالي ، ووقف في وجه الصليبيين وانتصر عليهم في معركة تل عفرين التي عرفت باسم ساحة الدم (١).

وقد مدحه العظيمي بعد هذا النصر فقال :

قل ماتشاء فقولك المقبول وعليك بعد الخالق التعويل

واستنصر القرآن حين نصرته وبكى لفقد رجاله الانجيل (٢)

توفي ايل غازي في رمضان سنة ٥١٦ هـ / كانون اول ١١٢٢م (٣) ففقد المسلمون بوفاته قائدا شديد المراس وعسكريا بعيد النظر ، وعظم المصاب على أهل حلب بوفاته خوفا من الصليبيين (٤). ولم يكن خلفاؤه على قدر المسؤولية ، ووقع الصراع والخلف بينهم وتعرضت حلب للحصار ونشبت فيها الثورة حتى تبعت لعماد الدين زنكي .

---

(١) البازالعريني : الشرق الاوسط والحروب الصليبية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٣ م جزء ١ ، ص ٣٣٠

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٥٥٥ - ابن خلدون المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٤٨٨

(٣) ابن العديم : المصدر السابق ،جزء ٢ ،ص ٢٠٣ - ٢٠٦ - ابن شداد الاعلاق الخطيرة ، جزء ٣ ، قسم ٢ ص ٤٣٣

(٤) عماد الدين خليل : الامارات الارتقية في الجزيرة والشام ، مؤسسة الرسالة ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣

٣- عماد الدين زنكي وتأسيس الامارة :

حين توفي آق سنقر بقي عماد الدين الصبي في حاشية والي الموصل حيث اكتسب من هناك اولى تجاربه في الادارة والحرب في فترة مبكرة (١) ، اتيح له بعدها الدخول في مشاكل العراق والنزاع بين الخليفة واعدائه ، ثم دخل معترك الحياة السياسية حين حكم واسط والبصرة (٢) ، وحين تولى شحنكية بغداد (٣)، ثم اتيح له الظهور في محيط الامراء المقربين من السلطان اثر زواجه من ارملة احد كبار الامراء (٤) . وعندما شغر منصب والي الموصل بالوفاة ،كان زنكي اكبر المؤهلين له في نظر اعيان الموصل والخليفة والسلطان على السواء ، فسلمت اليه في سنة ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م مع الجزيرة (٥) مضافا اليه مايغنمه من بلاد الشام . كما سلم اليه السلطان محمود ولديه آلب ارسلان وفروخ شاه ليربيهما فعرف باسم اتابك (٦) .

---

(١) ابو شامه : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٣٧

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ، ص ٣٠

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ،ص ٦٤١ - ابن خلدون : المصدر السابق ،جزء ٥ ،ص ٢٢٣ .

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٠ ،ص ٦٤٣

(٥) ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٠ ، ص ٦٤١ - ٦٤٥
ابن خلكان : المصدر السابق جزء ٢ ، ص ٣٢٨
MUIR(W) THE CALIPHATE: ITS RISE DECLINE AND FALL.,
BEIRUT KHAYATS I963., P 587 .

(٦) ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٣٢٨

٤- عماد الدين وتوحيد الجبهة العربية الاسلامية :

عكف عماد الدين على تنظيم امارته الجديدة وتقويتها ليدفع عنها كيد المعتدين . فنهض لاختيار الرجال الصالحين/ ليجعل منهم اعوانا له في الملمات وعيونا ورصادا يقف بوساطتهم على مايحدث في ارجاء البلاد ، وجعل منهم وكلاء له في عواصم البلاد المجاورة ليكون على علم بكل مايجري (١) .

شارك عماد الدين زنكي كاتابك غيره من الاتابكة في الصراعات الناشبة في فارس والعراق حول السلطنة (٢) . وأصيب اثر انهزامه في بعض حروبه عند مدينة سامراء في سنة ٥٢٦ هـ /١١٣٢ م بجروح كادت تودي بحياته ، وفر هاربا حتى تكريت ، حيث نهض نجم الدين ايوب لمساعدته وأبقاه عنده (٣).

وعلى الرغم من النكسات التي مني بها في عملياته تلك ،فانه نال مكاسب تذكر . فقد ضم مدينة اربل في الشرق الى املاكه ، كما أصبح له وزن وسمعة عسكرية طيبة ، فسعى المتصارعون على العرش لكسبه الى جانبهم ، واكتسب ولاء الاسرة الايوبية التي كان لها مركز عسكري محمود ، وسمعة طيبة (٤)

(١) LANE POOLE:SALADIN AND THE FALL OF THE KINGDOM OF JERUSALEM. BEIRUT I964., P35 .

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٦٧٨ - ٦٧٩

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٦٧٥

(٤) انظر مثلا ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٦٧٤- ٦٧٩

تميز عماد الدين عن غيره من اتابكة عصره بسيرة الحثيث نحو توحيد امارات بلاد الشام تحت سيادته ، والتوجه بالقوى الموحدة ضد الامارات الصليبية ، فبدأ قبل كل شيء بتقوية امارته بالاستيلاء على المناطق الاستراتيجية التي تحيط بها مثل البوازيج (١)، ونصيبين (٢)، وسنجار ومنطقة الخابور وحران (٣) وجزيرة ابن عمر (٤)

كما اهتم بالمناطق الجبلية المحيطة بالموصل ، تلك المناطق المشهورة بوعورتها والتي كانت تابعة للاكراد . فاكتفى بهدم قلاع المهاجمين وقبول ولاء من يدخل في طاعته من زعماء عشائرهم وابقاهم في آمكنتهم (٥) .

أول أعمال عماد الدين في بلاد الشام ضمه حلب وقلعتها الى امارته في الموصل منذ محرم سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م وذلك اثر الثورة التي نشبت بين حاكمها وسكانها ، واستغلال الصليبيين ذلك لحصارها. ومن أجل ذلك أرسل عمادالدين زنكي وفدا من امرائه حاملين مرسوم السلطان السلجوقي بتوليته على الجزيرة والموصل مضافا اليه مايغنمه من بلاد الشام ، وتفاوض الوفد مع الطرفين المتنازعين ،وتم الاتفاق على ضم حلب الى ممتلكات زنكي ، ولما قدم اليها قبض على بعض زعمائها القدامى ، وتمكن الاخرون من الفرار ، وقضى بذلك على بقايا النفوذ الارتقي في حلب (٦)

ملك عماد الدين زنكي في طريقه الى حلب مدينتي منبج وبزاغة (٧) ورتب آموره بها ثم توجه بانظاره نحو آواسط بلاد الشام وجنوبها ، وكانت هذه المناطق في غالبيتها تتبع للدولة البورية. ويتحتم علينا قبل الدخول في تفاصيل علاقات عماد الدين زنكي

مع الدولــة البوريــة أن نتعرف عليها ٠

---

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠،ص٦٤٥

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠،ص٦٤٦

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٠ ،ص ٦٤٧ ، ابن قاضي شهبه : الكواكب الدريــة في السيرة النورية ،تحقيق محمود زايد ،ص ٩٤ – ابن خلدون : المصدر السابق ، جزء ٥ ،ص ٢٢٤

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ،ص ٦٤٥ – ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ٩٤ – ابن خلدون : المصدر السابق ،جزء ٥ ص ٢٢٤

(٥) عن القلاع التي استولى عليها قلاع الاكراد الحميدية والهكاريــة وكواشي ٠ كما بنى قلعة العمادية ٠

انظر ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ،ص ١٤ – ١٦
ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١١٤ – ابن خلدون: المصدر السابق ،جزء ٥ ، ص ٢٢٩ – ٢٣٠

(٦) ابن العديم : المصدر السابق ،جزء ٢ ، ص ٢٣٧ – ٢٤٧
ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٠ ، ص ٦٤٩ – ٦٥٠
ابن القلانسي : المصــدر السابق ص ٢١٨ – الغزي نهر الذهب ،جزء ٣ ص ٨٧ – ٨٨

(٧) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٦٤٩ – ٦٥١
ابن خلدون : المصدر السابق ،جزء ٥ ، ص ٢٢٤ – ٢٢٥

٥ – الدولـــة البوريـــة :

حين قتل تتش في صفر سنة ٤٨٨ هـ / شباط ١٠٩٥ م في معركـــة قرب الري ســار رضوان الذي كان ولي عهد ابيه بالقوة التي جمعهـــا الى حلب . حيث تسلمها من وزير أبيــه على حين سنحت الظـــروف لاخيــه دقاق مـع زوج أمــه واتابكــه ظهير الدين طغتكين ، بتحريض من نائب قلعة دمشــق ساوتكين – للوصـول الى دمشـق وتولي حكمها .

اعتمد دقاق على طغتكين وسلمه قيادة الجيش وتدبير المملكـة وسياستها . ومالبث دقاق ان توفي في رمضان سنة ٤٩٧ هـ /حزيران ١١٠٤ م بعد ان وسع حدود امارته بضم حمص وحماه والرحبة . ولمـا كان أبناؤه صغارا ، فان طغتكين جعل لنفسه الامر والنهي فـــي الدولة (١)، وأخذ يعمل على توطيـد وترسيخ قدمـه في الدولـــة ، وكان يبغـي من ذلك تأسيس ملك له ولمن يأتي من بعده من أولاده (٢) وأخـذ يهتم بشؤون المنطقة السياسـية والاجتماعية والاقتصاديـــة والعسكرية .

عمـل طغتكين على ان تكون علاقاته حسنة مع الفاطميين،ولذلك فانه ساعدهم في مهاجمة الصليبيين في ١٤ ذي الحجة سنة ٤٩٨ هـ / ٢ تشرين الاول ١١٠٤ م في المنطقة بين يافا وعسقلان ، كما عمـــل على أن يجعل ولاء حكام المناطق التابعة لدمشـق لشخصه ، وعزل مـن يدين بالطاعة لابناء دقاق ، فعين ولاة من قبله على كل من بصـــرى

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ١٤٤ – ابن الاثير: المصدر السابق جزء ١٠ ،ص ٣٧٥ – ابن العديم : المصدرالسابق ،جزء ٢ ،ص ٥١٤

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٤٤

الشـام وبعلبك ورفنيـة وحمـص [1]

وقـف طغتكين في الفترة الاولى من حكمه موقف المهاجـم للصليبيـين ، وحقـق بعض النجاح في حصـن العال وطبرية ، ثم عقـد معهم هدنة نصت على ايقاف الحرب لمدة اربع سنوات [2] وعلـى الرغم من ذلك فانه انضم الى الجيوش التي وجهها السلطان السلجوقـي محمد بقيادة مودود لقتال الصليبيين [3] . كما انه ساعد أميـر صور في فك حصار الصليبيين عن المدينة [4]، وتحالف مع صاحب الموصل وسـنجار لمقاومة الصليبيين الذين تكررت هجماتهم علـى نواحي دمشق سنة ٥٠٦ هـ /١١١٢ - ١١١٣ م حتى انقطعت عنهـا المواد وغلت بها الاسعار وقلت الاقوات [5] ، وتمكن المتحالفـون من هزيمة الصليبيين ، الذين أعادوا الكرة بعد ان وصلتهم الامدادات من طرابلس وانطاكية ، ومالبث مودود آن قتل في الجامع الامـوي في دمشـق [6]

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ١٤٨ - ١٤٩ - ابن الاثيـر : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٤٠٠

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ٤٦٧

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٤٨٥ - ٤٨٧

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٤٨٨ - ٤٩٠

(٥) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٤٩٥ - ٤٩٦

(٦) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ، ص ٤٩٦ - ٤٩٧

توفي ظهير الدين طغتكين في سنة ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م [١] ، فتسلم ابنه تاج الدين بوري زمام الامر وهو الذي آخذت الدولة اسمه [٢] ، فتعرض منذ مطلع حكمه لموآمرات الباطنية [٣] وهجمات الصليبيين [٤] ، كما وقعت ولاية بوري ضمن مطامع عماد الدين زنكي، ،الذي ما آن رتب آموره في حلب حتى توجه بأنظاره نحو أواسط بلاد الشام وجنوبها ، والذي استعمل الحيلة والدهاء والسياسة والحرب ، حتى تمكن من دخول مدينة حماة سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م ، وحاصر بعدها مباشرة مدينة حمص دون جدوى . لكنه لم ييأس .

تمكن بوري قبل وفاته من استرجاع مدينة حماه [٥] وعقد هدنه مع صاحب شيزر مقابل مبلغ من المال كل عام ، ومالبث ان توفي في سنة ٥٢٦ هـ / ١١١٣م بعد ان أوصى بالولاية من بعده لولده شمس الملوك اسماعيل ، وبعلبك وأعمالها لولده محمد . ونشب صراع بين الاخوين نتيجة مطامع محمد بالتوسع انتهى لصالح اسماعيل .

تعرضت الدولة البورية في/عهد شمس الملوك اسماعيل لمطامع الصليبيين الذين اعترضوا تجار دمشق وآخذوا امتعتهم ، ففاجأهم

---

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٠ ،ص ٥٠٩ — ٥١٠ و ص ٦٣٩
(٢) انظر صلاح الدين المنجد : المرجع السابق ، ص ٢١
(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٠ ،ص ٦٣٢ — ٦٥٦ — ٦٥٧
(٤) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٠ ،ص ٦٥٧
(٥) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٢٢٧ — ٢٢٨ — ابن منقذ : الاعتبار مطبعة جامعة برنستون : الولايات المتحدة ١٩٣٠ ، ص ٩٧ — ٩٨ . ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٠ ، ص ٦٥٨ — ٦٥٩ وجزء ١١ ص ٦ — ابن قاضي شهبة :الكواكب الدرية في السيرة النورية ،ص ٩٤

اسماعيل بالهجوم على بانياس سنة ٥٢٧ هـ /١١٣٢ م فملكها وقلعتها ورتب امورها وعاد الى دمشق .

ترددت الاوضاع الداخلية في الدولة البورية في عهد شمس الملوك اسماعيل بن بوري لسوء سياسته . وتعرض لمؤامرة حاكها بعض مماليك طفتكين في سنة ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ م ، فقتل المتآمرين دون اجراء محاكمة . كما زاد في سوء الاوضاع قيامه بظلم الرعية الذين رفضوا حكمه وعارضوه . ولما رأى اشتداد المعارضة وادبار أمره سارع بمراسلة عماد الدين زنكي في سنة ٥٢٩ هـ /١١٣٥م طالبا منه الحضور لتسلم دمشق ، والا فانه سيسلمها للصليبيين(١).

لم تسر الامور كما ارادها شمس الملوك اسماعيل ، بل نجح المتآمرون بقتله وتوليه الحكم لاخيه شهاب الدين محمود (٢) وعلى الرغم من ذلك فان عماد الدين زنكي توجه الى دمشق وألقى الحصار عليها ، ولكنه فشل أمام استبسال المدافعين عنها . ومالبث ان فك الحصار عنها اثر وصول رسالة اليه من الخليفة العباسي المسترشد بالله ، يأمره فيها برفع الحصار عن المدينة ومصالحة أميرها (٣) . والتوجه على رأس قواته الى بغداد للعمل سوية

(١) ابن القلانسي: المصدر السابق،ص ٢٤٧ – ٢٤٨ – ابن الاثير: المصدر السابق ،جزء ١١،ص ٢٠ – ابن قاضي شهبة :المصدر السابق،ص ١٠٣

(٢) ابن القلانسي: المصدر السابق،ص ٢٤٧ – ٢٤٨– ابن الاثير: المصدر السابق ،جزء ١١ ،ص ٢٠ –٢١ –ابن قاضي شهبة :المصدرالسابق ،ص ١٠٣

(٣) ابن الاثير: المصدرالسابق،جزء ١١،ص ٢٢– ابن خلدون: المصدرالسابق جزء ٥ ،ص ٢٣٠

ضد السلطان مسعود [1] ، وقيل ان اهالي دمشق ارسلوا الى الخليفة خمسين الف دينار ، ووعدوا بتقديم مثلها كل عام . اذا دفع عماد الدين زنكي عنهم . وفك الحصار عن المدينة ، وعوض ذلك باستعادته لمدينة حماه [2]

عاود عماد الدين زنكي الكرة للتوسع على حساب الدولة البورية ، وحاصر حمص عدة مرات بين سنتي ٥٣٠ - ٥٣٢ هـ / ١١٣٦ - ١١٣٨ م ، ولكنه فشل في فتحها في تلك الفترة بسبب هجمات البيزنطيين والصليبيين على المناطق المحيطة بحلب ، واضطراره الى حمايتها [3] ومالبث عماد الدين أن نقل ميدان عملياته في سنة ٥٣٣ هـ /١١٣٩م الى بعلبك ، فاعترف حاكمها بالولاء له ، وتعهد بدفع مبلغ من المال ، ومالبث أن ضمها اليه وعين عليها نجم الدين ايوب ، وتابع عملياته في المنطقة المجاورة ، ففتح المجدل وبانياس [4] .

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، طبعة حيدر اباد ١٣٥٨ هـ ، جزء ١٠ ، ص ٤٣

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٤٨

ابن العديم : المصدر السابق جزء ٢ ، ص ٢٥٩

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٦٣ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٢٨-و٥٠ و٥٥ و٧٠

(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ - ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٦٨ - ٧٠

انتقل عماد الدين بعد ان حقق جزءا من أهدافه الى التقرب من البوريين ، علـه يحقق في ذلك ماعجز عن تحقيقه في القتال ،فعقد بينه وبينهم مصاهرة ، اذ تزوج من والدة شهاب الدين محمود المعروفة بزمرد خاتون ، وزوجه بابنته ، وكانت حصيلة هذا الزواج تنازل البوريين له عن مدينة حمص تخلصا من تكاليف الدفاع عنها (١) . وما لبث شهاب الدين ان قتل غيلة على فراشه سنة ٥٣٣ هـ / ١١٣٨ م ، فبايع الامراء جمال الدين محمد بن بوري ، الذي أخذ من الرعية والجند يمين الولاء والاخلاص ، وفوض أموره الى معين الدين انر .

أدت هذه التغيرات الجديدة الى توجه عماد الدين زنكي لحصار مدينة دمشق سنة ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م للمرة الثانية ، واستمر الحصار قرابة سبعة شهور من ربيع الاول حتى نهاية السنة ، وأعقب ذلك مفاوضات فشلت ، فعاد عماد الدين لمهاجمة المدينة ، مما دفع معين الدين انر الى مراسلة صليبيي بيت المقدس طالبا منهم المساعدة في فك الحصار عن دمشق ، مقابل تسليمهم مدينة بانياس بعد الاستيلاء عليها . ووجد عماد الدين نفسه مضطرا الى الانسحاب شمالا ، وفقد بذلك حصن بانياس الحصين الذي سلم للصليبيين (٢)

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٢٢٦ – ٢٢٧ – ابن الاثير : التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، تحقيق عبد القادر طليمات دار الكتب الحديثة بالقاهرة ١٩٦٣ م ، ص ٥٨ – ٥٩ – ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٠٨

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٧٣ – ٧٥ – ابن العديم : المصدر السابق جزء ٢ ص ٢٧٤ – ٢٧٥ – ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١١٠ – ١١١

وهكذا فشل عماد الدين في اتمام خطته بتوحيد الجبهة العربية الاسلامية في بلاد الشام وفتح مدينة دمشق ، وذلك بسبب تعاون حكام دمشق مع الصليبيين ، توفي جمال الدين محمد بن بوري سنة ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م وبويع مجير الدين ابق بن محمد : وبقي معين الدين انر مدبرا للبلاد ، فوجد أن الدولة البورية معرضة لخطرين :

أحدهما تمثل في عماد الدين زنكي والاخر بالصليبيين وبخاصة صليبيي بيت المقدس ، ولذلك فانه حرص كل الحرص على العمل على توازن هاتين القوتين ، فكان كلما وقع في مأزق يستنجد باحداهما ضد الاخرى . ولم يكن يسمح لاحداهما بالقضاء على الثانية ليحافظ على ملكه ونفوذه . وكثيرا ماحالف الصليبيين للوقوف في وجه تقدم الزنكيين في اراضيه (١) .

لم ترق هذه السياسة للزنكيين سواء في عهد عماد الدين زنكي أم في عهد خلفه نور الدين محمود اللذين كانا يعملان على توحيد بلاد الشام تحت سلطتهم للوقوف في وجه الصليبيين الذين عملوا جاهدين للقضاء على الدولة البورية . وقد ازداد نفوذ الزنكيين في دمشق منذ سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م ، اثر مساعدة نور الدين لمعين انر في صد خطر الصليبيين عن مدينة دمشق (٢).

توفي في هذه الفترة معين الدين انر مدبر امور دمشق ، وعاد حكمها الى صاحبها مجير الدين ابق ، ولم يكن على قدر المسؤولية التي حملها ، وتسبب في اثارة الصراع داخل امارته ، مما أطمع بها جيرانها من الشمال والجنوب . ولما كان مجير الدين يخشى

(١) ارنست باركر: الحروب الصليبية ،ترجمة الباز العريني ،مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ص ٦١ — ٦٢
(٢) ارنست باركر : المرجع السابق ، ص ٩٥ — ٩٦

نور الدين اكثر مما يخشى الصليبيين، لذلك فانه عاهدهم واتفق معهم على ان يكونوا يدا واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين[1]. على حين أن نور الدين محمود بن زنكي جعل من نفسه حاميا للمناطق المهددة من الصليبيين مما آكسبه مكانة خاصة في قلوب المتدينين فيها، وفرض على آهالي دمشق حبه واحترامه. ووصل بهم الامر آن عملوا على بذل الطاعة واقامة الخطبة له على منابرها بعد الخليفة والسلطان، ونقشوا اسمه على السكة، وذلك بعد ان نهض لمساعدة آهالي حوران ضد صليبيي بيت المقدس، ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا التوقف عن دفع المال لحلفائهم الصليبيين [2].

٦ – وفاة عماد الدين زنكي :

عمل عماد الدين زنكي جهده لتوحيد بلاد الشام تحت سلطته، لكن الدولة البورية كانت تقف عائقا في وجهه، وعلى الرغم من حصاره لدمشق مرتين فانه لم يستطع فتحها، ولكنه تمكن من مد حدوده حتى حمص. ووقف موقفا حازما من الصليبيين في امارة انطاكية وآبعدهم عن حلب باسترجاعه للحصون التي كانوا قد احتلوها والتي كانت تحيط بحلب [3]

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق، ص ٣٠٨

(٢) امينة بيطار : تاريخ الايوبيين، دار الطباعة الحديثة دمشق ١٩٨١ – ١٩٨٢، ص ٦٤ – ٦٥

(٣) ابن واصل : المصدر السابق، جزء ١، ص ٨٣
ابن العديم : المصدر السابق، جزء ٢، ص ٢٦٨
عماد الدين خليل : المرجع السابق، ص ١٤٨

كما انه انتصر على تحالف بيزنطي صليبي [1]. ثم وجه اهتمامه الى امارة الرها وعمل على اسقاطها وقد تحقق له ذلك حين سقطت مدينة الرهاء بيده سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م، وفتح بعدها بقية المعاقل الصليبية الواقعة شرق الفرات، كسروج والبيرة وغيرها [2].

أراد عماد الدين ان يتوجه الى قلعة جعبر على الفرات وهي تتبع لبني عقيل فأعد حملة كبيرة، زودها بآلات الحصار، ولئلا ينكشف الامر فانه أعلن بأنه في صدد قتال الصليبيين دون ان يحدد وجهته، فوصل الى قلعة جعبر وألقى الحصار عليها بقصد فتحها. وفي اثناء حصارها قتل فجأة على يد أحد حضيانه في جمادى الثانية ٥٤١ هـ / تشرين الثاني نوفمبر ١١٤٦ م [3]

انصرف غالبية قادة الجند وزعماء الموصل لتسليم الامارة الى ابن عماد الدين زنكي الاكبر المعروف بسيف الدين غازي، على حين أن بعض قادة الجند كأسد الدين شيركوه رأوا اعطاء الامارة الى نور الدين محمود، والاسراع بالسير حثيثا مع جند الشام الى حلب.

---

(١) ابن الاثير: المصدر السابق، ص ٢٦٦ - ابن منقذ: المصدر السابق، ص ٢ - ابن الاثير: الكامل في التاريخ جزء ١١، ص ٥٣ - ٦٠ التاريخ الباهر، ص ٥٥ - ٥٦ ابن العديم: المصدر السابق، جزء ٢، ص ٢٦٨، ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ص ١٠٨ ابن خلدون: المصدر السابق، جزء ٥ ص ٢٣٣

(٢) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٢٨٠ - ابن الاثير: التاريخ الباهر، ص ٦٩ - ٧١ - الكامل في التاريخ جزء ١١، ص ٩٩ ابن خلدون: المصدر السابق، جزء ٥، ص ٢٣٦

(٣) ابن الاثير: الكامل، جزء ١١، ص ١٠٩ - ١١٠ الباهر، ص ٨٤ - ٨٦ ابو شامه: المصدر السابق، جزء ١، ص ٤٦ - ٤٧.

وقد أدى اختلاف الاراء والمصالح حول السلطان ، بعد مقتل عماد الدين زنكي الى تقسيم امارته الى قسمين في حلب والموصل . ولم يكن هذا الانقسام نهائيا ، بل بقي التضامن والرابطة بين زعماء الزنكيين قوية . وقد بدا التضامن في هذه الاسرة في قضية تمتع ابناء الامير المتوفى بحكم مناطقهم حكما مستقلا ، وتبقى للابن الاكبر مكانة الزعامة ، ويتعاون الجميع لصد الاخطار المشتركة (1)

نور الدين محمود بن زنكي :

كانت المنطقة التي أصبحت من املاك نور الدين من أخطر المناطق لاحاطتها بالاعداء الذين كانوا يترقبون الفرص للانقضاض . وقد استطاع نور الدين على الرغم من كل شيء التغلب على اكثرها ، ثم تابع مسيرة والده في جهاد الصليبيين واتمام عملية التوحيد . وقد تمكن من تحقيق انتصارات ملموسة على صليبيي انطاكية وبيت المقدس وطرابلس ، وعمل جاهدا على ان يجعل من نهر العاصي حاجزا طبيعيا بينهما . كما عمل على تصفية بقايا اراضي امارة الرها (1)

محاولات نور الدين لتوحيد بلاد الشام تحت امرته :

1- ضم حمص والرحبة .

على الرغم من مشاغل نور الدين مع الصليبيين فانه كان مهتما بتوحيد بلاد الشام تحت امرته . وكان يستغل الظروف الطارئة لمصلحته ، وقد واتته الظروف حين توفي آخوه الاكبر صاحب الموصل

(1) ابو شامة : المصدر السابق، جز1 ، ص 72- ابن الاثير: التاريخ الباهر ص 102- 104 الكامل في التاريخ جز11 ص 154- 155، وانظر ايضا ارنست باركر: المرجع السابق ص 96

سيف الدين غازي في سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م وحل محله في امارته أخوه الاصغر قطب الدين مودود،ورأى نور الدين أنه قد أصبح رأس الاسرة ،ولابد له من أن يثبت حقه هذا،وجني مايمكن من مكاسب مع الحفاظ على تضامن البيت الزنكي .

تقدم نور الدين محمود الى سنجار في الجزيرة في مناورة عسكرية ،حيث التقى هناك بأخيه قطب الدين . وانتهت هذه المناورة باتفاق الطرفين على تسوية اوضاع الامارة بحيث يأخذ نور الدين كلا من الرحبة وحمص اللتين كانتا من أملاك سيف الدين غازي ، على أن يسلمه سنجار ، وبذلك أزيل التداخل بين املاكهما واعترف بنور الدين رأسا للاسرة الزنكية .

٢- فتح نور الدين لمدينة دمشق .

اتخذت الدولة البورية التي كانت تحكم دمشق ومايحيط بها سياسة المحافظة على املاكها من المحيطين بها من مسلمين وصليبيين وكثيرا ماحالفت الصليبيين لتعمل على وقف تقدم الزنكيين في اراضيها (١) .

ولذلك عمل الزنكيون جاهدين لضمها اليهم ، والقضاء على الدولة البورية . بدأت المحاولات من قبل عماد الدين زنكي ، ولكنه لم يستطع تحقيق هدفه ، وحين تولى الامر ابنه نور الدين محمود،

---

(١) ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص٧٢
ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص١٠٢ - ١٠٤
الكامل في التاريخ جزء ١١ ، ص ١٥٤ - ١٥٥
وانظر ايضا ارنست باركر : المرجع السابق ، ص٩٦

سار على سياسة أبيه ، ولكن الظروف اختلفت الى حد ما فالصليبيون قاموا بالهجوم على عاصمة حلفائهم دمشق سنة ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م ، واضطر معين الدين انر حاكمها الى الاستعانة بنور الدين ضدهم ، وفشل الحصار (١) مما جعل لنور الدين مكانة خاصة في المنطقة ، وسمعة طيبة بين اهالي دمشق ، واكتسب مكانة خاصة في قلوب المتدينين ، وأصبح له أنصار يؤيدونه ، ووصل الامر بأهالي دمشق حين نهض لمساعدة اهالي حوران ضد صليبيي بيت المقدس (٢)، ان عملوا على بذل الطاعة لنور الدين ، واقاموا له الخطبة على منابر دمشق بعد الخليفة والسلطان ، ونقشوا اسمه على السكة بعدهما ايضا (٣) .

وهكذا أصبح اسم نور الدين علما في مدينة دمشق منذ اوائل سنة ٥٤٥ هـ / مايس مايو ١١٤٩ م ،وأصبحت دمشق تتبع له اسميا ، وعرفه الاهالي فأحبوه (٤) . وأراد نور الدين ان يستغل وضعه هذا ووجود انصار له في المدينة فتوجه في السنة التالية الى مقربة من دمشق ، ولكنه فشل في فتحها ، بسبب تحرك فرنجة بيت المقدس لنجدتها ، ومقاومة مدينة دمشق له فانسحب (٥) .

---

(١) ارنست باركر : المرجع السابق ، ص ٩٥ - ٩٦

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣١٠

(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣١٠

(٥) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣١٣ - ٣١٤

لم يكن انسحاب نور الدين نهائيا ، بل كان ينتظر الفرصة السانحة وقد وجدها بعد ثلاث سنوات من هجمته السابقة على المدينة . وكانت الاسباب المباشرة لعمله هذا تكمن في احتلال الصليبيين لمدينة عسقلان على الساحل (١) . مما أشعره بانهم أخذوا يمدون حدودهم بعد تقليصها . وان الامر يتطلب السرعة ، لاشعارهم بأن العرب المسلمين واقفون لهم بالمرصاد . ولما كانت امارة البوريين في دمشق تقف حائلا في طريقه ، لذلك قرر فتح دمشق والقضاء على هذه الامارة .

اتخذ نور الدين في هذه الجولة الاحتياطات كافة وعلى رأسها تحطيم الدولة البورية من الداخل ، واثارة الشكوك بين مجير الدين واعوانه ، وبينه وبين اهالي المدينة ليشعرهم بعجزه عن حمايتهم (٢)، ولذلك فانه اتخذ عدة اجراءات كان على رأسها :

- التضيق الاقتصادي على دمشق . ومنع وصول غلات الشمال اليها مما تسبب في غلاء الاسعار وتحرك الشعب ضد الحكام (٣). وهي سياسة كان لنور الدين يد فيها ليجعل من التخلص من البوريين قضية تهم كل الناس .
- عمل على التقرب من مجير الدين حتى وثق به ، ثم أخذ يثير شكوكه ضد أحد كبار رجاله وهو عطاء الخادم ، لانه على

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٣٢١ – ٣٢٢ – ابن الاثير التاريخ الباهر ،ص ١٠٦ – ١٠٧ – الكامل في التاريخ جزء ١١ ص ١٨٨ – ابن قاضي شهبة : المصدر السابق،ص ١٤٤ .
(٢) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٠٦
(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٢٥ – ٣٢٧
ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٤٤

رأي ابن القلانسي [1] (لن يكون له آمر في دمشق مع وجود عطاء) . ثم تابع عمله هذا ببث عدم الثقة بين مجير الدين وبقية رجاله ، مما دفع به الى التخلص منهم واحدا بعد الاخر [2] .

- راسل أحداث البلد وزناطرته واستمالهم . ووسع شقة الخلاف بينهم وبين مجير الدين ، ثم استمال الغاضبين الى صفه فوعدوه بمساعدته وتسليم البلد اليه [3] . كما أحسن الى الاهالي فأحبوه [4] .

- قام أنصاره بنشر دعاية فحواها أن مجير الدين سبب كل المساوىء .

- استغل قضية تخاذل البوريين امام الصليبيين وتساهلهم مع أسراهم ، ودفعهم أموال الاهالي لاعدائهم ، مع تعرض دمشق نفسها لمخاطرهم ، ووقوف حكامها سدا في وجه تأديب الصليبيين لاثارة الاهالي ضد البوريين [5]

---

(1) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٢٦ - ابن الاثير: الباهر ، ص ١٠٦ - ١٠٧

(2) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ١٩٧

(3) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ١٩٨

(4) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩

(5) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٠٦

استخدم نور الدين الاحتياطات كافة لفتح مدينة دمشق دون اراقة دماء ، ولذلك فانه ادعى بأنه في سبيل قتال الصليبيين وأرسل الى مدينة دمشق قطعة صغيرة من جيشه بقيادة أسد الدين شيركوه ، ليوهم أنها سفارة لاأكثر • وحين قابلت هذه السفارة مجير الدين ، اتضح الخلاف الكبير بينهما [1]. وخرج شيركوه ليعسكر خارج دمشق في الوقت الذي وصلت فيه قوات نور الدين وعسكرت شرق المدينة في صفر سنة ٥٤٩ هـ / تموز ١١٥٣ م [2]. ولم يجد جيش نور الدين كبير مقاومة لا خارج الاسوار ولا داخلها ، بل مابدا كان عكس ذلك ، اذ وجد مساعدة من بعض حرفييها الذين فتحوا له الباب الشرقي [3]، ثم فتح له باب توما [4] •

وهكذا دخل نور الدين مدينة دمشق على الرغم من استنجاد صاحبها بالصليبيين ، واستقبله أهاليها بالحفاوة والتكريم [5]، وقضى بذلك نور الدين على دولة البوريين ، وأصبحت املاكه تمتد من شمال الجزيرة السورية الى شرقي الاردن في الجنوب •

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٢٧

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٢٧

(٣) ابن الاثير : الباهر ، ص ١٠٧ – الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ص ١٩٨ •

(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٢٧

(٥) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٣٢٧

أعمال نور الدين محمود بعد القضاء على الدولة البورية .

تميزت اعمال نور الدين محمود بعد القضاء خلال عشر السنوات التي سبقت سيطرته على مصر بالحذر الشديد ، فاتخذ من الصليبيين موقفا اقرب للدفاع منه الى الهجوم . وقد بدا موقفه هذا في عقده هدنه مع ملك بيت المقدس لمدة سنة كاملة تعهد له فيها بدفع ثمانية الاف دينار صورية (١) وهو المبلغ نفسه الذي كان يدفعه مجير الدين صاحب دمشق لهم . وقد هدف من وراء ذلك الى ابعاد شبح الخوف عن مملكة بيت المقدس ، لتقف عن مهاجمته ريثما يدبر أموره مع سلاجقة الروم في الشمال ويتمم سيطرته على بقية ممتلكات الدولة البورية .

لم يثق الصليبيون بهذا الاتفاق ، وأدركوا غاية نور الدين من وراء عقده ، ولذلك فانهم لم يبخلوا باقتناص الفرص لمهاجمة الاراضي التابعة له (٢) ، والتحالف مع البيزنطيين ضده (٣).

انشغل نور الدين محمود في تلك الفترة عن مهاجمة الصليبيين في عقر دارهم ، بمشاكل متعددة على رأسها محاولة مجير الدين اثارة الفتنة في دمشق ضد نور الدين مما اضطره الى ابعاده عن حمص ، حيث كان قد استقر فيها ، منذ فتح نور الدين لمدينة دمشق (٤)، كما عانت دمشق من وباء انتشر فيها مات فيه الكثير

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٣٣٦
(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٣٣٧
(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ،ص ٣٤٠ - ٣٤١
(٤) ابن الاثير : التاريخ الباهر ص ١١٨

من الشيوخ والشباب والصبيان [1]. ويضاف الى هذا اضطراب اوضاع حلب بسبب موقف شيعتها من نور الدين [2]. كما هددت الزلازل المتعددة مدن بلاد الشام بالدمار والخراب ، وصرف نور الدين وقتا وجهدا ومالا في سبيل اعادتها [3]، وفوق هذا وذاك فان نور الدين أصيب بمرض كاد يقضي على حياته ، حتى ان اشاعة بموته سرت بين الناس [4].

٣- نور الدين وتوحيد مصر والشام :

عانت الخلافة الفاطمية آلام الموت البطيء ، وحل بها منذ سقوط عسقلان بيد الصليبيين ازمة خانقة ، تجلت في مظاهر متعددة . فأخذ الطامعون والمتنافسون يتسابقون على ضمها لاملاكهم . وازداد الوضع الداخلي سوءا منذ تسلم الفائز الخلافة وهو طفل صغير اثر مقتل ابيه سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م ، ومالبث ان توفي سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م فخلفه العاضد وكان صغيرا ايضا فنهض الوزراء للتنافس على السيطرة على شؤون الخلافة ، وتنافس العادل بن طلائع بن رزيك وشاور حاكم الصعيد عليها وانتهى الامر بنجاح شاور وقتل العادل

---

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٣٠

(٢) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٤٩

(٣) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٣٤ و ص ٣٣٥ و ٣٤٢ و ٣٤٣ و ٣٤٥ و ٣٤٦ – ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١١٠

(٤) ابن القلانسي : المصدر السابق ، ص ٣٤٩ و ٣٥٥ – ٣٥٦
ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١٥٣

وتسلمه الوزارة سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣ م ومالبث التنافس ان دب بين شاور وضرغام صاحب الباب ، وأدى هذا التنافس الى الاستنجاد بنور الدين زنكي (١) .

لم يكن التنافس بين الوزراء واستنجاد أحدهم بنور الدين، وضعف الفاطميين عن مجابهة اعدائهم هو السبب الوحيد الذي دعا نور الدين الى دخول مصر ومن ثم ضمها الى املاكه ، بل كان لمطامع الصليبيين فيها اكبر الاسباب . ولايخفى علينا ان هناك سببا قويا ربما حرك عند نور الدين الرغبة في غزو مصر ، واعني بذلك العامل المذهبي ، ذلك أن الخلافة الفاطمية في مصر كانت مصدرا من مصادر الفرقة في العالم الاسلامي ، لانها جعلت ولاء المسلمين تتقاسمه خلافتان ومذهبان ، لذلك كان من الطبيعي ونور الدين متعصب لسنيته ان يفكر في القضاء على الخلافة الفاطمية في القاهرة (٢) ويمكن القول ان نور الدين تمكن من ضم مصر الى املاكه اثر ثلاث حملات ارسلها الى مصر باعداد ضئيلة قياسا الى عظمة الهدف .

---

(١) ابو شامة / المصدر السابق ،جزء ١ ، ص١٠٧ – ١٠٨
ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية او سيرة صلاح الدين ، طبعة اولى ١٩٦٤ ، ص ٤٣
ابن خلكان : المصدر السابق : ،جزء ٢ ص ٤٩٩

(٢) عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، طبعة دار النهضة ، بيروت ١٩٧٢ م، ص ١٣ – ١٤

كان قائد هذه الحملات لنور الدين شيركوه وكان يرافقه فيهما ابن أخيه صلاح الدين الايوبي[1] ،كانت الاولى في سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م ، والثانيه في سنة ٥٦٢هـ/١١٦٦م ،والثالثه سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م ،وكلما دخلت حملة الى مصر يعمل الصليبيون الى عرقلتها بارسال جيش صليبي .

خرج شيركوه الى مصر في الحملة الثالثه في ربيع الاول سنة ٥٦٤هـ/ديسمبر كانون الاول ١١٦٨م ،فبلغ القاهرة بعد شهر تقريبا حيث رحب به الاهالي ،والتفوا حوله طالبين حمايتهم من الصليبيين ودخل شيركوه مدينة القاهره ،فاستدعاه الخليفة العاضد اليه ،وأخذ أرباب الدولة يترددون عليه لقضاء حوائجهم ،فعلت منزلته وخافه شاور على نفسه ،فأرسل خلسة الى الصليبيين يستدعيهم لنجدته ويطلب منهم الحضور الى مصر عن طريق دمياط . وأخذ يماطل شيركوه للوفاء بالتزاماته نحوه كسبا للوقت . وانتظارا لوصول الصليبيين لنجدته ،وبالاضافة الى ذلك فانه آخذ يدبر مؤامرة لقتل شيركوه وأنصاره اثناء وليمة يدعوهم اليها،ولم تخف المؤامرات على شيركوه والامراء في مصر ،فاجتمعوا للتشاور ،وارتأى الجميع قتله وانقاذ المسلمين من شره ،وتم الامر في ربيع الثاني ٥٦٤هـ/كانون الثاني يناير ١١٦٩م[2] ،ومنح شيركوه منصب الوزارة ولقب بالمنصور[3]. على آن شيركوه مالبث أن توفي بعد شهرين فيآذار

(١) Lane Poole : Op . Cit . , P 81

(٢) Lane Poole : Op . Cit . , P 96

(٣) ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ،ص ١٧٨-١٧٩ ،
الحنبلي : المصدر السابق ،ص ٣٥ – ٤٢

من السنة نفسها [1] فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح ال
وتلقب بالناصر [2] .

الايوبيـــــون :

١- أصل الايوبيين :

ينتسب الايوبيون الى ايوب بن شاذي من الاكراد الروا
وهم بطن من الاكراد الهذبانية • وقد استقرت هذه القبيلة
بلدة دوين في اذربيجان قرب خلاط وبلاد الكرج [3]، وقد
بعضهم أصلهم من العرب المهاجرين من الجزيرة العربية ، ونس
بني أمية [4] • ويبدو أن هذا النسب أورده من اراد ال
منهم حين أضحوا ملوكا وسلاطين • ويمكن القول بأن هذه
لاتستحق الوقوف عندها ، لان العروبة في ايام الايوبيين لم
ذات مضمون عرقي ، ولم تعد بالتالي قاصرة على المنحدر
قبائل عربية ، بل اضحت ذات مضمون حضاري ، وتشمل كل
في ارض الوطن العربي من الذين تكلموا اللغة العربية وت

كان لشاذي من الولد أيوب وهو الاكبر وشيركوه ،قد
العراق حيث خدما شحنتها في تكريت [5] وتعرفا بها بعماد
زنكي في ربيع الاخر سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣١ م اثر انهزامه

(١) الحنبلي : المصدر السابق ،ص ٤٣— ole : Op. Cit., P 97
(٢) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ،ص ١٧٩ – الحنبلي: الـ
ص ٦٨ ومابعدها •
(٣) احمدبن ابراهيم الحنبلي: المصدر السابق،ص ٢١ – ٢٣ ابو
المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٣ – ٤
(٤) ابو شامة: المصدر السابق ،جزء ١،ص ٢١٠
(٥) الحنبلي: المصدر السابق ص ٢٣

تكريت من قراجة الساقي [1]. وقدما له معونات مختلفة ، ثم التحقا بخدمته في الموصل في حدود سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٧م ، فأحسن اليهما وجعل ايوب على بعلبك اثر فتحها اوائل سنة ٥٣٤ هـ /١١٣٩م فحفظ لعماد الدين معروفه [2]، كما قلد شيركوه قيادة الجيش [3] .

لم تستمر بعلبك في يد أيوب بل خضعت لنفوذ أمير دمشق الذي استخلصها من ايوب مقابل اقطاعات كبيرة منحها له [4] . فانتقل ايوب بعدها ليقيم مع آخيه في دمشق حيث اصبحا من كبار امرائها [5] .

ولد لنجم الدين ايوب ليلة رحيله من تكريت الى الموصل سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٧ - ١١٣٨ م ولد أسماه يوسف ، ولقب بصلاح الدين . نشأ في أحضان أسرته في بعلبك ، وأخذ عن ابيه ايوب براعته في السياسة وشجاعته في الحروب . فنشأ متشبعا بالدهاء السياسي والروح الحربية ، كما تعلم علوم عصره فحفظ القرآن ودرس الفقه والحديث [6]

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، الجزء ١١ ،ص ٣٤١ ،
ابو المحاسن : المصدر السابق ،جزء ٦ ، ص ٣ - ٤

(٢) الحنبلي :المصدر السابق ، ص ٢١ - ٢٤ - ابو المحاسن: المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٤ - ٥ - محمد حمدي المناوي : الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي ، ص ٢٦٠

(٣) ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٦

(٤) الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٢٣ - ابو المحاسن : المصدرالسابق جزء ٦ ، ص ٥

(٥) ابو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ص ٥

(٦) ابن شداد : المصدر السابق ص ٥ - ٦ و ص ٩ - ١٠

بقي أفراد الاسرة الايوبية في دمشق منذ سقوط بعلبك ، حتى اتصل أسد الدين شيركوه بنور الدين محمود صاحب حلب ، فاكرمه وجعله من اكابر امراء دولته ، واقطعه حمص والرحبة ، واسند اليه قيادة الجند (١) وكان لشيركوه دور بارز في ضم مدينة دمشق لنور الدين . فقد كاتب آخاه نجم الدين ايوب فيها طالبا منه المساعدة فوافق (٢) .

ولما تبعت دمشق للزنكيين أصبح شيركوه ونجم الدين ايوب من كبار امراء جيش نور الدين (٣) وكان ذلك ايذانا بجعل نور الدين لاسد الدين شيركوه قائدا لحملاته الثلاث التي ارسلها الى مصر ، وانتهت باعتلاء صلاح الدين الايوبي لدست الوزارة .

---

(١) ابو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٥

(٢) ابو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٥

(٣) ابو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٦

٢- وزارة صلاح الدين الايوبي :

آ - اعمال في القضاء على الثورات الداخلية :

تولى صلاح الدين الوزارة بعد وفاة عمه شيركوه في جمادى الثانية سنة ٥٦٤ هـ /آذار مارس ١١٦٩م . وتلقب بالناصر . وكان من الصعوبة بمكان أن يحافظ صلاح الدين على منصبه في مصر ، وذلك للاسباب الاتية :

- كان اختيار الخليفة الفاطمي العاضد لصلاح الدين لصغر سنه وعدم خبرته ، ورجا أن يكون آسلس قيادة وأطوع لامره ،وبغى من وراء ذلك ان يجعله أداة سهلة في يده يستعين به على بقية آمراء نور الدين في مصر ، ولكن آمله خاب حين آثبت صلاح الدين انه ليس ألعوبة ، وأنه يتصرف بقوة واقتدار وأنه آهل لهذا المنصب (١) .
- كان جيش شيركوه في مصر يضم جماعة من اكابر النورية ، الذين تطلعوا جميعا الى منصب الوزارة عقب وفاة شيركوه ، وامتعضوا لتعيين صلاح الدين وزيرا ، ووقفوا منه موقفا أقرب الى العداء (٢) .

نهض صلاح الدين بأعباء الوزارة بهمة واقتدار ، فاستمال الناس اليه بالبذل والعطاء ، وعمل على السيطرة على الجند في مصر بشكل تام ، في الوقت الذي تسلم قوة من بلاد الشام على رأسها

(١) الحنبلي: المصدر السابق ، ص ٦٧ - سعيد عاشور : الحركة الصليبية جزء ٢ ، ص ٧٠٦ - ٧٠٧

(٢) ابو شامه : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٧٣ - الحنبلي :المصدر السابق ، ص ٦٦ - ٦٧ أبو المحاسن :المصدر السابق ج ٦،ص ١٧ - ١٨

أخـوه شمس الدين توران شاه ، أمـده بها سـيده نـور الدين محمود(١) وقضـى على المشاكل والمؤامرات التي واجهته منذ مطلع حكمه ، وعلى رأسـها فتنه رئيس بلاط قصـر الخليفة العـاضـد ،الخصي النوبي مؤتمن الخلافـة جوهر ، زعيم الجند السودانيين وقـائدهم .

طمـع مؤتمن الخلافـة بمنصب الوزارة ، وساءه أن يرى سـيطرة صلاح الدين على قصر الخلافة الفاطمية ، وكان يملك مايشجعه علـى التحرك ، ذلك أن الجند السودانيين كانوا يشكلون الكثرة الغالبة في الجيش الفاطمي ، اضافة الى انـه يستطيع ان يجعل من العلييين أعوانا له لتحقيق هدفه (٢)، حاك مؤتمن الخلافة خيوط المؤامرة ،وأرسل خطابا الى ملك بيت المقدس عموري طالبا منه المساعدة فوقع الخطاب في يد رجال صلاح الدين(٣) الذين اطلعوه على خيوط المؤامرة ،فأمهله قليلا ثم مالبث ان قبض عليه وقتله في ذي الحجة سنة ٥٦٤هـ/ ٢٠ آب ١١٦٩م(٤) واتبع صلاح الدين ذلك بابعاد جميع الخدم الخصيان من السودان عن قصر الخلافة الفاطمية ، اثر نهوض مايزيد على خمسين الف منهم بالثورة ضده (٥)

(١) ابن واصل : المصدر السابق جزء ١ ص ١٧٤ – الباز العريني : المرجع السابق ص ٣٥

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ص ١٧٤ – ١٧٥، ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ، ص ١٨٣ – ١٨٤ ، الحنبلي : المصدر السابق ص ٧١ — Wiet : L'egypte Arabe . , Paris ., P 3oo

(٣) الحنبلي: المصدر السابق ،ص ٧٢ – ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ص ١٨٤

(٤) ابو شامة :المصدر السابق ،جزء ١ ص ١٧٨ – ابن الاثير: الكامل في التاريخ جزء ١١ ، ص ٣٤٥ – ٣٤٦ – الحنبلي : المصدر السابق ص ٧٢ ، على حين جاء في المقريزي : اتعاظ الحنفا ،جزء ٣ ص ٣١٢ ، ان قتله كان في ذي القعدة .

(٥) ابو شامة : المصدر السابق جزء ١ ، ص ١٧٨

فقضى على بعضهم من المشاغبين [1]، وجعل آمر الاشراف على القصر الى بهاء الدين قراقوش وهو خصي أبيض من اتباع صلاح الدين [2]

وهكذا تخلص صلاح الدين من عناصر الخيانة ، ولم يبق امامه الا كبار الاقطاعيين وملاك الاراضي ، الذين يدفعهم الخوف على ممتلكاتهم وضياعهم الواسعة الى مساندة الفساد ، والحرص على عدم تغيير الاوضاع القائمة ، فتخلص صلاح الدين منهم ، واحل محلهم في اراضيهم جماعة من رجاله من آهل الشام [3] .

كان صلاح الدين في هذا الدور يقوم باعماله بوصفه نائبا عن نور الدين في مصر ، مما جعل نور الدين يعطف عليه ويرعاه فخاطبه بمكاتباته بلقب امير • وحقيقة الامر ان صلاح الدين لم يكن باستطاعته في هذا الوقت الاستغناء عن معونة نور الدين ، ومازال الطريق امامه مليئا بالصعاب في داخل البلاد ، في الوقت الذي كان فيه الصليبيون يتحفزون على الحدود الشرقية [4]

---

(١) ابن الاثير : المصدر السابق جزء ١١ ص ٣٤٦ - ٣٤٧
المقريزي : اتعاظ الحنفا ، جزء ٣ ، ص ٣١٢

(٢) المقريزي : المصدر السابق ،جزء ٣ ص ٣١٢
ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ،ص ١٨٤ - الحنبلي : المصدر السابق ،ص ٧٢

(٣) المقريزي : المصدر السابق ،جزء ٣ ، ص ٣١٣ - عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، ص ٢٠

(٤) عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ٢ ص ٧٠٩

ب ـ أعماله ضد الصليبيين فترة وزارته :

ـ صد الصليبيين عن دمياط

شعر الصليبيون في الشام بالقلق والرعب بعد ان استقرت أمور مصر ، وأصبحت تابعة لنور الدين ، وأدركوا أنهم أصبحوا بين فكي كماشة ، وان القوات النورية أحاطت بمملكة بيت المقدس الصليبية من الشمال الشرقي والجنوب الغربي . واضافة الى ذلك فان الدولة النورية سلبت الصليبيين السيادة على الجزء الشرقي من البحر الابيض المتوسط لتملكها الاسكندرية ودمياط وغيرهما من الموانئ .

أدى قلق عموري الى طلب المعونة من غرب اوربا ولما لم يحصل عليها اتجه الى البيزنطيين ، فوافقوا وجاؤوا عن طريق البحر الى دمياط (١) .

نهض صلاح الدين لمقاومة الحلفاء بما عنده من جند ، وبما وصله عن طريق نور الدين (٢) وفشلت هذه الحملة لاسباب متعددة . ولعل من أهم نتائجها انها ثبتت أقدام صلاح الدين في مصر ، وجعلت الخلافة الفاطمية تفقد آخر أمل تبقى لها في التخلص من صلاح الدين . وكان أن أرسل الخليفة الفاطمي عقب انسحاب الصليبيين الى نور الدين يرجوه سحب جند الاتراك من القاهرة بحجة أنهم بثوا الرعب في قلوب أهلها . ولكن نور الدين ارسل اليه يعتذر عن عدم

(١) الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٧٣ ـ عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين ص ٧٣

(٢) ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ص ١٨ ـ الحنبلي: المصدر السابق ، ص ٧٣

اجابتـه الى طلبه ، ووضح له أن بقاء اولئك الجند آمر ضـروري لحماية مصر من خطر الصليبيين (١) .

ازداد موقف نور الدين قوة في تلك الفترة بجعل الموصل تحت سلطانه اثر وفاة أخيه ، كما سيطر على نصيبين ووادي الخابـور. وليس أدل على قوة نور الدين في العالم الاسلامي حينئذ من أن الخليفة العباسي المستضيء أرسل اليه وهو على حصار الموصل خلعة وتكريما (٢)

- هجوم صلاح الدين على الصليبيين

كان انتصار صلاح الدين على الصليبيين والبيزنطيين في دمياط نقطة تحول هامة في العلاقات بين الطرفين ، فما أن ثبت اقدامه حتى بدأ يوجه جهوده ضد الصليبيين فبدأ بقلاعهم على شواطئ فلسطين كقلعة الداروم ومدينة غزة ، ثم توجه الى ايله وفتحها .

كما شدد نور الدين هجماته على الصليبيين ، فأرسل قـوة لمهاجمة امارة انطاكية في ذي الحجة ٥٦٦ هـ / ايلول سنة ١١٧١ م، وفرقة اخرى فتحت قلعتي عرقة وصافيتا ، في حين هاجم بنفسه امارة طرابلس . وقد قدم بهذه الهجمات الشديدة والمتتابعة عقوبة

---

(١) عاشور: المرجع السابق ،ص ٢٢ - ٢٣ ،الشيال: تاريخ مصر الاسلامية في العصرين الايوبي والمملوكي ، الجزء الثاني ، دار المعـارف ١٩٦٧ م ،ص ٢٥

(٢) ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ،ص ١٨٦ - ١٩٠
ابن الاثير : الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ،ص ٣٦٢ - ٣٦٤
ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٩٠ - ١٩١

للصليبيين الذين نقضوا الهدنة ، واستولوا على مركبين للمسلمين مملوءين بالامتعة ولم يدع الهجوم الا بعد أن أفرج الصليبيون عن السفينتين .

وقد شعر الصليبيون نتيجة لذلك بتضييق الزنكيين عليهم عليهم وأنه اصبح لزاما عليهم أن يوزعوا قواتهم بين الشمال والجنوب لمواجهة نور الدين وصلاح الدين ، فحاول ملكهم عموري الاستعانة بالبابوية والغرب الاوربي ، الا ان أمله في الحصول على نجدة سريعة كان ضعيفا ، ولم يكن أمامه الا اللجوء الى الامبراطورية البيزنطية ، فابحر للقاء امبراطورها مانويل كومينين وأوضح له الحالة السيئة التي أمس فيها الصليبيون ، وطلب منه معونة عاجلة ، وقبل مقابلها أن يعترف بالتبعية للامبراطور البيزنطي .

٣- سقوط الخلافة الفاطمية :

كان نور الدين يلح على صلاح الدين بالعمل على اسقاط الخلافة الفاطمية ، وكذلك كان الخليفة العباسي المستنجد بالله يرسل لنور الدين معاتبا له على تأخير اقامة الخطبة العباسية بمصر . ومن أجل ذلك أرسل نور الدين نجم الدين ايوب والد صلاح الدين حاثا له على الاسراع باعلان الخطبة العباسية (١) .

ولم يكن صلاح الدين أقل تحمسا لهذا العمل من غيره ، ولكنه لم يستطع اتخاذ اجراء كهذا قبل اتخاذ الاحتياطات اللازمة بشكل

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ،ص ٣٥٣
ابن واصل : المصدر السابق ،جزء ١ ص ٢٠٠

بشكل تدريجي ، ولئلا يثير حوله النقمة وغضبة الخليفة العاضد ، الذي لم يبخل في تقديم المعونة له ابان هجوم الصليبيين والبيزنطيين على دمياط [1]. ولذلك فانه عمل على التقرب من الاهالي والتضييق على أنصار العاضد تدريجيا . فأمر برفع جميع المكوس وابطالها بمصر [2] ثم أخذ بهدم الاساس المعنوي الذي قامت عليه الخلافة الفاطمية بعد حرمانها من بقايا قواتها العسكرية . فأبطل مجلس الدعوة بالازهر [3]، وأخذ ببناء مدارس تدرس على المذاهب السنية ، فنهض بهدم حبس المعونة وعمرها مدرسة للشافعية ، وهي أول مدرسة عمرت بمصر لالقاء العلم [4] كما أنشأ بدار الغزل مدرسة للمالكية بجوار جامع عمرو بن العاص ، عرفت باسم المدرسة القمحية [5]، كما جعل تقي الدين عمر منازل العز بمصر مدرسة اخرى للشافعية ، عرفت باسم المدرسة التقوية ، ووقف عليها الاوقاف [6]. وكذلك عزل قضاة مصر من الشيعة وولى فيها صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعي قاضيا للقضاة ،

---

(١) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٨٦

(٢) المقريزي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣١٩

(٣) المقريزي : المصدر السباق ،جزء ٣ ،ص ٣١٩ — ٣٢٠ — الحنبلي: المصدر السابق ،ص ٧٤ — ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ١٩٤

(٤) المقريزي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣١٩

(٥) المقريزي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣١٩

(٦) المقريزي : المصدر السابق ،جزء ٣ ،ص ٣٢٠ وحاشية ٣ لنفس الصفحة الحنبلي:المصدر السابق،ص ٧٤— ٧٥ — ابن قاضي شهبة :المصدرالسابق ص ١٩٤ — ابو المحاسن: المصدر السابق،جزء ٥ ،ص ٣٨٥ — ٣٨٦ .

وجعـل اليه الحكم فـي جميع بلاد مصـر (١) .

كمـا عمل على احضـار اقـاربه وأصحابه الى مصر ، وزيـادة عـدد جنده [٢] وتحصين مصـر ، فـاهتم بعمـارة السور الجديد لـمدينـة القـاهرة [٣] ، وأمر بـاصلاح السور والابـراج في الاسـكندرية فـعمر ماتـهدم منـه [٤] ، ثم قضـى على انصار العـاضـد ورجالـه ، وذلـك بـأن طلـب من آمراء النشـابيـن ان يمضوا الى بيوت الامراء المصريين في الليـل ، ويقف كل آمير منهـم بجنده على بـاب آمير من امراء مصـر ، فـاذا خـرج للخدمـة قبـض عليـه واحتـاط على داره ومـا فيهـا وأخذهـا لـنفسه . ولـم ينـتشر الضـوء حتى صار الامراء الشـاميون مكـان المصريين ، ولـمـا بلـغ ذلـك العـاضـد شـق عـليه ، وآرسل الى صلاح الدين يسـألـه عن سـبـب القبـض على الامراء ، فبعث اليـه بـأن هؤلاء الامراء كـانـوا عصـاة لـه والمصلحة اقـامة غيرهـم يمتثلون اوامره (العـاضد) فـأرضاه بـذلـك [٥]

---

(١) المقريزي : اتعـاظ الحنفـا ، جزء ٣ ،ص ٣٢٠ - ابن قـاضي شُهبـة : المصدر السـابق ، ص ١٩٤
- ابـو المحاسن : المصدر السـابق ، جزء ٥ ، ص ٣٨٥ ، ٣٨٦
(٢) المقريزي : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٣٢٠
(٣) ابـو شـامه : المصدر السـابق ، جزء ١ ، ص ٣٢١- المقريزي : المصدر السابـق ، جزء ٣ ، ص ٣٢١
(٤) المقريزي : المصدر السابق ،جزء ٣ ،ص ٣٢٠ - ابـن قـاضي شهبـة : المصدر السابـق ، ص ١٩٥
(٥) المقريزي : المصـدر السـابق ، جزء ٣ ، ص ٣٢١ .

أمر صلاح الدين بتغيير شعار الفاطميين وأبطل ذكر اسم العاضد من الخطبة ، وساعده على اتمام طريقه مرض العاضد الذي غلب على الظن أنه لن يشفى منه . ولم يحتج أحد على اقامة الخطبة العباسية ، وكان العاضد قد اشتد به المرض فتوفي بعد ثلاثة ايام دون أن يدري بشيء مما حدث . فقد منع صلاح الدين رجال العاضد من ازعاجه بهذا الخبر اثناء مرضه . وبذلك سقطت الخلافة الفاطمية (١) واتخذ صلاح الدين بعض الاجراءات الاحتياطية ، منها انه قبض على ابناء العاضد وأقاربه ونقلهم الى قلعة الجبل (٢). وقام بازالة معالم الخلافة الفاطمية (٣) .

كان سقوط الخلافة الفاطمية حدثا خطيرا في تاريخ العالم العربي الاسلامي ، فقد عادت وحدة الخلافة وأقيمت بهذه المناسبة الاحتفالات في عاصمة العباسيين في بغداد تعبيرا عن شعور الفرح بذلك النصر العظيم ، وأنعم الخليفة العباسي بهذه المناسبة على نور الدين وصلاح الدين ، فأرسل لهما الخلع والاعلام والرايات السود .

٤- العلاقات بين صلاح الدين ونور الدين زنكي بعد سقوط الخلافة الفاطمية :

ما ان سقطت الخلافة الفاطمية ، حتى اصبحت هناك صعوبة في تحديد العلاقة بين نور الدين محمود وتابعه صلاح الدين . فقد كان

---

(١) ابن واصل : المصدر السابق ،جزء ١ ،ص ٢٠١ - ابن قاضي ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ، ص ١٩٦ - ١٩٧

(٢) المقريزي : المصدر السابق ،جزء ٣ ، ص ٣٤٧ - ويذكر ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ص ٢٠٠ - ابو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٠

(٣) المقريزي : السلوك في معرفة دول الملوك ،جزء ١ ، ص ٤٣

صلاح الدين ايام الخلافة الفاطمية يمارس سلطانه في مصر بوصفه وزيرا للفاطميين في الوقت نفسه الذي ينفذ فيه تعليمات نور الدين بوصفه نائبا عنه في مصر وقائدا لقواته فيها . ولكنه بعد ان عمل على اسقاط الخلافة الفاطمية ، وشعر بدوره الكبير في هذا المجال ، اراد أن لايضيع جهده هبا ، وان يثبت مكانته والخدمات الجلى التي قدمها ، فخطب لنفسه بعد الخطبة للخليفة العباسي وللملك العادل نور الدين . وقد يكون صلاح الدين لايقصد بذلك الاستقلال عن سيده نور الدين ، كما أنه لم يكن اول من قام بهذا العمل . ولكن الامر أعطي هالة كبيرة لعدة أمور :

أولها أن نور الدين كان يخشى من قوة صلاح الدين وصلابته

وثانيها : ان صلاح الدين كان يحكم بلادا اكثر اتساعا وقوة من تلك التي يحكمها سيده اضافة الى انها اكثر استقرارا .

وثالثها : ان صلاح الدين حقق في مصر امورا متعددة بجهده الخاص ولذلك فانه لابد وان يشعر بأنه ليس مقيدا كليا بنور الدين .

وقد يحلو لبعض المؤرخين ان يظهروا صلاح الدين يحاول الاستقلال عن نور الدين منذ فترة مبكرة ، وعلى رأس هؤلاء ابن الاثير ، وابن ابي طيء . فقد جعل ابن الاثير من تأخر صلاح الدين في القضاء على الخلافة الفاطمية محاولة منه لجعلها ستارا بينه وبين نور الدين ، فأورد قوله (1). (وكان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم ويريد بقاءهم خوفا من نور الدين ، فانه كان يخافه

---

(1) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٣٦٨

أن يدخل الى الديار المصرية يأخذها منه • فكان يريد أن يكون العاضد معه ، حتى اذا قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه) كما انه جعل احجام صلاح الدين عن قتال الصليبيين على نطاق واسع في الفترة التي تلت سقوط الخلافة الفاطمية ليبقيهم ستارا يفصل بينه وبين نور الدين (١) • وقد يكون موقف ابن الاثير هذا من صلاح الدين لانه ينتمي الى أسرة تعمل في خدمة الزنكيين، الذين أصبحوا أعداء ألداء للايوبيين •

أما موقف المؤرخ الاخر ابن ابي طيء ، فقد بدا واضحا من الروايات التي وردت على لسانه في ثنايا كتاب ابن قاضي شهبه • فقد حاول تشويه موقف نور الدين باظهار وتأكيد عدم ابتهاجه للنجاح الذي حققه الايوبيون في مصر بقيادة شيركوه على شاور والصليبيين (٢) • كما صور غضب نور الدين لتسلم صلاح الدين للوزارة الفاطمية فقال : (ولما استولى الملك الناصر (صلاح الدين) على الوزارة ، ومال اليه العاضد ، وبلغ ذلك نور الدين ، أعظم ذلك وأكبره ، وتأفف منه وأنكره ، وقال : كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئا بغير أمري • وكتب عدة كتب ، فلم يلتفت الملك الناصر الى قوله ، الا انه لم يخرج عن طاعته) (٤).

(١) ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٦١ – الكامل في التاريخ جزء ١١ ، ص ٤٠٢

(٢) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٨١ – ١٨٢

(٣) انظر رواية ابن ابي طيء في كتاب ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٨١

لم يقتنع نور الدين بذلك ، واستاء من موقف صلاح الدين، وعظم عليه تصرفه ،وبدا يستعد للزحف على مصر لتأديبه . فعقد صلاح الدين اجتماعا من أهل بيته وأمرائه وقر رأي بعضهم الوقوف موقفا صلبا من نور الدين وقتاله اذا حاول مهاجمة البلاد. ولكن نجم الدين ايوب حسم الموقف بذكاء وحسن تقدير . اذ أوضح لابنه بأنهم قادة لنور الدين تجب عليهم طاعته . وانه لو أمرهم بقتله قتلوه ، وطلب من ولده صلاح الدين ان يكتب لنور الدين يعرب عن ولائه ، ففعل ذلك ، وأرسل الى سيده أيضا هدية ثمينة من الحيوانات النادرة والجواهر والاقمشة والمصنوعات والعطور (١)

ثم جرت مفاوضات بين نور الدين وصلاح الدين ، على أن يخرجا معا لحصار حصن الكرك شاتية والاستيلاء عليه . وبدأ صلاح الدين الحصار ، وحين بلغه قرب مجيء نور الدين ليساعده خشي منه ، فترك حصار الكرك وعاد الى مصر معللا عمله هذا بمرض أبيه نجم الدين ايوب الذي كان صلاح الدين قد استخلفه في مصر ،وأنه يخشى ان توفي خروج البلاد من أيديهم (٢) . فلم يقتنع نور الدين بهذا الاعتذار ، وبدأ يوجس خيفة من نوايا صلاح الدين .

---

(١) ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٠٤
ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ، ص ٢١٣ — ٢١٤
ابو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٣

(٢) ابو شامة :
المصدر السابق ،جزء ١ ، ص ٢٠٦ ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧
ابو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ٢٣

وقد يكون سبب موقف ابن ابي طيء هذا من نور الدين ، ماحل بأسرته من فقدان لنفوذها الديني في حلب ، بسبب موقف نور الدين المتشدد فيها من الشيعة الاثنى عشرية . وهكذا يصور لنا المؤرخون ان خلافا مبكرا نشب بين نور الدين وصلاح الدين، وهما على الرغم من نزاهتهما في الكتابة التاريخية ، كانا من أصحاب الاهواء اما ضد الايوبيين أو ضد الزنكيين . وحقيقة الامر ان العلاقة بين الطرفين كانت طبيعية للغاية في مطلع الامر ، ثم بدأ تخوف الطرفين من بعضهما لمحاولة نور الدين الاهتمام بالوحدة بين أملاكه في الشام وأملاكه في مصر ، ومحاولة صلاح الدين الحفاظ على مكاسبه وخشيته من عزله ، وقد تبدت هذه الوحشة وخوف صلاح الدين من نور الدين على رأي بعض المؤرخين بما يلي :

١- حين خرج صلاح الدين في جولتين ضد الصليبيين الى الكرك والشوبك ففي المرة الاولى كان نور الدين قد أصدر أوامره الى صلاح الدين بمهاجمة الشوبك ، فخرج اليها في مطلع سنة ٥٦٧ هـ / أواخر ايلول سنة ١١٧١ م وهاجم الحصن . وحين علم بمسير نور الدين اليه لمساعدته ، خشي أن تكون غايته عزله عن منصبه والقبض عليه . فأسرع بالانسحاب الى مصر قبل وصول نور الدين في صفر سنة ٥٦٧ هـ / اواخر تشرين الاول ١١٧١ م ، معتذرا بانه لابد له من الاسراع لمساعدة أخيه الذي يحارب بقايا اتباع الفاطميين في الصعيد ، وبأن الثورة تنذر بالاشتعال في القاهرة مما تطلب سرعة عودته (١) .

(١) ابو شامة : المصدر السابق ،جزء ١ ص ٢٠٣-٢٠٤ ابن قاضي شهبة : المصدر السابق،ص ٢١٢-٢١٣ أبو المحاسن: المصدرالسابق،جزء ٦ ،ص٢١-٢٢

٢- اتخذ بعضهم من حركة التوسع التي قام بها صلاح الدين في اليمن وبلاد النوبة ، أنه قام بها ليبحث لنفسه وأسرته عن ملك جديد . حتى اذا أخرجه نور الدين من مصر ، انتقل بأسرته الى ملكه الجديد (١) . ولتحقيق غايته أرسل صلاح الدين أخاه توران شاه سنة ٥٦٨ هـ/ ١١٧٢ م لفتح بلاد النوبة ، فاستولى على قلعة بلدة ابريم ثم عاد لانه وجد البلاد قاحلة جرداء لاتصلح للغاية التي ارادها . ثم قام بارسال أخيه لفتح اليمن عوضا عن النوبة ، حيث أخضعها سنة ٥٧٠ هـ /١١٧٤ م (٢)

هذه هي الاراء التي يوردها بعض المؤرخين كدلائل للجفوة بين نور الدين وصلاح الدين ، وهي آراء لاتصمد اذا وضعت على بساط البحث والمناقشة . فمن المعروف ان الفترة الاولى كانت فترة وئام بين الطرفين ، وكان صلاح الدين يأتمر بأمر سيده نور الدين. فقد عين نور الدين لقضاء مصر قاضيه ابن ابي عصرون ، وأرسله الى مصر ، وكتب له كتاب التعيين الذي جاء فيه مدح وامتنان لصلاح الدين وأعماله . ومما جاء فيه : (... أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمنا النظر فيها ، فهي من الفتوحات الكبار التي جعلها الله تعالى دار اسلام بعدما كانت دار كفر ونفاق ... والان فقد تعين عليك وعلي ايضا أن ننظر الى مصالحها وما لنا أحد اليوم لها الا انت . ولا أقدر اولي أمورها ولا أقلدها الا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله . فيجب عليك وفقك الله أن تشمر عن ساق الاجتهاد ، وتتولى قضاءها ، وتعمل ماتعلم أنه يقربك الى الله ...

(١) ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٤
(٢) ابو المحاسن : المصدر السابق ،جزء ٦ ، ص ٢٣

وقد كتبت بخطي حتى لايبقى علي حجة . تصل أنت وولدك عندي حتى أسيركم الى مصر والسلام بموافقة صاحبي واتفاق منه صلاح الدين وفقه الله ، فأنا منه شاكر كثير كثير كثير ، جزاه الله خيرا وأبقاه ، ففي بقاء الصالحين والاخيار صلاح عظيم ومنفعة لاهل الاسلام ....) (١)

وفوق هذا فان نور الدين أرسل لصلاح الدين أهله ليتقوى بهم ، كما أرفقهم باعداد كبيرة من الجند والمماليك . وحين وجه نجم الدين والد صلاح الدين الى مصر ، شاغل نور الدين الصليبيين لمنع الحاق الاذى به وبمه معه (٢). كما أخذ العهد من توران شاه أخي صلاح الدين ليكون في موقف التابع من أخيه (٣)

أما عن قضية ترك حصار الكرك والشوبك من قبل صلاح الدين حين يقترب نور الدين ، فحقيقة الامر ان مصر في سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١م حين خرج صلاح الدين الى الكرك والشوبك في المرة الاولى أي عقب اسقاط الخلافة الفاطمية مباشرة ، لم تكن الامور فيها خالصة لصلاح الدين ، وكان انصار الفاطميين يدبرون المؤامرات ، واضافة الى ذلك، فان فكرة الخروج عن طاعة نور الدين لم تراود صلاح الدين نفسه ، بل راودت فئة من قادته وأن صلاح الدين ، رفضها مباشرة (٤)

---

(١) ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٧٤

(٢) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٨٨ – ١٨٩

(٣) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٨٢

(٤) انظر الشيال : المرجع السابق ، ص ٣٤

أما عن عودة صلاح الدين في المرة الثانية من حصار الكرك والشوبك ، فانه كان فعلا بسبب مرض أبيه ووفاته • وكان أبوه في هذه الفترة نائبا عنه في مصر ،ووفاته تعني شغور مصر من قائدها ،مع وجود انصار للفاطميين قد يستغلون هذه الفرصة لصالحهم وقد توفي نجم الدين والد صلاح الدين فعلا في ١٨ ذي الحجة سنة ٥٦٨هـ في الوقت نفسه الذي كان فيه صلاح الدين في غزوه الثاني للكرك (١) •

ولم تكن حملة صلاح الدين الى بلاد النوبة الا بقصد تأديب بقايا الجند الفاطميين من السودانيين بعد ثورة مؤتمن الخلافة جوهر، والذين فروا الى الجنوب ،وأخذوا يتجمعون في بلاد النوبة ،ويهاجمون الصعيد لينطلقوا لاستعادة سلطانهم واعادة الدولة الفاطمية ،ويذكر ابن قاضي شهبة (٢) في هذا المجال انه في سنة ٥٦٨ هـ (اجتمع السودان العبيد من بلاد النوبة ،وخرجوا في أمم عظيمة قاصدين تملك بلاد مصر • وساروا الى اعمال الصعيد ،وصمموا على قصد اسوان وحصارها ونهب قراها • وكان بها كنز الدولة ،فأرسل يعلم الملك الناصر (صلاح الدين) وطلب منه نجدة •••• فلما وصل الى اسوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخربوا أرضها ،فأتبعهم الشجاع وكنز الدولة ••• فأرسل الملك الناصر أخاه شمس الدولة في عسكر كثيف فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة ،فسار اليهما ونزل على قلعة ابريم وافتتحها بعد ثلاثة أيام ••••) •

---

(١) أبو شامه المصدر السابق ،جز١ ،ص ٢٠٩- ابن الاثير: الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ،ص ٣٩٣ •

(٢) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ،ص ٢١٨-٢١٩- وانظر أيضا أبو شامه :تاريخ الروضتين ،جز١ ،ص ٢٠٨-٢٠٩ عن رواية للعماد الاصفهاني وأخرى لابن أبي طيء •

وكذلك كان الدافع الى حملة اليمن التخلص من انصار الفاطميين فيها كالدولة الصليحية ،ودولة بني زريع ،ودولة بني مهدي . وهي مهمة سياسية تعد تتمة لعمله في القضاء على الخلافة الفاطمية ،نهض بها صلاح الدين خير نهوض(١) . اضافة الى الفوائد الاقتصادية التي يجنيها من وراء سيطرته على منفذي البحر الاحمر، وهو سبب هام وكاف لارسال مثل هذه الحملة .

وأما الاسباب المباشرة التي دفعته الى القيام بفتح اليمن فتكمن في أن والي اليمن عبد النبي بن مهدي كان قد قطع الخطبة العباسية ، وابتدع امورا جديدة في الدين ، فأمر الناس بالحج الى قبر ابيه دون مكة المكرمة ، وادعى النبوءة ، بل الالوهية عند البعض ، وظلم الناس وفتك بهم (٢)

ويذكر بعض المؤرخين أن أحد اخوة عبد النبي بن مهدي استنجد بالخليفة العباسي ضد أخيه ، فكتب الخليفة الى الناصر صلاح الدين طالبا منه أن يرسل عسكره لقتاله . فأرسل صلاح الدين الى سيده نور الدين يستأذنه في إرسال هذه الحملة (٣) فاذن له . وتم ذلك في رجب سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م قبل وفاة نور الدين بأشهر قليلة (٤) على ان بعض المؤرخين المتحاملين على صلاح الدين ،

---

(١) محمد جمال سرور : النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ،ص ١٠٥

(٢) ابو شامة : المصدر السابق،جزء ١ ،ص ٢١٦ – ٢١٧
ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٤٦
ابن الاثير : المصدر السابق جزء ١١ ،ص ٣٩٦– ٣٩٨
ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ،ص ٢٢١ – ٢٢٢

(٣) الشيال : المرجع السابق ، ص ٣٦ – ٣٧

(٤) ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٤٧

وعلى رأس هؤلاء ابن الاثير ، ذكروا ان صلاح الدين قام بفتح اليمن لاتخاذها مركزا له في حال فراره من نور الدين ، ولا يعقل ان نفهم هذا الامر اذا عدنا الى ماذكرته المصادر من انه استشار نور الدين بالفتح ،وأن نور الدين اذن له .

ويمكن القول ان صلاح الدين اراد من هذه الحملة تأمين اقتصاده وقوته الحربية بجعل مدخل البحر الاحمر الجنوبي تحت نفوذه ، بعد أن جعل مدخله الشمالي بيده منذ وزارته للعاضد الفاطمي حين استولى على قلعة ايلة . ويتضح ذلك بشكل اكثر حين نعلم اهتمام صلاح الدين بتقوية التجارة في مصر . وأنه من أجل هذا السبب فتح بلاده للتجار الايطاليين ، وعقد معهم معاهدات تجارية ، وبخاصة ممثلي البندقية وجنوه وبيزا منذ سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م [١] وقد قام التجار الايطاليون بذلك على الرغم من قرارات البابوية بمنع التجارة مع المسلمين ، والتي اضطر الى قصرها آخيرا على منع بيع المواد الخام التي تخدم مباشرة القوة الحربية لمصر [٢].

وكتب صلاح الدين بمعاهداته التجارية الى الخليفة العباسي، مبررا قيامه بهذه المعاهدات [٣]. وبهذا يمكن ان ننفي أن سبب

---

1) - Wiet : Op . Cit , 3o7 - 3o9

(٢) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستوقراطية ،تعريب احمد عزت عبد الكريم ،وتوفيق اسكندر،القاهرة ١٩٤٨ ص ٥٨

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ،جزء ٢ ،ص ٢١ - ٢٣

- Wiet : Op . Cit . , P 315
- Baldwin : Crusaders . , P . 1 . , P 568

فتح صلاح الدين لليمن كان للبحث عن ملك جديد فرارا من نور الدين اذا حاول ان يهاجمه .

ولكن على الرغم من كل شيء ،فانه يمكن القول ان هناك تصرفات من صلاح الدين واسرته لم ترق لنور الدين . ففي الوقت الذي كان نور الدين بحاجة الى المال لقتال الصليبيين من جهة ،ولاعمار ماخربته الزلازل القوية التي حدثت في الشام في تلك الفترة وخاصة في سنة ٥٦٥ هـ/ ١١٧٠م [١]. فان صلاح الدين لم يرسل الى نور الدين من اموال مصر واموال الخلافة الفاطمية بعد القضاء عليها الا هدايا لاتسد الاموال التي انفقها نور الدين من اجل تحقيق هدفه في مصر، على حين ان آل صلاح الدين كانت لهم حصة الاسد من الغنيمة سواء من المال او الاقطاع . فعن المال يذكر صاحب الروضتين [٢] عن ذلك مايلي : (وأخلى دوره ،وأغلق قصوره وسلط جوده على الموجود،وابطل الوزن والعد عن الموزون والمعدود ،وأخذ كل ماصلح له ولاهله وامرائه ولخواص مماليكه وأوليائه من افاخر الذخائر وزواخر الجواهر، ونفائس الملابس ومحاسن العرائس وقلائد الفرائد ،والدرة اليتيمة والياقوتة العالية الغالية القيمة ....) . ويستمر صاحب الروضتين في احصاء ما آخذه صلاح الدين من النفائس ،ثم ماباعه من القصر من بقية الاشياء التي لايحتاج اليها . هذا عدا عما استولى عليه من قصور الامراء والقادة والمتنفذين لنفسه واسرته وامرائه ،على حين انه

---

(١) عن الزلازل انظر ابن الاثير : الكامل في التاريخ ،جزء ١١، ص ٣٥٤

(٢) المصدر السابق ،جزء ١ ، ص ١٩٤

اكتفى بارسال هدية الى نور الدين (١). اما الاقطاع فلن اورد الا امثلة عنه . فقد أقطع نجم الدين والده الاسكندرية ودمياط والبحيرة، كما اقطع آخاه شمس الدولة ،قوص واسوان وعيذاب ،وكانت عبرتها في هذه السنة مائتي الف وستة وستين آلف دينار (٢) .

لم يركن نور الدين الى الهدوء وهو يرى الاسرة الايوبية تتمتع بواردات مصر وهو بحاجة اليها لقتال الصليبيين واعمار الاسوار والتحصينات التي هدمتها الزلازل . فأعلن (أنه يريد الامدادات لمتابعة الجهاد ،وجرد وزيره الموفق القيسراني الى مصر (٣). وامره بعمل حساب البلاد واستعلام اخبارها وارتفاعها وأين صرفت اموالها فاذا حصل جميع ذلك ،ترر على صلاح الدين وظيفة يحملها له كل عام). وفي العام التالي استقبل صلاح الدين مبعوث سيده نور الدين ،فعمل له حسابا وعرضه عليه ،وتملص من ارسال الاموال الى نور الدين بحجة ان اقليم مصر لايضبط الا بالمال العظيم . ومما قاله له :(أنت تعرف أكابر الدولة وعظماءها ،وانهم اعتادوا من السعة والدعة على نعمائها . وقد تصرفوا في مواضع لايمكن انتزاعها ، ولايسمحون بان ينتقص ارتفاعها . فالموارد مشفوعة والشدائد مكروهة) وبذلك اتضح أن غاية صلاح الدين من ابقاء اموال مصر فيها ، ربط مصالح الامراء والقادة بمصلحة حكمه في مصر (٤) .وأن نور الدين آنكر

(١) انظر فيما سبق وانظر ابو شامه : المصدر السابق ،جزء ١ ،ص ٢٠٦ ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١ ص ٢٢٦ - ٢٣٢
(٢) انظر حول ذلك كل من ابي شامه : الروضتين : جزء ١ ،وابن الاثير الكامل في التاريخ ،جزء ١١
(٣) انظر ابن واصل : المصدر السابق ،جزء ١ ، ص ٢٣٢ - ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ، ص ٢٢٣- Baldwin : Op. Cit ., P 366
(٤) ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢١٩

عليه افراطه في توزيع الاموال،واستبداده في ذلك من غير مشاورته (١) ويبدو أن نور الدين لم يشأ أن يوسع شقة الخلاف بينه وبين صلاح الدين ، وأراد أن يبقي مصر بيد صلاح الدين ظهيرا له في الشام ، ولكنه مع ذلك كان يؤلمه أحيانا بجارح كلامه. وفي ذلك يقول صلاح الدين (... والله لقد صبرت منه على مثل حز المدى ووخز الابر ، وماقدر واحد من اصحابه أن يجد عليّ مايعده ذنبا فلم يقدر. ولقد كان يعتمد في مخاطباتي ومراسلاتي الاشياء التي لايصبر على مثلها ، لعلي أتضرر أو أتغير، فيكون ذلك وسيلة الى منابذتي . فما أبلغته اربه يوما قط)(٢).

توفي نور الدين والوضع فيه بعض الغيوم بينه وبين صلاح الدين أوجدها الغاضبون والحاقدون على صلاح الدين من القواد المتصلين بنور الدين ، غيوم لم تصل الى حد امتشاق السيف ، وذلك في شوال سنة ٥٦٩ هـ منتصف ايار ١١٧٤ م (٣). ودفن بقلعة دمشق (٤). وكانت وفاته بعد ان غرس غرسة طيبة بين قادته ومواليه ، تلك هي توحيد مصر والشام والانطلاق الى قتال الصليبيين .

٥- أعمال صلاح الدين بين وفاة نور الدين والحملة الصليبية الثالثة :

آ - القضاء على اتباع الفاطميين :

قامت مؤامرة كبرى في وجه صلاح الدين في رمضان سنة ٥٦٩ هـ ابريل نيسان ١١٧٤ م، قبل وفاة نور الدين زنكي بشهر واحد. فقد تجمعت القوى المعارضة لصلاح الدين والقوى المؤيده للفاطميين ودبر

(١) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق،ص١٨١ عن رواية لابن ابي طيء
(٢) ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ١٨٣ نقلا عن ابن ابي طي
(٣) ابن شداد : المصدر السابق ،ص ٤٧ - ابن قاضي شهبة : المصدر السابق،ص ٢٢٨ - ٢٢٩
(٤) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جز ١١ ، ص ٤٠٢

هؤلاء مؤامرة للقضاء عليه ، وللعمل على اعادة الخلافة الفاطمية ، وكان ممن اشترك في هذه المؤامرة داخل مصر ، أعوان الخلافة الفاطمية من رجال القصر وامراء الجيش وجنده من السودانيين ، ونفر ممن قطعت أرزاقهم بقطع مرتباتهم ، أو أخذت اقطاعاتهم ، أو ممن أصابهم ضرر من الاضرار نتيجة للقضاء على الخلافة الفاطمية (١).

وعلى رأس هؤلاء الشاعر عماره اليمني ، وعبد الصمد الكاتب والقاضي العويرس داعي دعاة الشيعة وابن عبد القوي (٢)، ووافقهم جماعة من امراء صلاح الدين وجنده (٣). وقد جعل بعض المؤرخين تحريض عماره اليمني لتوران شاه على الخروج لفتح اليمن لاضعاف قوة صلاح الدين في مصر ، ولتحقيق النجاح لهذه المؤامرة .

أراد المتآمرون أن يعملوا جاهدين على نجاح ثورتهم ، ولتحقيق ذلك كان لابد من الاستعانة بقوة خارجية ، فأقدموا على الاتصال بمقدم الاسماعيلية في الشام وبالصليبيين في كل من الشام وصقليه ، وحددوا دور كل جهة على حده . فالاسماعيلية في

---

(١) انظر الشيال : المرجع السابق ، ص ٣٨

(٢) انظر ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٣٩٨
ابن قاضي شهبة : المصدر السابق ، ص ٢٢٦
الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٨٢ -- ٨٣
المقريزي : السلوك ، جزء ١ ، ص ٥٣
عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، ص ٣٠

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٣٩٩

الشام يعملون على اغتيال صلاح الدين (١). والصليبيون في الشام وعلى رأسهم ملك بيت المقدس يعمل على غزو مصر من ناحية الشرق برا ، وأن يقوم وليم الثاني النورماندي من صقلية بمهاجمة الاسكندرية باساطيله ، في الوقت الذي يشعل به المتآمرون الثورة في القاهرة والفسطاط ، فيقع صلاح الدين بذلك بين نارين (٢). واختار المتآمرون فرصة غياب توران شاه في اليمن موعدا لتنفيذ مؤامرتهم حتى لايحل محل آخيه حين يقتل . كما عينوا أعضاء الجهاز الحكومي الجديد ، وعينوا الخليفة والوزير ، وتقاسموا الدور والاملاك (٣) ، ونظموا طريقة التخلص من صلاح الدين بشكل دقيق وحسبوا حسابا لجميع الاحتمالات حتى أصبح كل شيء معدا للتنفيذ (٤)

أراد عموري الاول أن يرسم الترتيبات النهائية مع المتآمرين قبل تنفيذ المؤامرة ، فأرسل من آجل ذلك ،رسولا الى القاهرة يعمل في ظاهر الامر على حمل تحيات عموري الاول لصلاح الدين ، فكشف صلاح الدين أمره بمراقبته عن طريق بعض اقباط مصر (٥) . ويقال أنه عرف ذلك في اللحظة الاخيرة بفضل الفقيه الواعظ زين الدين علي بن نجا ، الذي آشركه المتآمرون معهم . فعمل على اطلاع صلاح الدين على جميع حلقات المؤامرة . ولما تأكد صلاح الدين من تفصيلاتها قبض على المتآمرين فورا ، وصلب زعماءهم في

(١) ابو شامه : المصدر السابق،جزء ١ ،ص ٢١٩ - ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ١،ص ٢٤٤ - ٢٤٩ — Wiet : Op. Cit., P 311

2- Wiet : Ibid

(٣) ابن واصل : المصدر السابق،جزء ١،ص ٢٠١ - ابن الاثير: الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ،ص ٣٩٨ - ٣٩٩

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٣٩٩

(٥) ابن الاثير: المصدر السابق،جزء ١١،ص ٣٩٩ - ابن قاضي شهبه : المصدر السابق ص ٢٢٥

رمضان ٥٦٩ هـ /نيسان ١١٧٤م ،في حين اختفى ابن الخليفة العاضد [illegible] (١).

وفي تلك الاثناء توفي عموري الاول ملك بيت المقدس على أثر [illegible] في التنفيذ خطة غزو مصر في نهاية ذي القعدة سنة ٥٧٠ هـ / تموز يوليو ١١٧٤ م . ولم يلبث أن وصل اسطول صقلية في [illegible] ذي القعدة ٥٦٩ هـ (٢) فوجد أن المؤامرة قد فشلت . وعلى الرغم من ذلك فانه أراد أن يستعرض عضلاته ، فشدد هجماته على الاسكندرية محاولا اقتحامها ، ودمر بعض السفن التجارية الراسية في ميناء الاسكندرية ، ولكنه لم يستطع أن يفعل اكثر من ذلك بسبب مقاومة أهالي المدينة ، وحرق سفن النورمان ، ثم قدم صلاح الدين من فاقوس مسرعا لتخليص الاسكندرية ، فهاجم النورمان وأغرق بعض سفنهم ، وأحرق خيامهم ، وأنزل بهم الهزيمة ، فاقلعوا بسفنهم خائبين (٣) .

كما قامت ثورة اخرى في وجه صلاح الدين في اسوان على حدود النوبة ، وقد أشعلها أحد القادة الفاطميين واسمه كنز الدولة (٤) ، طمعا في استعادة ماكان لهم في أيام

---

(١) ابن الاثير: المصدر السابق ، جزء ١١،ص ٤٠٠ - ابن قاضي شهبة: المصدر السابق ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١، ص ٤١٢ - ابن كثير: البداية والنهاية ، مكتبة المعارف بيروت الطبعة الثانية ١٩٧٧ جزء ١٢ ، ص ٢٧٧

(٣) ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٤٨ - ابو شامه: المصدر السابق جزء ١ ،ص ٢٣٤ - ٢٣٥ ابن الاثير: المصدر السابق: جزء ١١ ،ص ٤١٢

(٤) ابن واصل: المصدر السابق،جزء ١ ،ص ٢٢٩- أبو شامة: المصدر السابق جزء ١ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥

الفاطميين (١) • جمع كنز الدولة حوله بعض العناصر من ... وغيرهم ، وأوهمهم بأنه يريد اعادة الخلافة الفاطمية ، ... بهم على قوص • فأرسل اليهم صلاح الدين حملة بقيادة ... الملك العادل سيف الدين ، استطاعت في صفر سنة ٥٧٠ هـ / ... ايلول ١١٧٤ م أن تقضي على اولئك الجند السودان قضاء ... تستأصل شأفتهم (٢) .

٦- صلاح الدين والوحدة العربية :

آ - الوضع في مصر والشام اثر وفاة نور الدين :

حين توفي نور الدين زنكي ، بويع ابنه الصالح ... بالسلطنة ، ولكنه لم يستطع السيطرة على أملاك أبيه ... كانت مصر واليمن بيد الاسرة الايوبية ، على حين أن بلاد ... كانت موزعة الولاء بين الاسرة النورية والصليبيين • وقد ... كل مدينة كبيرة من مدن الشام على حده ، وتنافست في ... الصالح اسماعيل اليها •

كان الصالح اسماعيل صغيراً في السن حين تولى الحكم ... يتجاوز عمره الحادية عشرة (٣) ، فأراد كل من كبار ... يكون الصالح اسماعيل في كنفه • وقد اسفر ذلك عن تحركات ...

(١) أبو شامة : المصدر السابق ،جزء ١ ،ص ٢٣٥ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٤٧ - ٤٨

(٢) ابو شامة : المصدر السابق،جزء ١ ،ص ٢٣٥ - ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٤٧ - الحنبلي : المصدر السابق ، ص ٨٣ - ٨٤

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٤٠٥

على الشكل الاتي :

تنافس كل من شمس الدين محمد بن المقدم في دمشق ، وشمس الدين علي بن الداية في حلب على السيطرة على الصالح اسماعيل . وقد ساعدت الظروف ابن الداية ، ومالت كفة الميزان لصالحه حين هادن ابن المقدم الصليبيين ، ودفع لهم مبلغا من المال ، وأطلق من عنده من أسراهم ، رغبة منه في الحفاظ على مركزه ، وحماية لمدينة بانياس التابعة له ، وذلك اثر انتهاز الفرنج فرصة موت نور الدين ،واضطراب أمور الدولة ، ومهاجمتهم لمدينة بانياس بقصد الاستيلاء عليها .

استغل شمس الدين بن الداية الوضع ، ونقل الصالح اسماعيل الى حلب ، مدعيا بأنها المقر الاصلي للدولة النورية ، وأنها الاقرب الى سيف الدين غازي صاحب الموصل والجزيرة ، الطامع في املاك نور الدين.(1) . ولكن الامور لم تصف لابن الداية في حلب ، بل نافسه فيها سعد الدين كمشتكين أحد كبار القادة ، فقبض على ابن الداية ،واستبد بأمر الصالح (2). وكانت حلب قد تعرضت لفتنة داخلية اثر وفاة نور الدين ، وذلك لان عناصر الاثني عشرية التي كانت كثيرة العدد في المدينة ، والتي خضعت للسطوة النورية ، رفعت رأسها اثر موته ، وحدث الاصطدام بينها بقيادة ابن الخشاب وبين بقية السكان والجند بقيادة بني الداية . وأسفرت

(1) ابن الاثير : التاريخ الباهر ،ص ١٦٣ ـ الكامل في التاريخ،جزء١١ ص ٤١٥

(2) انظر كيفية نقل الملك الصالح الى حلب في ابي شامة :المصدر السابق، جزء ١ ، ص ٢٣١ – ٢٣٢

المرحلة الاولى من هذا الصدام عن انتصار ابناء الداية الذين اعتصموا بالقلعة عندما هاجمهم الاثنى عشرية ، ثم انحدروا منها ، ودحروا خصومهم ، حتى وصلوا الى دار ابن الخشاب فنهبوها دون أن يتمكنوا من القبض عليه (١) .

أما الموصل ، فقد كان صاحب الحكم فيها سيف الدين غازي الثاني ابن عم الملك الصالح ، الذي ما أن علم بوفاة عمه حتى اسرع الى ضم مايليه من البلاد مثل نصيبين والخابور وحران والرها والرقة وسروج وغيرها (٢) . وقد سنحت له الفرصة بضم مدينة دمشق اليه حين استدعاه ابن المقدم ليسلمها له ، ولكنه خشي أن يكون في الامر مؤامرة مدبرة ، فلم يفعل (٣) .

ومما لاشك فيه ان هذه الخلافات في بلاد الشام كانت تهدد مركز العرب المسلمين تهديدا خطيرا في الوقت الذي كان الصليبيون يتوعدون ويتحفزون مما أدى ببعضهم الى المناداة بتحكيم صلاح الدين، وعلى رأس هؤلاء كمال الدين بن الشهرزوري الذي قال لمن معه : (قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر هو من مماليك نور الدين ، ونوابه أصحاب نور الدين ، والمصلحة أن نشاوره في الذي نفعله ولانخرجه من بيننا ، فيخرج عن طاعتنا ... وهو أقوى منا لانه قد انفرد اليوم بملك مصر) . (٤)

---

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١١ ، ص ٤١٥

(٢) ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٤٩

(٣) ابو شامة : المصدر السابق ،جزء ١ ،ص ٢٣٢ — ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٧٥ — الكامل في التاريخ ،جزء ١١، ص ٤٠٦ — ٤٠٧

(٤) ابن الاثير: المصدر السابق: جزء ١١،ص ٤٠٥ — التاريخ الباهر ص ١٦٢ — ابن واصل: المصدر السابق ،جزء ٢ ،ص ٣

واذا كان الامراء في الشام قد رفضوا تحكيم صلاح الدين، فان صلاح الدين كان يعرف ويقدر مركزه حق تقدير . فبادر هو بالكتابة الى الملك الصالح اسماعيل ، معاتبا له على عدم استدعائه لحماية املاكه من ابن عمه سيف الدين . كما كتب الى الامراء مبينا مركزه قائلا : (لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق به مثل ثقته بي لسلم اليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته . ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد الى أحد بتربية ولده ، والقيام بخدمته غيري ، واراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني . وسوف أصل الى خدمته واجازي انعام والده بخدمة يظهر اثرها ، واجازي كلا منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده) (١).

وهكذا فانه يتضح أن الدوافع التي أوجبت على صلاح الدين التدخل في امور الشام كانت كما يلي :

١- عدم قيام الامراء الذين سيطروا على الصالح اسماعيل بحماية أملاكه والحفاظ عليها أمام مطامع ابن عمه سيف الدين غازي الثاني (٢)

٢- اهتمام الامراء في بلاد الشام بتحقيق مطامع شخصية ،والتنافس بينهم من أجل تحقيقها ، مما أدى الى تفكك الجبهة الشامية ثانية بعد ان جهد نور الدين في توحيدها .

---

(١) ابو شامة : المصدر السابق،جزء ١،ص ٢٣١ - ابن الاثير: الكامل في في التاريخ ،جزء ١١ ، ص ٤٠٥- ٤٠٦ - التاريخ الباهر ،ص ١٦٣ ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٢ ص ٧

(٢) انظر فيما بعد .

٣- ضعف القائمين في بلاد الشام عن الوقوف بحزم أمام الصليبيين الذين أخذوا بغزو المناطق المحيطة بدمشق ، وكادوا ان يحققوا أهدافهم لولا التنازلات التي قدمها لهم ابن المقدم بدفعه لهم مبلغا من المال وفك اسراهم (١). وقد أغضب تصرف ابن المقدم هذا وتخاذله أمام الصليبيين صلاح الدين ، فابدى اسفه لهذا التخاذل ، وأوضح بأنه سينهض بمقارعتهم والدفاع عن املاك الصالح اسماعيل (٢).

٤- كان صلاح الدين يريد ان يسير على النهج نفسه الذي سار عليه قبله عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود ، وذلك بالعمل على توحيد بلاد الشام ومصر في جبهة عربية اسلامية واحدة ، تستطيع أن تقف في وجه الصليبيين وتستعيد منهم ما احتلوه من البلاد (٣).

لم يعمل صلاح الدين مباشرة أثر وفاة نور الدين على التدخل في الشام ، بل أرسل الى الملك الصالح كتابا يهنئه فيه بالملك، ويعزيه بوفاة ابيه . كما أرسل له دنانير مصرية سك عليها اسمه ،وأعلمه بأن الطاعة والخطبة له (٤). كما بعث للامراء المحيطين به يدعوهم للتعاضد والتآزر في وجه العدو المتربص ،

(١) انظر فيما سبق ، وانظر ابن الاثير : الكامل في التاريخ، جزء ١١ ، ص ٤٠٨

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٤٠٨

(٣) الشيال : المرجع السابق ، ص ٤٤ - ٤٥

(٤) ابو شامه : المصدر السابق جزء ١ ،ص ٢٣١
ابن الاثير : التاريخ الباهر ، ص ١٦٢ - ١٦٣

معلنا أنه سيكون للصالح اسماعيل كما كان لابيه مخلصا في الخدمة وحين لمس تخاذل الامراء عن الدفاع عن ابن سيدهم ارسل لهم رسالة قال فيها : (أنا أحق بتربية الملك الصالح رعاية لعهد والده. ولو استمرت ولاية هؤلاء القوم تفرقت الكلمة ، وطمعت الكفار في البلاد ، انا لانؤثر للاسلام وأهله الا ماجمع شملهم وآلف كلمتهم، وللبيت الاتابكي الا ماحفظ أصله وفرعه ، أو دفع ضره وجلب نفعه) (١) .

ب ـ بداية عملية التوحيد على يد صلاح الدين الايوبي :

اعترضت صلاح الدين اثر وفاة نور الدين بعض المشاكل أخرته عن حماية الصالح اسماعيل واملاكه في الشام ، على رأسها وصول اسطول صقليه الى الاسكندرية وحركة الكنز (٢) . الا انه بعد أن انتهى من التخلص من هذه الاخطار بنجاح منقطع النظير ، ولمس ضعف القائمين في بلاد الشام عن حماية الملك الصالح اسماعيل واملاكه والمنافسات القائمة بينهم ، وتخاذلهم أمام الفرنج ، قرر التوجه اليها .

ضم مدينة دمشق وحمص وحماه :

خشي من بدمشق من الامراء ان يقصدهم سعد الدين كمشتكين مؤيدا نفسه بالملك الصالح اسماعيل ،فيعاملهم كما عامل بني الداية ولذلك راسلوا سيف الدين غازي الثاني في الموصل ليسلموها اليه ،فلم

(١) ابو شامه : المصدر السابق ،جزء ١،ص ٢٣٤
ابن واصل : المصدر السابق ،جزء ٢ ،ص ١٨

(٢) انظر فيما سبق ،وانظر ابو شامة : المصدر السابق ،جزء١، ص ٢٣٤ .

يجبهم خوفا من آن يكون في الامر مؤامرة [1]،فحملهم الخوف على ان راسلوا صلاح الدين في مصر ،وأرسلوا اليه رسلا يطلبون منه الحضور، فلم يتردد ،وتوجه مباشرة الى الشام [2]. حيث اعلن وهو في طريقه اليها انه انما خرج لانقاذ الصالح اسماعيل من اطماع المحيطين به، وللاشراف بنفسه على تربيته وتدبير ملكه ،والقضاء على الفرقة التي اطمعت الفرنج في البلاد ،وتوحيد ممتلكات نور الدين التي اضحت تمتد من حلب الى اليمن ،ولم في هذا التوحيد من فائدة في تحرير بيت المقدس من الصليبيين [3]. وقد اوضح صلاح الدين ذلك في الرسالة التي وجهها للخليفة العباسي . وقد يكون اعلمه بذلك ليجعل من توجهه الى الشام عملا شرعيا [4] .

انطلق الناصر صلاح الدين وبرفقته سبعمائة فارس ،فوصل بلبيس في شهر ربيع الاول من سنة ٥٧٠هـ[5]،بعد ان استخلف على مصر أخاه العادل ،وتمكن من دخول مدينة بصرى دون أي مقاومة ،ثم تسلم مدينة دمشق من ابن المقدم في يوم الثلاثاء نهاية ربيع الاول سنة ٥٧٠هـ/تشرين الثاني نوفمبر ١١٧٤م ،حيث استقبل فيها استقبالا طيبا،وكان دخوله الى المدينة تحت شعار الولاء للملك الصالح اسماعيل وزد املاكه التي أخذت منه في الجزيرة ،واعادتها الى سابق.

---

(١) انظر فيما سبق .

(٢) ابن الاثير: التاريخ الباهر،ص ١٧٦- ١٧٧
الكامل في التاريخ،جزء ١١،ص ٤١٥ - ٤١٦ .

(٣) ابن شداد: المصدر السابق،ص ٥٠ -ابو شامه :المصدر السابق،جزء١، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

(٤) ابن واصل: المصدر السابق،جزء٢،ص ٢٧-٢٨-ابو شامه : المصدر السابق ،جزء ١ ،ص ٢٤١ - ٢٤٣ .

(٥) أبو شامه : المصدر السابق،جزء ١،ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

عهدهمـا [1] .

عمل صلاح الدين على استمالة قلوب اهل دمشق اليه ،فوزع عليهم الاموال الطائلة،وأظهر الفرح والسرور بلقائهم [2]. وبعد ان وطد اموره بها ترك فيها أخاه سيف الاسلام طغتكين يحكمها باسم الملك الصالح اسماعيل ،وسار الى حمص حيث دخلها في جمادى الاولى سنة ٥٧٠هـ/ ديسمبر كانون الاول سنة ١١٧٤م،ثم استولى على مدينة حماه في أواخر الشهر نفسه [3].

ضم مدينتي حلب والموصل :

لم تفتح حلب ابوابها لصلاح الدين بالسهولة نفسها التي استطاع بها أن يدخل مدينة دمشق وحمص وحماه ،بل وجد في طريقه اليها صعوبات ،ومقاومة كبيرة قادها في البداية سعد الدين كمشتكين، الذي تعاون ضده مع صاحب الموصل ومقدم الاسماعيلية والصليبيين .

حين القى صلاح الدين الحصار على مدينة حلب اعلن أنه يريد تخليص الملك الصالح اسماعيل من سيطرة سعد الدين كمشتكين [4]. ولكن الاخير لجأ الى تأمين مقاومة ناجحة في حلب ضد صلاح الدين ،فجمع حوله قلوب اهل المدينة [5] ،كما استنفر القوى المجاورة في بلاد الشام، والتي ترى في سيطرة صلاح الدين على بلاد الشام اضافة الى مصر خطرا

(١) ابن شداد : المصدر السابق ،ص ٥٠، ابن الاثير: التاريخ الباهر ص ١٧٦ – ١٧٧– عاشور: مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ص ٣٤ – ٣٥ .

(٢) ابو شامة : المصدر السابق،جزء ١،ص ٢٣٧–ابن شداد : المصدر السابق ص ٥٠ .

(٣) ابو شامة : المصدر السابق ،جزء ١ ،ص ٢٣٨ .

(٤) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ،ص ٤١٧ – ٤١٨ .

(٥) ابو شامة : المصدر السابق،جزء ١،ص ٢٣٨– ٢٣٩

يهددها . فعمل على الاستعانة بالاسماعيلية والصليبيين في امارة طرابلس ، والزنكيين في الموصل . على ان تقوم الاسماعيلية الذين يقودهم شيخ الجبل سنان من معقله في مصياف بارسال بعض رجالهم لاغتيال صلاح الدين (١)، ويعمل الصليبيون من طرابلس بقيادة ريموند الثالث على تهديد مؤخرة صلاح الدين بالهجوم على مدينة حمص (٢) .

ويبدو أن ريموند أمير طرابلس ، والوصي على عرش مملكة بيت المقدس في تلك الآونة ، كان يدرك تماما أهمية تحالف الصليبيين مع امراء حلب . كما ادرك خطورة قيام وحدة بين القاهرة ودمشق وحلب ، لذلك أسرع الى نجدة امراء حلب ليسد الطريق في وجه صلاح الدين ، ويحول دون قيام وحدة عربية في بلاد الشام ومصر (٣) .

نفذ ريموند ماكلف به ، وتوجه بقواته لمهاجمة مدينة حمص التابعة لصلاح الدين . فوجد صلاح الدين نفسه محاصرا بين قوات حلب بقيادة سعد الدين كمشتكين ، والصليبيين في جنوبه ، فلم يجد بدا من فك الحصار عن مدينة حلب ، والارتداد جنوبا لرد الصليبيين ، وذلك في رجب سنة ٥٧٠ هـ / أوائل شباط فبراير ١١٧٥ م (٤).

---

(١) ابو شامه : المصدر السابق ،جزء ١ ،ص ٢٣٩
ابن الاثير: الكامل في التاريخ،جزء ١١ ، ص ٤١٨ – ٤١٩
(٢) ابن الاثير: الكامل في التاريخ،جزء ١١ ، ص ٤١٩ – ٤٢٠
ابو شامه : المصدر السابق ،جزء ١،ص ٢٣٨
(٣) سعيد عاشور : المرجع السابق ، ص ٣٦ نقلا عن وليم الصوري
(٤) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ،ص ٤١٩

وما ان وصل صلاح الدين الى حمص حتى فر الفرنج عنها [(١)]، فسار في اعقابهم حتى مدينة بعلبك حيث فتحها مع قلعتها [(٢)].

عاود صلاح الدين حصار حلب بعد ان طرد الصليبيين عن حمص فوجد نفسه مضطرا لقتال جيش متحد مؤلف من زنكيي الموصل وحلب وقد كان زنكيو الموصل قد لبوا الدعوة التي وجهها لهم زنكيو. حلب لقتال صلاح الدين [(٣)] خوفا منه وخشية على املاكهم. ودارت بين الفريقين معركة عند قرون حماه في رمضان سنة ٥٧٠ هـ / اواخر ابريل نيسان ١١٧٥ م ، انتصر صلاح الدين فيها على الزنكيين [(٤)] ، وعقد معهم صلحا كانت أهم بنوده. أن تبقى حلب وماحولها للملك الصالح اسماعيل ، وأن تكون الاجزاء الواقعة جنوب حلب ملكا لصلاح الدين [(٥)] .

استشاط سيف الدين غازي صاحب الموصل غضبا حين سمع بالصلح بين الملك الصالح اسماعيل ، وصلاح الدين . وبعث الى ابن عمه وامراء حلب يعتب عليهم ويوبخهم على التسرع في توقيع الصلح، ويحرضهم على نقضه وقتال صلاح الدين . ومالبث زنكيو حلب ان أذعنوا له ونقضوا الصلح ، وتحالفوا ثانية مع سيف الدين غازي ،

---

(١) ابو شامه : المصدر السابق ، جزء ١ ،ص ٢٣٩
(٢) ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ،ص ٢٤٧
ابن الاثير: الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ، ص ٤٢٠
(٣) ابن الاثير: المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٤٢٠
(٤) ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٤٨ — ٢٤٩
(٥) ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٤١ — ٢٤٤

وتجدد القتال بين المتحالفين وصلاح الدين بالقرب من حلب عند تل السلطان في شوال سنة ٥٧١ هـ / نيسان ١١٧٦ م ، حيث انتصر صلاح الدين للمرة الثانية على جموع الزنكيين في الموصل وحلب ، واستولى على غنائم ضخمة (١) .

انتقل صلاح الدين بعد هذا الانتصار الى الاستيلاء على الحصون والقلاع المحيطة بمدينة حلب ، ليسهل عليه فتحها (٢). فاستولى على بزاغة ومنبج واعزاز (٣). وقد تعرض في اثناء حصاره لقلعة اعزاز للاغتيال من قبل الاسماعيلية ، فنجا وجرح خده فقط (٤) .

اتجه صلاح الدين بعد انتصاراته في المناطق المحيطة بحلب الى القاء الحصار عليها في منتصف ذي الحجة سنة ٥٧١ هـ/ حزيران ١١٧٦م وظل على ذلك حتى مطلع سنة ٥٧٢ هـ، حيث طلب أهل حلب الصلح فأجابهم اليه صلاح الدين ، على ان تكون حلب واعمالها للصالح اسماعيل ، وأن يكون لصلاح الدين مصر وبلاد الشام من حماه وما يليها جنوبا ، كما وهب مدينة اعزاز لابنة صغيرة لنور الدين (٥) .

---

(١) ابو شامه : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٥٤- ٢٥٥
المقريزي : السلوك في معرفة دول الملوك جزء ١، ص ٦٠
(٢) ابو شامه : المصدر السابق جزء ١،ص ٢٥٦
(٣) ابو شامه : المصدر السابق جزء ١،ص ٢٥٦ - ٢٥٧
(٤) ابو شامه : المصدر السابق جزء ١،ص ٢٥٨
الشيال : المرجع السابق ص ٤٧
(٥) ابو شامه : المصدر السابق ،جزء ١ ،ص ٢٥٩ و ص ٢٦١
ابن الاثير: الكامل في التاريخ ،جزء ١١ ، ص ٤٣١
الشيال : المرجع السابق ، ص ٤٧

وهكذا فشل صلاح الدين في هذه الفترة في ضم مدينة حلب اليه على الرغم من حصاره لها ثلاث مرات متتابعة . وكان السبب في فشله هذا يعود الى اضطراره الى توزيع جهوده بين ثلاث جبهات فالى جانب قتاله للزنكيين في حلب والموصل ، فانه كان مضطرا الى الدخول في مناوشات وحروب محلية ضد الصليبيين ، اما لارهابهم ، أو لصد عدوانهم ، وخاصة حين يستنجد الزنكيون بهم ، وكان عليه ايضا ان لايغفل عن تحصين مصر والعمل على حمايتها بعد ان ظهر واضحا طمع الصليبيين فيها . ولعل هذا هو السبب الذي يجعلنا نجد صلاح الدين في هذا الدور لايكاد يحارب الزنكيين عند حلب حتى يعقد معهم الصلح ويتجه لصد خطر الصليبيين . ولا يكاد يدخل مع الصليبيين في حرب حتى يقبل عروضهم للهدنة ويسرع الى مصر ولايكاد يقيم بعض الوقت في مصر يشرف على تحصينها حتى يبادر بالعودة الى الشام (١) .

لم ينس صلاح الدين للاسماعيلية فعلتهم ومحاولاتهم المتكررة لقتله ، فاتجه بجيشه الى املاكهم ، وحاصر حصنهم المنيع في مصياف ، وقتل العدد الكبير منهم ، وهدم الكثير من قلاعهم وكان يصر على القضاء عليهم والاستيلاء على املاكهم لولا تدخل خاله شهاب الدين الجارمي صاحب حماه ووساطته وشفاعته بهم . فرحل

---

(١) ابن واصل: المصدر السابق،جزء ٢ ص ٧٥ - ٧٧ - سعيد عاشور: الحركة الصليبية ،جزء٢ ص ٧٥٠ - مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، ص ٣٨

عنهم حيث عاد الى دمشق ثم غادرها الى مصر (١) في جمادى الاولى ٥٧٢ هـ / نهاية كانون الاول ديسمبر ١١٧٦ م بعد ان تزوج من عصمة الدين خاتون بنت معين الدين انر وأرملة نور الدين . وقد يكون فعل ذلك ليبدو وريثا لسيده. (٢) .

على الرغم من مشاغل صلاح الدين بتنظيم أمور المناطق التي يحكمها في مصر والشام بعد توقيعه لمعاهدة الصلح مع حكام حلب، فانه كان ينتظر الفرصة المناسبة لاتمام عملية التوحيد بضم مدينتي الموصل وحلب . وقد حدثت بعد زهاء خمس سنوات من الصلح بعض الاحداث في المنطقة شجعته على اتمام خطته ، ومن ذلك وفاة أمير الموصل سيف الدين غازي الثاني في صفر سنة ٥٧٦ هـ/اب اغسطس ١١٧٩ م بعد ان أوصى بالامارة لاخيه عز الدين مسعود لصغر سن ابنائه . كذلك توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين صاحب حلب في رجب سنة ٥٧٧ هـ / كانون الثاني يناير ١١١٨ م وهو في التاسعة عشرة من عمره . فاستدعى الامراء من اتباعه ايضا عز الدين مسعود لتسلمها (٣) ولكن الخلاف دب بين الاخوين عز الدين مسعود وعماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار الذي طمع في تملك حلب ، مقابل تسليم أخيه عز الدين مسعود لسنجار ، وهدده أن لم يفعل باستدعاء صلاح الدين وتسليم سنجار له . ولم يجد عز الدين

(١) ابو شامة : المصدر السابق ،جزء ١ ،ص ٢٦١
ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١١ ،ص ٤٣٦
الشيال : المرجع السابق ، ص ٤٧ – ٤٨
(٢) ابو شامه : المصدر السابق ،جزء ١ ،ص ٢٦٣ – ٢٦٤
(٣) ابن الاثير: المصدر السابق ،جزء ١١ ، ص ٤٧٢

بدا من الموافقة نظرا لموقع مدينة سنجار ولتهديد صلاح الدين عن طريقها لاملاك الزنكيين في حلب والموصل على السواء [1].

كان صلاح الدين يراقب الامور عن كثب ، ويعلم مدى خوف الزنكيين منه ، ويرى وجوب القضاء عليهم لاتمام عملية التوحيد. وشجعه تحالف صاحب حران معه ، فأخذ في تثبيت اقدامه في منطقة الجزيرة ليفصل بين املاك الزنكيين في كل من حلب والموصل لينفرد بكل منها على حدة . وفي عملية التثبيت استطاع فتح مدينة الرها وبعض المناطق الاخرى في الجزيرة ، ثم توجه بعدها لحصار مدينة الموصل في سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م . وعلى الرغم من التضييق على أهلها الا انه لم ينل غرضه . فقد أعد عز الدين مسعود عدته للحصار وحشد داخل مدينته عددا ضخما من الرجال ، وكميات وافرة من الطعام والسلاح [2] . وجرت بين الطرفين مفاوضات لم تسفر عن شيء لتشبث كل من الطرفين بنقاط لم يحد عنها . فقد تمسك عز الدين بوجوب رد صلاح الدين لكل مافتحه من املاك الزنكيين في الجزيرة ، على حين أن صلاح الدين كان يصر على بقاء هذه الاملاك تحت سيطرته ، اضافة الى تعهد عز الدين بعدم مساعدة أمير حلب في حال حربها مع صلاح الدين [3] .

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١١ ، ص ٤٧٤ - ٤٧٥

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ،جزء ٢، ص ١١٩

ابن الاثير : المصدر السابق جزء ١١ ، ص ٤٨٤ - ٤٨٥

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق جزء ١١ ، ص ٤٨٦ - ٤٨٧

فشلت المفاوضات ولم يستطع صلاح الدين الاستيلاء الموصل بسبب قطع اهالي سنجار طريق الامدادات . ولذلك فانه قرر فتحها ، وتم له ذلك بسرعة ، فتمكن بهذا الاستيلاء من الفصل بين أملاك الزنكيين في حلب والموصل [1] وأخذ من مركزه القوي يعمل على اضعاف مركز أمير الموصل ، فحرض الخليفة العباسي الناصر لدين الله ضده ، ونسب اليه التحالف مع الصليبيين [2] ، فاكتفى الخليفة بالوساطة بين الطرفين المتنازعين [3] .

اهتم صلاح الدين بعد الاستيلاء سنجار بمدينة حلب وقرر فتحها . فالقى الحصار عليها ، واهتم في الوقت نفسه بالاستيلاء المعاقل المحيطة بها مثل تل خالد وعين تاب ، وأقام المنازل على جبل جوش ليتمكن من الاستمرار في الحصار ، فخشيه صاحبها ، وادرك انه لا قبل له بالمقاومة ، ولذلك فانه رفض الاستنجاد بالقوى المحيطة به ، وأخذ يفكر بالمفاوضة على الرغم مما أظهره أهالي حلب من قوة في مقاومة صلاح الدين . فأرسل الى صلاح الدين سراً يعرض عليه تنازله عن حلب مقابل اعطائه مدينة سنجار ، فوافق صلاح الدين وزاده الخابور ونصيبين والرقة [4] .

---

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٤٨٧ – ٤٨٨
(٢) ابو شامه : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ٢٦٥
(٣) ابن الاثير: المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٤٨٨
(٤) ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٩٨

على ان يحكمها كتابع له يلحق به بجنده حين الطلب . وتم ذلك في ١٨ صفر ٥٧٩ هـ / حزيران ١١٨٣ م . وبذلك تم ضم حلب ،واصبحت بلاد الشام بكاملها بيد صلاح الدين .

انشغل صلاح الدين عقب امتلاكه لمدينة حلب بقتال الصليبيين ، ولكنه كان دائم التفكير في مدينة الموصل . ولذلك فانه بدأ بعزلها ، وجعل الامراء المحيطين بها يدينون له بالتبعية . ولما تأكد من ذلك ألقى الحصار على الموصل للمرة الثانية في ربيع الثاني سنة ٥٨١ هـ / تموز ١١٨٥ م (١) . وفي اثناء الحصار قام بالاستيلاء على مدينة ميافارقين (٢) ، ثم عمل على تشديد الحصار على الموصل . وبدأت بين الطرفين سلسلة من المفاوضات ، وأخذت الرسل تتردد بينهما ، فأسفر ذلك عن توقيع صلح بين الطرفين ، اتفقا فيه على ان يبقى عز الدين حاكما على الموصل كتابع لصلاح الدين ، ويخطب له على منابر بلاده ، ويضرب السكة باسمه (٣). وهي سياسة سار عليها صلاح الدين مع العديد من الامراء في المنطقة ، وبهذا يكون صلاح الدين قد حقق الوحدة بين بلاد الشام ومصر ، واضاف اليها الموصل ،وجعل امراء الايوبيين تابعين له . فأمن بذلك ظهره ، وأصبح بامكانه التوجه لقتال الصليبيين .

---

(١) ابن الاثير: المصدر السابق ،جزء ١١ ،ص ٥١١ – ٥١٤
الحنبلي : المصدر السابق، ص ١١٤ – ١١٥
(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ،ص ٥١٥ – ٥١٦
(٣) ابن واصل : المصدر السابق ،جزء ٢ ،ص ١٧٢
ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١١ ، ٥١٦ – ٥١٨

٧- صلاح الدين والصليبيين :

لم يكن صلاح الدين في الفترة بين تسلمه السلطة وسنة ٥٨١ هـ ١١٨٥ م منصرفا لحرب الصليبيين ، وانما وجه جل جهده نحو توحيد الجبهة العربية الاسلامية ، ولذلك كانت حروبه يغلب عليها الطابع الدفاعي ، فهي اما لحماية املاك العرب المسلمين وأراضيهم ، واما ليحول بين الصليبيين ومساعدة بعض القوى الانفصالية التي أعمتها شهوة الحكم عن روية الخطر الخارجي . وقد دأب الصليبيون في هذه الفترة على مهاجمة المناطق التي كانت في يد صلاح الدين وتحت سلطته . كما عملوا على تحصين المناطق الاستراتيجية في حوزتهم لجعلها نقاط انذار لهم في عمليات الدفاع ، ونقاط انطلاق في عملية الهجوم مستفيدين من انشغال صلاح الدين في عملية توحيد بلاد الشام ومصر . وقد استعانوا في اعمالهم تلك بجموع اوربية من اولئك الذين كانوا يقدمون الى البلاد للحج او للغزو . وكان الصدام بين الطرفين في جهات متعددة في الجنوب والجنوب الغربي ، وفي الشرق والشمال الشرقي وفي البحر الاحمر حيث تمثل لصلاح الدين خطر جديد في شخص فارس صليبي متهور ، امتلأت حياته بقصص الغدر والخيانة عرف باسم أرناط في العربية ، وريجنالد أحيانا وهو رينودي شاتيون ، وقد جلب لمملكة بيت المقدس كوارث كثيرة لما قام به من حملات غير مدروسة النتائج ، وما أطلقه من تهديدات جوفاء مخالفة لما جاء في الهدنة المعقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس ، في الوقت نفسه الذي بلغ به صلاح الدين ذروة قوته بعد أن جعل كلا من الموصل وحلب تابعتين له . اذ اصبحت البلاد من

طوروس حتى النوبة تحت امرته ، وقد اوثق الرباط بين اجزائها بجعلها في يد أبنائه من دون اخوته [١]، ثم انه اصبح يملك اسطولا قويا يعسكر في مصر ، تمكن من حصار بيروت [٢] والداروم وغزه وعسقلان . كما أصبح مرهوب الجانب في الداخل والخارج. ففي الداخل ، أصبح امراء العرب المسلمين يؤيدونه بما شيهم الخليفة ، أو يطيعونه رهبة . أما في الخارج فقد استطاع فرض احترامه على الدول المحيطة . فعقدت الامبراطورية البيزنطيه معه صلحا ، وانهت علاقاتها العدائية ، وسمحت له باعادة بناء مسجد القسطنطينية [٣] . في حين أن الصليبيين كانوا في وضع سيء ، فأقروا عقد هدنة مع صلاح الدين مدتها اربع سنوات تبدأ من سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٥م [٤] . وقد أتاحت هذه الهدنة للصليبيين تصفية كثير من المشاكل الداخلية التي نشبت بينهم بعد وفاة بلدوين الرابع . ولكن جاي لوزجنان الذي أصبح ملك بيت المقدس لم يكن على مستوى المسؤولية ، بل يمكن القول انه كان ضعيفا ، فلم يستطع كسب ود أمير طرابلس ، وانهاء الخلاف بينهما [٥] مما أدى الى حدوث كارثة كبرى شتت شملهم وهي معركة حطين [٦] التي كانت من اكبر الكوارث التي حلت

(١) ابن الاثير: المصدر السابق ،جزء ١١،ص ٥٢٣ — ٥٢٥
الحنبلي : المصدر السابق ، ص ١١٦ — ١١٨
ابو المحاسن : المصدر السابق ،جزء ٦ ، ص ٣٠ — ٣١
(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١١ ، ص ٤٨٢
(٣) الباز العريني : مصر في عصر الايوبيين ، ص ٧٢ — ٧٣
(٤) عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، ص ٥٠
(٥) الباز العريني : المرجع السابق ، ص ٧٣
(٦) 6)- Lane Poole : Op. Cit . , P 181

بالصليبيين . فقد تمكن المسلمون من تحطيم قوتهم الضاربة ، حتى قال فيها ابن الاثير [1] : ما أصيب الفرنج منذ خرجوا الى الساحل وهو سنة احدى وتسعين واربعمائة الى الان بمثل هذه الوقفة . فقد أدت من جهة الى انهيار روحهم المعنوية ، كما أضاعت هيبتهم وأظهرت انقسامهم ، وأفقدت ملك بيت المقدس مكانة الزعامة بين الصليبيين كما نقص عدد الفرسان بعدها نقصا ملموسا . على حين كانت حطين بالنسبة للعرب المسلمين فاتحة خير ، ومعركة من المعارك الحاسمة ، فتحت الطريق امامهم لاستعادة أراضيهم ، كما بثت الامل في قلوب الناس بالنصر ، وفتحت قرائح الشعراء [2].
كما أظهرت حسن معاملة العرب المسلمين لغيرهم ، وتمسكهم بمبادىء الاخلاق والرحمة والتسامح ، وهو الامر الذي شهد لهم به جميع المؤرخين الغربيين والشرقيين على السواء .

ساعد انتصار حطين على فتح مدن الساحل التي كانت بيد الصليبيين ماعدا مدنا قليلة كما ساعد على تحرير بيت المقدس في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ/١٢ تشرين الاول ١١٨٧ م .

احتفل العرب المسلمون بفتح بيت المقدس احتفالا لامثيل له ، وارتفعت الاصوات بالتهليل والتكبير [3]، ووزعت الاموال بهذه المناسبة الكبيرة ثم نهض صلاح الدين بعمارة المسجد الاقصى ، وبنى في المدينة المدارس والبيمارستانات لمعالجة المرضى ، وأرسل سفارة

(١) المصدر السابق ، جزء ١١ ، ص ٥٣٧
(٢) ابو شامة : المصدر السابق ،جزء ٢ ، ص ٨٣
(٣) ابو شامه : المصدر السابق ،جزء ٢ ، ص ١١٥
ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١١ ، ص ٥٥١ - ٥٥٢
الحنبلي : المصدر السابق ، ص ١٤٨ - ١٤٩

الى الامبراطور البيزنطي انجيلوس يعلمه بذلك . فرد عليه الامبراطور مهنئا له طالبا منه وضع كنيسة القيامة وغيرها من الكنائس المسيحية تحت اشراف رجال الدين الارثوذكس الذين تعينهم الحكومة البيزنطية ، مع ارسال صليب الصلبوت اليه ، فرفض صلاح الدين ذلك .

ترك صلاح الدين الصليبيين الذين تركوا مدن الساحل وبيت المقدس يلجأون الى مدينة صور ويتجمعون بها فشكلوا خطرا على فتوحات صلاح الدين ، وقد أدى هذا الامر الى جانب وصول امدادات صليبية ، واخراج صلاح الدين عن اسرى حطين الى نكسة اصيبت بها الفتوحات ، وخاصة اثر وصول الحملة الصليبية الثالثة ، حيث خسر صلاح الدين عكا وبعض مدن الساحل ، واضطر الى عقد صلح الرملة مع ريتشارد قلب الاسد في سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩٢ م الذي انتهى بعقده النزاع بين صلاح الدين وريتشارد بموجب هذا الصلح ، وبقي العرب المسلمون بقيادة صلاح الدين بموجبه يتحكمون في دولة قوية تحيط ببقايا الصليبيين المتناثرة قرب شواطئ الشام ، واستقبل الفريقان هذا الصلح بفرح شديد لما نالهم من طول الحرب . وعادت الحياة الطبيعية الى فلسطين ، وازداد النشاط التجاري ، وكثر عدد الحجاج (١)

٨ – وفاة صلاح الدين :

عاد صلاح الدين اثر صلح الرملة الى دمشق (٢) فانتابه بعد مدة بسيطة المرض ، وغشيته الحمى ، وتوفي بعد ذلك في ٢٧ صفر

(١) ابن شداد : المصدر السابق، ص ٢٣٥ – ابو شامة : المصدر السابق جزء ٢ ، ص ٢٠٤ – ٢٠٥

(٢) ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٢٤٠ – ابو شامة : المصدر السابق جزء ٢ ، ص ٢٠٦

سنة ٥٨٩ هـ / ٣ آذار ١١٩٣ م في قلعة دمشق بعد ان آخذ البيعة لابنه الافضل . وكان صلاح الدين حين توفي في السابعة والخمسين من عمره ، ودفن في القدم أول الامر ، ثم نقل الى مدفنه في الكلاسة [1] وقد صور لنا العماد الاصفهاني وضع الناس يوم وفاة صلاح الدين فقال : (كان يوما مشهودا ، لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدين ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالايعلمه الا الله تعالي ... ولو قبل الفداء لفداه الناس بالنفس) [2].

نال صلاح الدين مانالة من نجاح ومحبة بسبب ماتميز به من صفات عسكرية ، ولما اشتهر به من صفات خلقية عظيمة . فقد تمسك بمبادئ الشرف والمروءة والسخاء والبذل والوفاء بالعهد، الى جانب كونه تقيا وورعا ، يؤدي الصلاة بأوقاتها ، ويواظب على الصوم . كما كان شديد البأس قوي المراس ورحيما في آن واحد. وكان محبا للجهاد صابرا على قتال الاعداء ، مصمما على متابعتهم الى بلادهم . وبقي مع عساكره في أعمال حربية مستمرة ثلاث سنوات . وعلى الرغم من ذلك لم يمل أو يرغب في الراحة ، بل صرح لابن شداد بعد سقوط بيت المقدس عن رغبته في متابعة الصليبيين الى بلادهم قائلا : (... متى مايسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد ، وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر الى

---

(١) ابو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٦

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ٢ ، ص ٩٠٣ نقلا من العماد الاصفهاني .

جزائره ، أتبعهم فيه حتى لا ابقي على وجه الارض من يكفر بالله أو اموت) (١)

---

(١) ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٢٢

خلفاء صلاح الدين الايوبي

٥٨٩ – ٦٣٥ هـ / ١١٩٣ – ١٢٣٨م

١– النزاع بين ابناء صلاح الدين :

خلف صلاح الدين مملكة واسعة الاطراف ، وفراغا ضخما لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر أو اخوته او ابناء اخوته أن يملأه . ويبدو أن صلاح الدين كان قد غرس بيده نبتة الخلاف بين افراد أسرته ، حين عد أراضي السلطنة كالملك الشخصي يمكن توزيعه بين الابناء والاخوه بحسب الرغبة . ولانستطيع أن نقول ان ذلك كان مفروضا عليه ، أو أن الظروف فرضته عليه ، لان ماورد في حديثه مع ابن شداد يدل على أن تقسيمه لاملاكه كان ضمن خطة رسمها لنفسه قبل وفاته . وقد ورد ذلك حين أوضح لابن شداد رغبته في متابعة الصليبيين الى اراضيهم فقال :

(... قسمت البلاد ، وأوصيت وودعت) [١] .

وزع صلاح الدين أملاكه بين اخوته وابنائه في حياته ،وغير التوزيع عدة مرات ، وفي توزيعه الاخير الذي أجراه ، جعل لابنائه المناطق الكبيرة والحساسة ، وجعل لاخوته وأقاربه مناطق الاطراف [٢]. فقد اوصى بالسلطنة لابنه الافضل نور الدين علي ، وجعله حاكما لمنطقة دمشق . كما جعل مصر لابنه الاصغر

---

(١) انظر فيما سبق وانظر ابن شداد : المصدر السابق ، ص ٢٢

(٢) انظر حول ذلك زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة ، ص ١٥٠ – ١٥٥

الملك العزيز عثمان ، وأعطى حكم حلب لابنه الظاهر غازي . وكانت منطقة الجزيرة اضافة الى الكرك من نصيب أخيه الملك العادل ، وحماه بيد ابن عمه تقي الدين عمر ، وحمص في يد حفيد عمه شيركوه (١) .

لم يكن الافضل يصلح للزعامة لضعفه وسوء سيرته ،وانشغاله عن شؤون الرعية بأموره الخاصة حتى سمي بالنوام (٢). كما أنه لم يستطع المحافظة على ود أصحاب الامر من حوله . فنبذ أمراء والده ومستشاريه ، ووضع كل ثقته في ضياء الدين ابن الاثير ، وجعله وزيرا له (٣)، مما دفع بهؤلاء الامراء الى الفرار الى مصر ، حيث التفوا حول أخيه الملك العزيز ، وأوغروا صدره على الافضل في دمشق . وقد أسفر هذا التحريض عن نزاع بين الاخوين اشترك به امراء البيت الايوبي ، دام سبع سنوات ، وانتهى بتوحيد البيت الايوبي تحت زعامة الملك العادل أخ صلاح الدين ، الذي كان في البداية حكما بين ابناء اخيه .

بدأت الفتنة بخروج الملك العزيز من مصر في سنة ٥٩٠ هـ / صيف سنة ١١٩٤ م ، قاصدا دمشق بدعم من جند ابيه الصلاحية الفارين من دمشق ، وشرع في حصار الافضل فيها ، مما دعا الاخير الى الاستنجاد بعمه العادل لمساعدته في التخلص من

---

(١) انظر عن تنظيم صلاح الدين لمملكته ابو شامة : المصدر السابق جزء ٢ ، ص ١٩٧ - ١٩٨

(٢) ابو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٢

(٣) ابو شامة : المصدر السابق ،جزء ٢ ، ص ٢٢٨
ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١

الحصار [(١)].

كان العادل رجلا طموحا ، ولم يكن ماحصل عليه من تركة أخيه صلاح الدين يتناسب مع مكانته وطموحه . فوجد في ذلك فرصة سانحة ، فاستجاب لنداء ابن أخيه الافضل ، ونهض طالبا مساعدة أمراء الايوبيين في ارجاء الجزيرة ودمشق وحلب وحماه وحمص وبعلبك وأوغر صدورهم ضد الملك العزيز [(٢)].

أدرك الملك العزيز بأنه عاجز من مجابهة قوى الايوبيين المتحدة ضده في بلاد الشام ، فقبل المفاوضة مع عمه العادل الذي قرر باتفاق الجميع أن يحتفظ الافضل بدمشق وطبرية وأعمال الغور ، في حين يأخذ العزيز بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين اضافة الى مصر ، ويأخذ الظاهر جبلة واللاذقية اضافة الى حلب . وبذلك منع العادل الاقتتال هذه المرة بين افراد البيت الايوبي ، وأصبح صاحب الكلمة النافذة بينهم [(٣)] .

لم يرعو الافضل ، ولم يتخذ عبرة مما جرى ، واستمر مهتما بحياته الخاصة ، تاركا الحبل على الغارب لوزيره ابن الاثير ، مما دفع بالملك العزيز الى اتخاذ قرار بمهاجمة دمشق للمرة الثانية ، بتحريض من القواد والعلماء [(٤)]. ونهض في سنة ٥٩١ هـ/

---

(١) ابو شامة : المصدر السابق ،جزء ٢ ، ص ٢٢٩
ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٢ ، ص ١٠٩ – ١١٠
(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ١١٨
(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ١١٠
ابو المحاسن: المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢١
(٤) ابو المحاسن: المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٢ – ١٢٣
ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٢٩

١١٩٥ م لتحقيق ماعجز عن تحقيقه في السنة السابقة ، وحين أسقط في يد الافضل لم يجد بدا من الاستنجاد بعمه ثانية وبأمراء الشام .

قام العادل بفض أنصار ابن اخيه الملك العزيز من حوله ، حتى اجبره على العودة الى مصر [1]. ثم اتخذ قراره بكبح جماحه ومهاجمته في مصر ذاتها . ولكنه اراد في هذه المرة ان يستغل الظروف لصالحه . ولذلك فانه آجرى مفاوضات مع ابن آخيه الافضل فحواها أن يترك له الافضل دمشق ويساعده العادل في آخذ مصر من آخيه . وبدآ تنفيذ المهمة باستيلاء الافضل والعادل على بيت المقدس ، ثم زحفا سوية حتى بلبيس حيث القيا عليها الحصار [2]. ولما كان العادل يخشى عدم وفاء الافضل له ، قام بكسب ود الملك العزيز صاحب مصر ، حيث أظهر العزيز آنه مناصر له وراسله سرا طالبا منه الثبات امام بلبيس على ان يعمل العادل على سحب جيوشه وجيش الافضل عنها [3]. وكانت غايته من وراء فعلته تلك ان يكسب ثقة العزيز ، وأن يجعل من نفسه حكما موثوقا به بين الاخوين ، ونفذ العزيز والعادل ما اتفقا عليه وعاد الافضل الى دمشق بعد ان اصبح العادل سيد الموقف .

---

(١) ابو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٣
(٢) ابو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٤
(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ،ص ١١٩ – ١٢٠
ابو المحاسن: المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٤

لم يرتدع الافضل عن سوء تصرفه ، ولم يعمل على تقوية نفسه في مدينة دمشق ، وبدت بوادر تذمر الاهالي منه ومن وزيره ابن الاثير [1] . فوجد العادل أن الفرصة أصبحت سانحة له لتحقيق احلامه في الاستيلاء على دمشق ، وأراد ان يستعين بابن أخيه العزيز ، الذي قدم وساعد عمه في حصار المدينة ، حتى سقطت بايديهما في سنة ٥٩٢ هـ / اوائل تموز يوليو ١١٩٦ ، فتسلمها العادل وحل محل ابن اخيه الافضل الذي عوض بمنطقة صرخد ، في حين أصبح الملك العزيز سلطانا يحكم مصر والشام حتى بيت المقدس [2].

٢- توحيد الدولة الايوبية تحت سلطة العادل :

حكم الملك العزيز عثمان مصر من سنة ٥٨٩ - ٥٩٥ هـ / ١١٩٣ - ١١٩٨ م بعد وفاة أبيه . وكان قد حكمها قبل ذلك باسم ابيه صلاح الدين [3]. ويبدو ان مصر أصيبت في ايام سلطنته بضائقة اقتصادية تعود اسبابها الى انخفاض فيضان النيل سنة ٥٩١ هـ - ٥٩٢ هـ /١١٩٤ م . اضافة الى انشغال العزيز بالنزاع مع اخيه الافضل مما ادى الى عدم السرعة في ايجاد مخارج من الازمة [4].

(١) ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١
ابو المحاسن: المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٥
(٢) ابو المحاسن: المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٦
(٣) ابن خلكان : المصدر السابق ، جزء ٣ ، ص ٢٥١
ابو المحاسن: المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٢٠
(٤) ابو شامة : المصدر السابق ، جزء ٢ ، ص ٢٣٥

ومالبث الملك العزيز ان توفي في محرم سنة ٥٩٥ هـ / تشرين الثاني نوفمبر ١١٩٨ م بسبب سقوطه عن جواده اثناء خروجه للصيد فتولى حكم مصر ابنه الملك المنصور محمد [١] الذي لم يكن الا صبيا لم يتجاوز العاشرة من عمره [٢]، فتولى الوصاية عليه عمه الافضل [٣].

اراد الافضل أن يستغل مركزه الجديد لاستعادة ماضاع منه من املاك وبخاصة دمشق التي اصبحت تحت سلطة عمه العادل. وأراد أن يستعين بأخيه الظاهر في حلب من أجل ذلك ،ولكن العادل افشل هذه المحاولة بحسن سياسته . اذ استمال قادة ابن اخيه اليه ، وعمل على اثارة الخلاف بين الاخوين المعظم والظاهر ، فعاد كل منهما من حيث اتى [٤] .

اراد العادل ان يستغل الظرف ، ويؤدب ابن أخيه الافضل لئلا يفكر بمثل ذلك ثانية . فجهز جيشه ولحق بالافضل الى مصر حيث أنزل به الهزيمة قرب بلبيس ، وتابعه حتى القاهرة ، حيث أعلن الافضل استسلامه لعمه في ربيع الاخر ٥٩٦ هـ / ٥ شباط فبراير ١٢٠٠ م [٥] مقابل اعادته الى اقطاعه في حوران [٦]. ولكن

---

(١) ابن خلكان : المصدر السابق ،جزء ٣ ، ص ٢٥١ – ٢٥٢
ابو المحاسن: المصدر السابق ،جزء ٦ ، ص ١٢٨ – ١٢٩، و ص ١٤٦
(٢) ابن خلكان : المصدر السابق ،جزء ٣ ، ص ٢٥١ – ٢٥٣
(٣) ابو المحاسن: المصدر السابق ،جزء ٦ ، ص ١٤٦ – ١٤٧
(٤) ابو شامه : المصدر السابق ،جزء ٢ ، ص ٢٣٥
ابو المحاسن: المصدر السابق ،جزء ٦ ، ص ١٤٧ – ١٤٨
(٥) ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٢، ص ١٥٥ – ١٥٦
(٦) ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٢، ص ١٥٥ – ١٥٦

الافضل لم يرتدع بل قام بمحاولة ثانية لاستعادة دمشق الا انه فشل ثانية (١) وخسر اقطاعه في حوران ، وأبعد الى الجزيرة حيث تسلم حكم سميساط (٢).

أصبح العادل اثر انتصاراته المتكررة على ابن اخيه الافضل، وابعاده الى الجزيرة ، رأس الاسرة الايوبية بجدارة ودون منازع . فجعل من نفسه في البداية وصيا على حفيد آخيه المنصور محمد ، ولكنه مالبث أن رغب بالسلطنة لنفسه . ولما كان يريد أن يجعل عمله شرعيا ، أراد أن يستصدر حكما فقهيا لصالحه . ولذلك جمع الفقهاء وقال لهم : (هل يجوز ولاية الصغير على الكبير ؟ فقالوا : الصغير مولى عليه ... قال : فهل يجوز للكبير ان ينوب عن الصغير؟ قالوا لا . لان الولاية من الاصل اذا كانت غير صحيحة فكيف تصح النيابة) .

عدّ العادل هذه الفتوى الفقهية بمثابة اعلان على عدم صحة سلطنة المنصور محمد . ولذلك فانه قطع الخطبة له ، وأقطعه حماه واعمالها ، وخطب في مصر لنفسه ولابنه الكامل من بعده (٣) في ٢١ شوال سنة ٥٩٦ هـ / آب اغسطس ١٢٠٠ م وبرر خلعه للسلطان قائلا : (انه قبيح بي أن اكون اتابك صبي مع الشيخوخة والتقدم ، والملك ليس بالارث ، وانما هو لمن غلب) (٤)

(١) ابو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٥٠ - ١٥١
(٢) المقريزي : السلوك ،جزء ١ ، ص ١٥٩ على حين يرى ابن الاثير المصدر السابق ،جزء ١٢ ، ص ١٥٦ انه آخذ ميافارقين وحاني وجبل طور
(٣) ابو المحاسن : المصدر السابق ، جزء ٦ ، ص ١٥١ - ١٥٢
(٤) انظر الشيال : المرجع السابق ، ص ٩٥

أهـم أعمال السلطان العادل :

أصبح العادل سلطانا على مصر والشام منذ ٢١ شوال ٥٩٦ هـ / آب اغسطس ١٢٠٠ م ، فتوحدت الجبهة العربية الاسلامية ثانية ، وترتب على السلطان الجديد الوقوف في وجه الصليبيين الذين مافتئوا يرسلون الجيوش والنجدات الى المشرق . وأثيرت الحرب ثانية بين الايوبيين والصليبيين ، حتى ساعدت اوضاع كل منهما على عقد صلح جديد في رمضان سنة ٥٩٤ هـ اوائل تموز يوليو ١١٩٨ م على أسس صلح الرملة نفسها ، مع احتفاظ الايوبيين والصليبيين بفتوحاتهم الجديدة (١) .

حين اعتلى السلطان العادل عرش السلطنة ، ظهر بشكل واضح ان له سياسة جديدة مع الصليبيين تختلف عن سياسة اسلافه ، اتسمت بطابع التسامح والبعد عن التعنت ، في الوقت الذي كان فيه الغرب الاوربي يتحمس للقيام بحملة جديدة . وكان ينظر الى جهود العادل في توحيد المشرق العربي الاسلامي بعين القلق ، ويوجهون انظارهم باتجاه مصر بعد ان ادركوا أهميتها بوصفها القاعدة الكبرى التي اعتمد الايوبيون عليها في نشاطهم الداخلي والخارجي ، ولذلك ظهرت الدعوة في الغرب الاوربي في اوائل القرن السابع الهجري ، واوائل القرن الثالث عشر الميلادي لارسال حملة كبيرة ضد مصر (٢)

---

(١) عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ،ص ٧٠

(٢) انظر اسمت غنيم : الحملة الصليبية الرابعة ومسؤولية انحرافها ضد القسطنطينية دار المجمع العلمي ، جده ١٩٧٨ ، ص ٦٩ - ٧٠

فكانت الحملة الصليبية الرابعة ، الا ان هذه الحملة لم تسر بالطريق الذي رسم لها ، بل انحرفت وهاجمت القسطنطنية ،واستولت عليها سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م ،وأقامت امبراطورية لاتينية مكانها .

تعد هذه الحملة نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية ، اذا ان المطامع والمصالح الاقتصادية والتجارية لبعض المدن الاوربية ، آخذت تحتل المكانة الاولى ، وغلبت على الاندفاع الديني . وقد دفع هذا البابا انوسنت الثالث ومن بعده هونوريوس الثالث بالدعوة لحملة صليبية خامسة (١) . لتحقيق مافشلت في تحقيقه الحملة الرابعة ، الا وهو احتلال مصر لانها مفتاح الشام عامة وبيت المقدس خاصة ، وعدا عن ذلك فان مصر بعد احتلالها تصبح مصدر ثروة لهم ويحرم العالم العربي الاسلامي من مواردها البشرية والمالية الضخمة . وقد آدرك المؤرخون العرب المسلمون المعاصرون هذه الحقيقة ، وفسروا في ضوئها اتجاه الحملات الصليبية ضد مصر منذ القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي /

توجهت هذه الحملة التي عرفت بالخامسة نحو دمياط وفي اثناء حصارها للمدينة توفي السلطان العادل في ١٧ جمادى الاخرى سنة ٦١٥ هـ / ٣١ آب اغسطس ١٢١٨ م ، والبلاد في خطر داهم ،والعدو يعمل على استغلال الفرصة ، وخلفه ابنه الملك الكامل في حكم مصر ، وابنه الملك المعظم في حكم دمشق . وقد حاول الكامل الوقوف بحزم امام الصليبيين (٢)، الا ان الموقف الداخلي كان سيئا ، اذ

---

(١) عاشور : المرجع السابق، ص ٧٣

(٢) عاشور: الحركة الصليبية ، جزء ٢ ،ص ٩٦٩ - ٩٧١

حدثت موآمرة في مصر ضد الكامل لصالح أخيه الفائز (١) . اضافة الى نزوح قبائل بدوية من سيناء والشرقية للنهب والسلب (٢) ، حين كان موقف الكامل يسير الى الاسوأ كان موقف الصليبيين في تحسن بسبب وصول النجدات .

اتسمت سياسة السلطان الكامل عموما بالتساهل أمام الصليبيين ، وقد أدت سياسة التساهل هذه وخوف الكامل من نجاحهم في دخول دمياط الى ان يعرض عليهم عرضا سخيا يتمثل بموافقته على احياء مملكة بيت المقدس الصليبية باستثناء حصن الكرك ووادي عربه ، مقابل جلاء الصليبيين عن مصر ، ولكن العرض رفض من المندوب البابوي . وقد جدد الكامل هذا العرض ثلاث مرات اخرى فرفض (٣).

ويحار المؤرخ في تفسير الاسباب التي دعت الكامل الى تقديم هذه العروض المغرية ، والى التساهل مع الصليبيين لدرجة لايمكن تصورها اذ تعني ان الكامل مستعد للتنازل عن كل مكاسب صلاح الدين الايوبي . ويمكن تفسير ذلك في ضوء سوء الوضع العام في الخلافة العربية الاسلامية وهجمات المغول ، وضعف مصر الاقتصادي في تلك السنة ، بسبب انخفاض النيل وانتشار الوباء ،ورغبة الملك المعظم في العودة الى بلاد الشام مع سوء وضع حامية دمياط ، ووصول نجدة قوية من الانكليز والفرنسيين الصليبيين .

---

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٣٢٥
(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٢ ، ص ٣٢٦
(٣) عاشور : الحركة الصليبية ، جزء ٢ ، ص ٩٧٦

واذا كان الصليبيون قد نجحوا بدخول دمياط الا انهم لم يستطيعوا تحقيق هدفهم كاملا وفشلوا في تخطي المدينة (١) . الى جانب الاضرار والخسائر والمتاعب التي لحقتهم حين حاولوا ،وقد أدى ذلك الى طلب حنا الاول قائد الحملة من السلطان الكامل السماح لهم بالخروج من المأزق الذي وقعوا فيه ، وتركهم يعودون الى بلادهم سالمين ، مقابل الجلاء عن البلاد ، فوافق الكامل على ذلك ، وطلب منهم رهائن عن ملوكهم يبقون معه حتى يسلموا دمياط . وتم جلاء الصليبيين عنها في ١٩ رجب سنة ٦١٨ هـ / ٧ ايلول سنة ١٢٢١ م(٢)، وعقد هدنه مع قائد الحملة لمدة ثمان سنوات من سنة ٦١٨ - ٦٢٦ هـ / ١٢٢١ - ١٢٢٩ م شرط اطلاق الاسرى لدى الطرفين

٣ - سلطنة الكامل بن العادل :

تولى الكامل السلطنة بعد وفاة آبيه العادل في ١٧ جمادى الاخرى سنة ٦١٥ هـ / ٣١ اب اغسطس ١٢١٨ م ، وقد اتسمت سياسته بالتسامح السياسي والديني الى درجة تفريطه في حقوق العرب المسلمين ومن يقرأ تاريخه يرى ان ماقام به لايدل على تسامح ديني بقدر مايدل على التخاذل والتهاون آمام الاعداء . ويعزو بعض المؤرخين أن نشأة الكامل العلمية أدت الى التفاهم مع الاعداء ولا أظن أن النشأة العلمية والثقافية تعني التساهل في الحقوق ، بل كلما اتسعت ثقافة الانسان اصبح اكثر قدرة على التلاؤم مع الظروف ، وأقدر على فهم الحق والواجب .

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٣٢٩ - ٣٣٠

(٢) إبو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٣٠

الخلاف بين افراد الاسرة الايوبية في عهد السلطان الكامل

نجح الايوبيون في صد الحملة الصليبية الخامسة بسبب تعاونهم ووقوفهم صفا واحدا أمام هجمتهم الشرسة على دمياط(١) واكتسب الملك الكامل نتيجة لهذا النجاح من النفوذ والسلطان ماجعله يفرض سيطرته على امراء الشام ، ولكن الايوبيين مالبثوا كعادتهم حين يزول خطر العدو أن عادوا الى مادرجوا عليه من صرف قوتهم في المنازعات الداخلية ، لتحقيق مطامع اقليمية (٢)

بدأ الخلاف بين السلطان الكامل وأخيه المعظم منذ سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م ، ويعود الخلاف الى اطماع المعظم عيسى وجشعه ورغبته في جعل المناطق المحيطة به في بلاد الشام تحت امرته . ولتحقيق ذلك هاجم حماه ، واستولى على بعض اعمالها مثل المعرة وسلمية وكانت لابن عمه الناصر صلاح الدين قلج ارسلان ، ولكن الكامل باعتباره سلطانا للايوبيين فرض على أخيه الملك المعظم ترك ما استولى عليه فكان ذلك بداية الخلاف بينهما (٣).

أدى الخلاف بين ابناء السلطان العادل ومطامعهم في التوسع على حساب بعضهم بعضا ، وتعرض بعض املاكهم لهجمات الخوارزمية الى خلافات شديدة تسببت مع جملة اسباب اخرى الى قدوم الحملة

---

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٤٦٣

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٤٦٣

(٣) ذيل الروضتين : ص ١٣٣ - ١٣٤ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جزء ١٢ ، ص ٤٦٣ - المقريزي : السلوك ، جزء ١ ص ٢١٤ - يوسف درويش غوانمه : اضواء جديدة على الملك الناصر داود وتحرير بيت المقدس ، مجلة دراسات تاريخية العدد الرابع ، ص ٢١٢ .

الصليبية السادسة . فقد حدث في هذه الفترة الحرجة ازدياد سلطة الخوارزمية الذين باتوا يهددون السلطنة الايوبية في الجزيرة وبشكل خاص املاك الملك الاشرف ، وهرع الاخير الى أخيه المعظم في دمشق سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م طالبا منه العمل بسرعة لتوحيد جبهة البيت الايوبي أمام خطر الخوارزمية [١]. ولكن المعظم صاحب دمشق أراد ان يستغل الفرصة التي اتيحت له لصالحه الشخصي فقبض على اخيه الاشرف في دمشق ، ولم يطلق سراحه الا بعد ان تعهد له بمساعدته في الاستيلاء على حمص وحماه ، ثم مهاجمة أخيهما الكامل في مصر ، وقد تعهد الاشرف بذلك لينال حريته ثم نقض ما اتفقا عليه ، لانه تعهد به مكرها . وانضم بذلك الى أخيه الكامل ضد الملك المعظم [٢] .

انقسم البيت الايوبي بذلك على نفسه الى فريقين ، عمل كل منهما على الاستعانة بقوة خارجية ، فاستنجد الملك الكامل بالامبراطور فريدريك الثاني [٣] طالبا مساعدته ضد آخيه ، مقابل

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٢ ،ص ٤٦٤

(٢) ابن الاثير: المصدر السابق ،جزء ١٢ ،ص ٤٢١ – ٤٢٢
انظر ذيل الروضتين ، ص ١٣٣ – يوسف غوانمه : امارة الكرك الايوبية ، ص ٢١١ – ٢١٢ — Wiet : Op . Cit . , P 352

(٣) هو ملك الامبراطورية الجرمانية المقدسة ، والذي سعى الى توسيع سيطرته على ايطاليا وصقلية ، ووعد البابا بالقيام بحملة صليبية الى المشرق بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة وتزوج من يولاند وريثة عرش بيت المقدس وابنة حنادي برين .
انظر عاشور : اوربا في العصور الوسطى،جزء ١،ص ٣٨٠ – ٣٨٦

اعطائه بيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل [1]. تلك الاملاك التي لاتتبع له من جهة لانها من آملاك المعظم ، ولايملك حق التنازل عنها . كما اتفق الملك المعظم مع جلال الدين الخوارزمي ضد آخيه الاشرف وحرضهم ضده ،فحاصروا عاصمته خلاط في ذي القعدة سنة ٦٢٣ هـ / تشرين الثاني نوفمبر ١٢٢٦ م [2] .

لم يلبث المعظم آن توفي سلخ ذي القعدة سنة ٦٢٤ هـ / ١١ تشرين الثاني نوفمبر ١٢٢٧ م [3]، فخلفه في ممتلكاته ابنه الناصر داود وهو شاب لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره [4]، ولم يكن على حظ من التجربة والخبرة ، فوجد السلطان الكامل في وفاة المعظم وتولية الناصر داود فرصة طيبة لتحقيق أهدافه ، وضم المنطقة التابعة لابن آخيه ، وجعلها تحت سلطته المباشرة . فتوجه بعساكره في رجب سنة ٦٢٥ هـ / ٢٠ تموز يوليو سنة ١٢٢٨ م الى بلاد الشام، حيث استولى على بيت المقدس ونابلس .

لم يجد الناصر داود بدا من الاستنجاد بعمه الاشرف موسى الذي قدم لمساعدته بناء على طلبه ، ولكنه مالبث ان اتفق مع اخيه الكامل على الاستيلاء على دمشق في نهاية سنة ٦٢٥ هـ /سنة ١٢٢٨ م [5]وادعى الكامل بأن ماقام به كي لاتقع البلاد في ايدي الصليبيين.

(١) الشيال : المرجع السابق ، ص ١١٥ — Wiet:Op. Cit., P 352
(٢) الشيال : المرجع السابق ، ص ١١٤
(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٤٧١
غوانمه : اضواء جديدة على الملك الناصر داود ،ص ٩٨
(٤) ابن الاثير: المصدر السابق جزء ١٢ ،ص ٤٧٢
غوانمه : المرجع السابق ، ص ٩٨
5)- Wiet : Op . Cit . , P 355

وصل الملك فردريك الى الشام بعد أن كان سبب استدعائه قد زال فالملك المعظم قد توفي ، واملاكه وزعت باتفاق الاخوين الاشرف والكامل ، واستقر الوضع بين ابناء البيت الايوبي في الشام، ولم يعد الكامل محتاجا الى مساعدته [1]. والتفريط في بيت المقدس يؤذي مشاعر العرب المسلمين ، ومع ذلك فان السلطان الكامل عقد اتفاقية يافا [2] التي تنص فيما تنص عليه على تسليم مدينة القدس للصليبيين اضافة الى مدن اخرى .

أدى تسليم بيت المقدس للصليبيين بتلك السهولة الى اثارة موجة عامة من السخط والاسى في العالم العربي الاسلامي ،وعدها الجميع وصمة في جبين السلطان الكامل وعصره . وقد استغلها ابن أخيه الناصر داود وأمر خطيب المسجد الاموي بالوعظ ضد هذا التصرف ، ونعته المؤرخون بالخيانة والتقصير ، واعتبروا ذلك العمل وصمة في الدين [3] . وقد أحس الكامل بذلك ، فحاول ان يبرر عمله بمبررات لم يقتنع الناس بها .

٤- انحلال السلطنة الايوبية وسقوطها :

آ - الخلافات بين افراد الاسرة الايوبية في عهد السلطان الكامل :

اتضح انحلال الدولة الايوبية منذ توقيع معاهدة يافا بين السلطان الكامل محمد وفردريك الثاني ، وزاد الامر وضوحا اثر وفاة

---

(١) ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٤ ،ص ٢٣٤
(٢) عاشور : المرجع السابق ، ص ٩١ ، نقلا عن المقريزي : السلوك
(٣) ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٢٤٣

السلطان الكامل في رجب سنة ٦٣٥ هـ / مارس آذار ١٢٣٨ م (١)، وكان لهذا الانحلال مظاهر متعددة، على رأسها :

- نشوب حروب بين امراء الايوبيين كادت تكون مستمرة
- زوال فكرة السلطان الاكبر الذي كان يعترف به وبسلطته جميع امراء الايوبيين ، ويعدون انفسهم تابعين له، فزال بذلك التضامن العائلي وتبع ذلك محاولة كل أمير الحفاظ على امارته ولو بالاستعانة بالاعداء من صليبيين وغيرهم ، بعد ان كانت فكرة قتال الصليبيين واخراجهم واجب الاسرة الرئيسي .

وقد تجلت الخلافات العائلية بأجلى صورها في محاولة الناصر داود العودة الى ملكه السابق في دمشق في جمادى الاولى ٦٢٦ هـ / نيسان ابريل ١٢٢٩ م ، وفشله امام تحالف عميه الاشرف والكامل ضده . ومن ثم فانه قنع بالكرك والسلط والبلقاء ، حيث شكل بها امارة الكرك الايوبية ، على حين أعطى الكامل مدينة دمشق لاخيه الاشرف ، مقابل تنازله له عن جهات في الجزيرة (٢) .

لم تتوقف الخلافات العائلية في سلطنة الكامل عند هذا الحد، بل ان مابدا للعيان انشقاقها الى فريقين . فقد انشق الاشرف على أخيه الكامل ، وتحالف مع اقربائه في حمص وحماه وحلب . على حين

---

(١) ابو شامة : ذيل الروضتين ، ص ١٦٦

(٢) الذهبي : دول الاسلام ، جزء ٢ ، ص ١٣٣ —

ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٤ ، ص ٢٥٧

بقيت امارة الكرك تمثل مركزا لتوازن القوى بين الفريقين المتنازعين ويعبر اليونيني (١) عن ذلك حين يذكر حديثا لاحد الامراء مع السلطان الكامل يقول فيه : (أنت وآخوك -الاشرف موسى - مثل الميزان لايرجح عليك ولاترجح عليه • وقد بقي بينكما الملك الناصر داود، فالى أي جهة مال ترجحت) • وكادت تقع حرب بين الفريقين لولا وفاة الاشرف موسى في محرم سنة ٦٣٥ هـ / اغسطس آب ١٢٣٧ م (٢) وانتقال ملك دمشق بعده الى اخيه الصالح اسماعيل بعهد منه •

استمر الصالح اسماعيل كسلفه الاشرف في تحالفه مع اقربائه ضد السلطان الكامل ، مما دفع بالسلطان الى الخروج الى دمشق بعد ان استمال اليه ابن أخيه الناصر داود صاحب الكرك وعدوه بالامس • فاضطر الصالح اسماعيل تحت ضغط هذه القوة الى التنازل عن دمشق مقابل بعلبك والبقاع وبصرى •

ب - العادل الثاني والصالح ايوب :

توفي السلطان الكامل في مدينة دمشق بعد دخولها بمدة قصيرة • فبايع كبار رجال دولته ابنه الاصغر العادل الذي عرف بالثاني (٦٣٥ - ٦٣٧ هـ / ١٢٣٨ - ١٢٤٠ م) متجاهلين ابنه الاكبر الصالح ايوب الذي كان يحكم املاك والده في الشمال من قاعدته سنجار• كما جعلت دمشق للملك الجواد - زوج ابنة الاشرف موسى -

---

(١) الذيل على مرآة الزمان ، مطبعة دار المعارف العثمانية ، الهند ١٩٦١ م ، جزء ١ ص ١٣٨

(٢) ذيل تاريخ الروضتين ، ص ١٦٦

لم يرق هذا العمل للصالح نجم الدين ايوب ، وشعر بأن توزيع أملاك ابيه الكامل لم يكن عادلا ، وأن الذين قاموا بهذا العمل، كانت غايتهم ابعاده عن المناطق الرئيسة ليجعلوا السلطان العادل الثاني الذي كان طفلا غرا ، وليس له خبرة وتجربة في الحكم تحت سيطرتهم المباشرة . فنهض الصالح ايوب للمطالبة بحقه في عرش ابيه ، ولما لم يكن يستطيع اثبات ذلك الا باستخدام القوة ،فانه سار باتجاه دمشق ، حيث ملكها من صاحبها مقابل اعطائه املاكا في الشمال في سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م

أدى تحرك الصالح ايوب للمطالبة بحقه الى وقوع العداء بينه وبين أخيه الملك العادل الثاني . وأراد كل منهما ان يثبت حقه بالقوة ، واستعان الصالح بالجنود الخوارزمية على حين استعان العادل الثاني ببعض ابناء البيت الايوبي . وتقدم الصالح ايوب الى مصر بعد ان ترك ابنه نائبا عنه في دمشق . وسنحت له الفرصة بدخول القاهرة في ذي القعدة سنة ٦٣٧ هـ / ١٩ حزيران يونيو ١٢٤٠م اثر مؤامرة دبرها ضد أخيه فيها (١). وبذلك انتهى دور العادل الثاني ، وتربع الصالح ايوب على عرش السلطنة .

كان الصالح ايوب شخصية قوية ، وقد شهد عصره احداثا داخلية وخارجية هامة ، من ذلك أن أقاربه نهضوا للعمل ضده . فقد استرد عمه الصالح اسماعيل مدينة دمشق ،وسجن ابن الصالح ايوب ونائبه فيها . ثم تحالف ضده مع الناصر داود وصاحب حمص مع الصليبيين ، وتوجه الجميع نحو الجنوب باتجاه مصر . كما

(١) الذهبي دول الاسلام ، جزء ٢ ، ص ١٤٢ - ١٤٣

سار اليهم الصالح ايوب ، والتقى الفريقان في معركة عند مدينة غزه ، حيث انتصر الصالح ايوب على هذا التجمع ، ووطد سلطته في الداخل .

ج ـ الناصر داود واسترداد بيت المقدس :

لم يحاول الايوبيون استعادة بيت المقدس منذ تسلمه فردريك الثاني حتى سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م ، على الرغم من بقائها غير محصنة حسب اتفاقية يافا بين السلطان وفريدريك الثاني . ويعود سبب عدم تحصينها الى الظروف السيئة التي كان يعيشها الصليبيون في تلك الفترة . أما عن الاسباب التي دعت الايوبيين الى الركون مع الصليبيين ، وعدم استعادة بيت المقدس فتعوذ بالدرجة الاولى الى الخلافات التي نشبت بين افراد الاسرة الايوبية (١)، والى تعرضهم الى هجمات عدد من القوى على رأسها الخوارزمية . فقد هدد هؤلاء الخلافة العباسية في بغداد ثم هاجموا بعض المناطق التابعة للسلاجقة والايوبيين ، فاستولوا على خلاط في جمادى الاولى سنة ٦٢٧ هـ / نيسان ابريل سنة ١٢٣٠ م (٢)، وقد افزعت همجية الخوارزمية حكام العرب المسلمين في المنطقة فتناسوا خصوماتهم وعملوا يدا واحدة للقضاء عليها فقد تحالف الايوبيون مع سلاجقة الروم ،وعملوا معا على استرداد خلاط (٣) . ولم يلبث سلطان الخوارزمية أن قتل وتمزقت دولته على يد المغول ، الذين أصبح خطرهم قاب قوسين

(١) انظر فيما سبق

(٢) ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٢ ، ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨
الذهبي : دول الاسلام ، جزء ٢ ، ص ١٣٣

(٣) ابن الاثير : المصدر السابق ،جزء ١٢ ،ص ١١١ و ص ٤٨٩

أو آدنى من املاك الايوبيين في الجزيرة [1]. كما تعرض الايوبيون لخطر جيرانهم سلاجقة الروم احلافهم بالامس ، الذين طمعوا بملكية خلاط والرها وحران .

وعلى الرغم من هذه الظروف السيئة التي كانت تحيط بالايوبيين والتي يمكن تلخيصها بالتمزق الداخلي والاعداء المتربصين بهم على الحدود ، فان الناصر داود نهض في سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م لتحرير بيت المقدس ، وساعده في تحقيق هدفه الامور التالية :

- رغبته الكاملة في تحرير بيت المقدس
- وفاة عمه السلطان الكامل محمد الذي سلم بيت المقدس لقمة سائغة للصليبيين .
- قيام الصليبيين بتعزيز وجودهم في المدينة المقدسة ، مخالفين بذلك بنود اتفاقية يافا ، فأعادوا بناء بعض أسوار القدس ، ثم عمروا في غربيه قلعة جعلوا برج داود من ابراجها [2]، وشحنوها بالجند والعتاد . وحاصر الناصر داود بيت المقدس واجتاحه في جمادى الاولى ٦٣٧ هـ كانون الاول ديسمبر ١٢٣٩ م وطهره من الفرنج [3] .

---

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ، جزء ١٢ ، ص ٤٩٥ — ٥٠٤

(٢) اليونيني : المصدر السابق ، جزء ١ ، ص ١٤١
ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٢٤٦

(٣) هاملتون جب : صلاح الدين الايوبي ، ترجمة يوسف ابيش بيروت ١٩٧٣ م ص ٢٢٢

بقي بيت المقدس في يد الناصر داود حتى سلمه الصالح اسماعيل صاحب دمشق ثانية للصليبيين ، مقابل مساعدتهم له عسكريا ضد ابن اخيه الصالح نجم الدين ايوب صاحب مصر [1] ثم عمل الصالح ايوب بمساعدة جنوده من الخوارزمية على استعادته في سنة ٦٤١ هـ / تموز يوليو سنة ١٢٤٤ م

د - الصالح أيوب والخوارزمية :

كان الصالح ايوب قد حالف الخوارزمية منذ كان في شمال بلاد الشام في سنجار للوقوف أمام اعدائه من جيرانه . وكان جنود الخوارزمية قد شردوا من المغول بعد أن قضوا على دولتهم ، فتقدموا يعرضون خدماتهم الحربية لكل من يريدها من ملوك الدول الاسلامية المجاورة [2]. فضم الصالح ايوب بعض هؤلاء اليه ، وشكل منهم فرقة كبيرة استعان بها لمجابهة تحالف الايوبيين مع الصليبيين ضده ، وكانوا سببا في الانتصار الذي حققه على هذا الحلف في معركة غزة ، كما ساعد هؤلاء الصالح أيوب في استعادة بعض المدن على ساحل فلسطين اضافة الى طبرية ونابلس وبيت المقدس .

كان الخوارزمية يأملون أن يكافئهم الصالح ايوب بالسماح لهم بالاستقرار في مصر ، فخاب أملهم فانقلبوا ضده ، فسار اليهم وقاتلهم وانتصر عليهم . ثم استغل وجوده في بلاد الشام ، فدخل مدينة دمشق ، كما فتح مدينة عسقلان [3] .

---

(١) ابن واصل : المصدر السابق ، جزء ٥ ، ص ٣٣٣

(٢) الشيال : المرجع السابق ، ص ١٢١

(٣) عاشور : مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ، ص١٠٤

وهكذا تمكن الصالح أيوب من أن يعمل على تقليص الاراضي التابعة للصليبيين حتى ابواب يافا ، كما عمل على توحيد الدولة الايوبية ثانية تحت سلطته حتى مدينة دمشق مع بيت المقدس ، واذعن له جميع الملوك الايوبيين في الشام بالطاعة .

أدى استرداد بيت المقدس على يد الناصر داود ، ومن ثم على يد الصالح ايوب الى قدوم حملة صليبية سابعة وجهتها دمياط في سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م وفي تلك الفترة الحرجة من تاريخ مصر توفي السلطان الصالح ايوب ، فقامت أرملته شجر الدر بدور بارز ، فقد اخفت خبر وفاة زوجها ، وأخرجت الكتب والمراسيم باسم السلطان ، كما أخذت البيعة من المماليك لتوران شاه ابن الصالح ايوب المقيم في حصن كيفا ، وأرسلت اليه حاضة له على الحضور فأتى وكانت هزيمة الحملة الصليبية السابعة على يديه . وجرت بينه وبين الصليبيين مفاوضات كانت لصالح الايوبيين وعقد على أثرها معاهدة كان من شروطها ان يدفع الصليبيون للايوبيين مبالغ ضخمة من المال ، مقابل فداء الجيش الفرنسي ، وأن يدعوا دمياط فداء لملكهم لويس التاسع . وأن يكون هناك صلح مدته عشر سنوات .

على ان توران شاه مالبث ان قتل قبل ان يتم تنفيذ الاتفاقية السابقة مع الصليبيين ، وأدى هذا الى سقوط السلطنة الايوبية في مصر ، وقيام دولة المماليك في ٢٩ محرم سنة ٦٤٨ هـ/ ٤ مايس مايو ١٢٥٠ م . وبمقتله انقرضت السلطنة الايوبية بالديار المصرية بعد حكم دام احدى وثمانين سنة من ٥٦٧ الى ٦٤٨ هـ

كان لمقتل الملك المعظم توران شاه وانهاء الدولة الايوبية في مصر اثار بعيدة المدى لدى ايوبية الشام ، اذ آثار ذلك مشاعر السخط والغضب والكراهية في نفوس أشياع الايوبية ، فارتفعت أصوات الساخطين والمتذمرين ، وكان رد الفعل سريعا عندما بادر الملك الناصر يوسف صاحب حلب بالزحف الى دمشق وتمكن منها بمساعدة الامراء الذين كاتبوه ورغبوه في فتحها . كما توسع في الصلت وعجلون .

وبرزت الكرك في تلك الفترة ايضا على يد الملك المغيث عمر ابن العادل الذي اعتلى عرش امارة الكرك في ١٣ ربيع الاول سنة ٦٤٨ هـ / ١٦ يونيو حزيران ١٢٥٠ م ورتب اموره بها ، وأعاد لامارة الكرك سابق عهدها ، وأصبحت تضم البلقاء والكرك والشوبك . وعادت امارة الكرك لتلعب دورها من جديد في الصراع بين الايوبيين والمماليك الذين لم يعترف الايوبيون بشرعية توليهم الحكم في مصر ، وعقدوا العزم على قتالهم واستخلاص البلاد منهم .

وكان طبيعيا ان يوثق المغيث عمر صلاته بأقربائه من البيت الايوبي لتتوحد صفوفهم أمام المماليك في مصر ، فبدأ يتقرب الى الملك الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب ، ووعده بأنه لن يتخذ اي أمر الا بعد مشورته وأخذ رأيه . فرحب الناصر يوسف بهذا العرض وأقره على الكرك فاستقر أمره . وبذلك اعترف الملك الناصر يوسف بشرعية تملك الملك المغيث عمر لامارة الكرك تمكينا لوحدة الصف الايوبي .

حاول ايوبيو الشام بعد ان نظموا أمورهم فيها ان يعملوا

على استعادة مصر والقضاء على المماليك ، الا انهم فشلوا ، كما حاول الملك المغيث عمر الاستيلاء على مصر لصالحة الا انه فشل وعاد الى الكرك ، وانشغل الايوبيون بعدها بخطر مدمر ، اجتاح العالم العربي الاسلامي واكتسح بغداد وقضى على الخلافة العباسية في ١٤ صفر ٦٥٦ هـ / ٢٠ فبراير شباط ١٢٥٨ م وهو الخطر المغولي، الذي زحف الى الشام في طريقه الى مصر .

وكان خطر المغول الداهم يضغط بشدة على الامراء الايوبيين بالشام ، ومع ذلك لم يستفد هؤلاء من اخطاء الماضي ، ولم يحاولوا توحيد الصفوف والوقوف صفا في وجه هذا الخطر المدمر . وأخذت دمشق والكرك تتنازعان الزعامة وتتصارعان مما أدى الى استنزاف قوى دمشق وضعفها أمام المد المغولي الذي احتاح الشام ، فلم تقو لا هي ولا غيرها من الامارات الموزعة في بلاد الشام على الصمود امامه .

وكان للاسطورة التي اشيعت عن المغول بأنهم قوة لايمكن قهرها أعظم الاثر في انتشار حالة من الذعر بين أهالي الشام ، فمنهم من فر الى القرى ، ومنهم من لاذ بالبادية ، ومنهم من لجأ الى مصر . في حين تسابق الملوك والامراء الايوبيون في الشام وقد شلهم الخوف الى تقديم الولاء واعلان الخضوع الى هولاكو ، فمنهم من حضر طائعا ومنهم من أرسل رسله معلنا خضوعه وطاعته . فالملك الناصر يوسف اعتذر لهولاكو عن عدم حضوره بنفسه ،وأرسل اليه ولده العزيز محمد وحمله عددا من التحف والهدايا ، ولكن هولاكو لم يقبل عذره ، وطلب منه الحضور بشخصه وهدده وتوعد .

أما الملك المغيث عمر أمير الكرك ، فقد أرسل ابنه الملك العزيز ، فاجتمع الملك العزيز بهولاكو بمدينة تبريز ، وقدم اليه رسالة من والده يلتمس فيها أمانا له ولامارته ، فحصل عليه .

ولما وصل المغول الى شمال الشام خاف أهاليها كثيرا ، وحاول الملك الناصر يوسف ملك دمشق الوقوف في وجههم ، فحشد قواته وأرسل في طلب العون من الملك المغيث أمير الكرك ، كما ارسل المؤرخ الحلبي الشهير كمال الدين عمر بن ابي جراده المعروف بابن العديم الى مصر يستنجد ويطلب العون والمساعدة . وعلى الرغم من ذلك فان اهالي دمشق خافوا المغول وهاجروا منها الى مصر ، وهلك الكثير منهم في الطريق ، كما غادرها ملكها الايوبي الناصر يوسف بنذالة وجبن تاركا مصيرها التعس في ايدي اهاليها ،الذين أخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عن مدينتهم فاعتلى الاهالي الاسوار وتأهبوا للصمود . أما الناصر فقد انحدر جنوبا الى غزة بقصد الدخول الى مصر . وكان طبيعيا ان تستسلم دمشق منذ الهجمة الاولى ، وتم ذلك في ٢٦ ربيع الاول ٦٥٨ هـ / ١٣ مارس اذار ١٢٦٠ م وتسلمها نواب هولاكو ، وبذلك تكون امارة دمشق الايوبية قد سقطت وانتهت ، ولم يبق من الامارات الايوبية سوى امارة حمص وحماه والكرك .

أما حمص وحماه فقد بقيتا تحت حماية الايوبيين وبرغبة قطز شخصيا حيث أقر كل أمير على امارته لبلائهما في معركة عين جالوت . وأما الكرك فقد أرسل الملك المغيث عمر قواته للمشاركة في شرف الجهاد ضد المغول ، وبعد الانتصار ، ارسل المغيث

كتبه الى قطز طالبا منه أبقاءه على ما في يده ، فأجابه بشرط أن يتولى الكرك والشوبك فقط . أما الصلت والخليل والبلقاء ،فقد انتزعها منه .

وحين تولى الملك الظاهر بيبرس عرش السلطنة المملوكية ، اعتقل الملك المغيث عمر صاحب الكرك ، وأرسله الى الديار المصرية حيث قتل هناك ، وكان ذلك في سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م .

وعلى الرغم من تعدد الاسباب التي ذكرها المؤرخون عن اعتقال الظاهر بيبرس للمغيث عمر والتي يمكن الوثوق ببعضها والحذر من بعضها الاخر يمكن القول ان اهم هذه الاسباب هو خوف الظاهر بيبرس على عرشه من المغيث عمر ، لانه كان يدرك قوة المغيث ومبلغ طموحه .

لم يبق بعد القضاء على امارة الكرك الايوبية سوى امارة حمص التي لم تلبث أن أصبحت نيابة مملوكية بعد وفاة صاحبها . وامارة حماه التي وضع أميرها نفسه تحت حماية المماليك وكأنه أمير منهم ، حتى أنه يمكن القول انه بانتهاء الملك المغيث عمر واعتقاله انتهت الدولة الايوبية بالفعل في بلاد الشام ، بعد ان حملت لواء الجهاد والنضال فترة من أحلك فترات العالم العربي والاسلامي . وضربت أروع الامثلة في التضحية والفداء . وفيها يقول ابن الاثير : (ولعمري أنهم نعم الملوك ، فيهم الحلم والجهاد والذب عن الاسلام)

أما ملوك مملكة حماه الايوبية بعد سقوط السلطنة الايوبية في مصر منهم : الملك المنصور الثاني محمد (٦٤٢ - ٦٨٣ هـ / ١٢٤٤ -

١٢٨٤ م) الذي عمت الاضطرابات مصر والشام في عهده ، وسقطت دولة بني ايوب وانتقل الحكم الى المماليك البحرية في مصر، وعلى الرغم من ذلك فقد بقي الملك المنصور الثاني محمد على الحياد اثناء هذه الاضطرابات .

وحين تعرضت الشام لخطر الغزو المغولي وسقطت حلب في أيديهم توجه كبراء حماه الى حلب ومعهم مفاتيح حماه طالبين الامان لاهل حماه فامنهم هولاكو ، وتسلم المدينة والقلعة . وفر الملك المنصور الثاني محمد منها الى دمشق وفي نيته التوجه الى مصر .

وبعد انتهاء المعارك بين قطز والمغول أقر الملك المنصور على حماه ، فعاد اليها وقبض على جماعة كانوا من المتعاونين مع المغول واعتقلهم . وانتهج الملك المنصور الثاني محمد سياسة بعيدة النظر أدت الى بقاء الحكم الايوبي في حماه .

توفي الملك المنصور محمد في دمشق في شوال سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م ، وكان قد كتب في اثناء مرضه كتابا الى السلطان الملك المنصور قلاوون يسأله اقرار ابنه الملك المظفر محمود في مملكته على قاعدته ، فوافق على التعيين .

وجد الملك المظفر حماه بعد أبيه قوية عزيزة . وقد تابع عمه الملك الافضل - الذي كان الساعد الايمن لابيه الملك المنصور، جهوده في خدمة الملك الجديد بالروح والاخلاص نفسيهما اللذين أبداهما لاخيه المتوفى . حتى ساد حماه الهدوء الداخلي ، وطغت أخبار الفتوحات العسكرية وتحرير بلاد الشام من آخر معاقل

الصليبيين وخطر المغول في الاجواء السياسية العامة .

اتخذ الملك المظفر سياسة عدم التدخل في شؤون الحكم في مصر والالتزام بخط واضح وصريح هو الانصياع للحاكم بمصر أيا كان .

لذلك كانت علاقة الملك المظفر بالسلطان قلاوون جيدة ، وقد شاركه في العديد من المعارك ، واستمرت الحال على ذلك في عهد الملك الاشرف الذي حدثت في ايامه عدة معارك وغزوات وتم في عهده سقوط آخر مواقع الصليبيين اثر معركة عكا بمشاركة الملك المظفر وعسكر حماه . ثم انتقلت حلبة الصراع نحو بلاد الارمن ، كما بقي على الحياد من الاحداث التي جرت في سنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م والتي أدت الى تغيير في الحكم المملوكي .

توفي الملك المظفر محمود في يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م . وقد اجتمع اثر وفاته ابن عمه ابو الفداء ، والامير صارم الدين ازبك المنصوري وأخوة ابي الفداء أسد الدين عمر ، وبدر الدين حسن لبحث من يخلف الملك المظفر ، الا انهم اختلفوا في ذلك ولم يستطيعوا التوصل الى قرار . وصادف ان قرا سنقر اخرج من السجن ، فسلم نيابة السلطنة بحماه . وبذلك خرجت مملكة حماه من يد البيت التقوي الايوبي لاول مرة منذ تأسيسها ، وأصبحت تحكم من قبل رجالات المماليك بدءا من حكم قرا سنقر الذي خلفه كتبغا في ٢٤/ شعبان سنة ٦٩٩ هـ /١٢٩٩م

تميزت فترة حكم كتبغا بالنشاط العسكري ، ولكنه مالبث ان مرض وأصيب بالشلل في الفترة التي كان فيها المغول يقتربون

من المدينة . فعمل ابو الفداء على تسلم مهمة الدفاع عنها . ومالبث كتبغا آن توفي في ذي الحجة سنة ٧٠٢ هـ/ ١٣٠٢ م ، فأرسل ابو الفداء اثر وفاته يعرض على السلطان توليته حماه على قاعدة أهله . لكن رسالة أبي الفداء وصلت متأخرة اذ كان السلطان قد قرر عليها سيف الدين قبجق نائبه في الشوبك فوعده السلطان بحكمها مستقبلا .

وبعد تسلم حكم حماه من قبل عدد من الامراء المماليك انتقلت الى ابي الفداء ، الذي كان قد تدرج في سلك الخدمة منذ نعومة اظافره لعلمه ونباهته وحسن تصرفه .

ارتبط ابو الفداء بالسلطان محمد بن قلاوون بصداقة قوية ، وبقي مخلصا لها ، لانه أدرك ان مستقبله السياسي مرتبط بهذه الصداقة ، ذلك ان سلاطين المماليك كانوا دائما وابدا حريصين على اعادة حماه الى حكمهم المباشر .

وبذلك يكون ابو الفداء قد حفظ للسلطان صنيعه في اعادة الحكم للبيت الأيوبي ، وعمل هو شخصيا على تهيئة ولي العرش خشية من أن يحدث بعد وفاته ماحدث بسبب الوفاة المفاجئة للملك المظفر الثالث محمود حين توفي دون أن يهيىء وليا لعهده . ولذلك فانه عمل على تهيئة ابنه محمد ليتسلم عرش حماه من بعده ،وان يمهد بذلك بتقريب ابنه من السلطان وتعريفه به في كل فرصه ومناسبة . وسعى الى اخراج المماليك منها برضاء السلطان الذي أصدر مرسوما بنقلهم الى حلب مع ابقاء اقطاعاتهم التي في حماه حتى يعوضوا عنها ، ولم يبق في حماه سوى من اختار ابو الفداء مقامه عنده .

توفي ابو الفداء في محرم من سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م عن عمر يناهز ستين عاما وذلك بعد مرض ألم به .

تنبع عظمة أبي الفداء من شخصيته المتزنة ومخططه الواضح وهو صاحب همة عالية وطموح كبير مع اصرار وعناد وعدم قبول بالحلول الوسط الا على اساس مرحلي ضمن مخطط أصر على تنفيذه ونجح في التخطيط والاسلوب والتنفيذ . فأبو الفداء عالم ومؤرخ عرف العلم وقدره ودرس التاريخ وألف فيه ، اضافة الى ذلك عرف أهمية الجغرافيا وتوجيهها للتاريخ في عصره .

كان الامر مهيئا لناصر الدين محمد بن ابي الفداء لاستلام زمام الحكم في مملكة ابيه ، مؤيدا من السلطان الحاكم في مصر وبلاد الشام بعد وفاة ابيه أبي الفداء سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م وسمي بالسلطان الملك الافضل ناصر الدين ، وقد حكم بين سنتي ٧٣٢ - ٧٤٢ هـ / ١٣٣١ - ١٣٤١ م .

حاول الملك الافضل اتباع سياسة ابيه في التقرب من السلطان في مصر ، كما شارك في الحملات العسكرية التي خاضها المماليك في فترة حكمه ، الا انه لم ينل رضاء أهالي حماه المطلق على تصرفاته . وتواردت الشكاوى ضده الى السلطنة . ومالبث أن فقد سنده بوفاة السلطان الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحي والذي عهد لولده السلطان الملك المنصور آبي بكر ،ولذلك مالبث ان عزل على يد توصون الذي نقله الى دمشق وجعله أميرا من جملة امرائها ، بعد ان حكم حماه عشر سنين . وذلك لكثرة الشكاوى التي قامت ضده ولتغير سيرته .

وبعزل الملك الافضل انتهت مملكة حماه الايوبية وانتهى حكم البيت الأيوبي ، وانزلت مرتبة حماه من مملكة الى نيابـــه . وانتقل حكم بلاد الشام نهائيا الى المماليك .

الفصل الرابع

دور الزنكيين والايوبيين الحضاري

١- الحياة العلمية والفكرية
- أسباب بناء المدارس
- المؤسسات التعليمية
  آ - المدارس
  ب - المساجد
  ج - الاربطة والخوانق
- التدريس
- اعضاء الهيئة التعليمية
  آ - المدرسون
  ب - المعيدون
  ج - الطلاب
- ثقافة العصر العامة
- المدارس المحدثة في عهد الدولة الزنكية والايوبية

٢- الحياة الاقتصادية
- الزراعة
- الصناعة
- التجارة
- النقود

٣- الحياة الاجتماعية

٤- الجيش البري والبحري
- الجيش البري
  آ - في عهد الزنكيين
  ب - في عهد الايوبيين
- الجيش البحري .

الفصل الرابع

دور الزنكيين والايوبيين الحضاري

١- الحياة العلمية والفكرية

- أسباب بناء المدارس

أهتم الزنكيون ومن ثم الايوبيون بالعلم والعلماء ، ونهضوا بفتح المدارس حتى زاد عددها في تلك الفترة زيادة تلفت النظر في بلاد الشام أولا ، ثم في مصر والشام ثانيا . وقد عجب ابن جبير الذي زار بلاد الشام في سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م من نهضتها العلمية وسر لكثرة دور العلم والمساجد فيها وفضلها في هذا المجال على بلاد المشرق عامة ، ونصح نشأة المغرب بالتغرب في طلب العلم ، ودخول بلاد الشام للنهل من علومها ومعارفها ، حيث يجدون الامور المعنيات ، كما قرر أن الغرباء من طلبة العلوم فيها لايدخلون تحت حصر .

ومما لاشك فيه أن ازدياد عدد المدارس كانت له اسباب قوية أهمها :

١- كان بناء المدارس في العهد الزنكي ضمن اطار حركة الاحياء السني فقد اهتم الزنكيون بنشر المذهب السني عامة والحنفي خاصة . وتتضح غاية نور الدين من فتحه للمدارس حين نعلم ماقاله لجماعة من العلماء اجتمع بهم : (نحن ما أردنا ببناء المدارس الا نشر العلم ودحض البدع من هذه البلدة ، واظهار الدين) . كما شجع الايوبيون بناء المدارس للغرض نفسه .

فقد كان بناء صلاح الدين للمدارس ضمن خطة موضوعة .

٢- الاهتمام الكبير الذي حظي به العلماء والمدرسون . فقد وفر لهم نور الدين ومن بعده صلاح الدين والايوبيون عموما سبل الرعاية والتشجيع ، كما وفروا لهم الدخل الكبير والمساكن حتى يتفرغوا للعلم ونشره . ومن شدة اهتمام نور الدين بالعلم ، فانه كان يعمل على انتقاء المدرسين بنفسه ، ويستقدمهم من أماكن بعيدة ، ويفتح المدارس الكثيرة من أجلهم . وكان يكفي وجود عالم من العلماء في مادة من المواد كدافع لبناء مدرسة ليقوم بالتدريس فيها . فقد بنى نور الدين مدرسة لشرف الدين بن ابي عصرون في دمشق ، وفوض اليه التدريس فيها . وسمح له بأن يوليها من شاء . وبنى لقطب الدين النيسابوري مدرسة لم يتمها . كانت الغاية من بناء المدارس وسيلة لتخريج موظفين وأساتذة متعمقين بالمذهب السني ، كيما يتولوا الوظائف الحكومية .

٣- همة كل من نور الدين وصلاح الدين العالية في نشر الامن ، والوقوف بحزم للنهل من العلم . ولنا فيما كتبه ابو شامة أكبر دليل على ذلك . فقد تحدث عن نور الدين فقال :

(فاما فكره ففي اظهار شعار الاسلام وتأسيس قاعدة الدين من بناء المدارس والربط والمساجد ، حتى أن بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله ، وفي زمانه صارت مقرا للعلماء والفقهاء والصوفية ، لصرف همته الى بناء المدارس والربط وترتيب أمورهم ، والناس آمنون على اموالهم وانفسهم .

٤- كانت المدارس تدرس العلوم الدينية ، لذلك قصد السلاطين والامراء والاغنياء من تأسيسها التقرب الى الله وكسب الثواب .

- المؤسسات التعليمية :

تنوعت أماكن التعليم في ذلك العصر وتعددت ، فالمدارس والمساجد والخوانق والربط كلها أماكن لتلقي القرآن والعلوم الدينية وعلوم اللغة العربية وغيرها .

آ - المدارس :

كانت المدارس على نوعين أحده كان في أصله منزلا ، ولذلك لا طابع خاص له . والاخر بني خصيصا للتدريس . وكانت المدرسة في العصر النوري وأوائل الايوبي ذات ايوان أو ايوانين ، لتدريس مذهب فقهي أو مذهبين . ثم ظهر بعد ذلك الطراز والايوانات الاربعة ، مستطيلة البناء يتوسطها فناء كبير مربع ، يتوسط كل جانب من جوانبه الاربعة ايوان كبير يدرس بكل منها فقه امام من الائمة . وهناك وصف لمدرسة نور الدين زنكي لابن جبير الذي قال : (من أحسن مدارس الدنيا منظرا مدرسة نور الدين رحمه الله ، وبها قبره . وهي قصر من القصور الانيقة ، ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم . ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة الى ان يقع في صهريج كبير وسط الدار . فتحار الابصار في حسن ذلك المنظر) .

كانت المدارس التي تدرس الفقه أكبر المدارس ، بل هي اشبه بالجامعات لانها معاهد للتعليم العالي ، تختص في تدريس مذهب من المذاهب الاربعة وقد يدرس في مدرسة اكثر من مذهب واحد . ففي عهد نور الدين ، كان الاهتمام بتدريس المذهب الحنفي . وفي عهد صلاح الدين أصبح الاهتمام بتدريس المذهب الشافعي . ويمكن القول ان غالبية المدارس في تلك الفترة كانت توقف لتدريس الفقه الشافعي او الفقه الحنفي ، أو تكون مشتركة بين الشافعية والحنفية . وهناك مدارس أقل عددا للحنابله ، وتكاد تنعدم مدارس المالكية .

لم تكن المدرسة للتدريس فقط ، بل كانت مكانا لدفن واقفيها في الغالب ، كما كانت مسجدا أو كان يلحق بها مسجد تؤدى فيه الصلاة . فمدرسة الكلاسة مثلا كان يلحق بها مسجد وغيرها كثير . كما كان يلحق بالمدرسة سكن للمدرس ، فقد ألحق بدار الحديث الاشرفية دار للشيخ المدرس فيها . كما قطن الفخر بن عساكر بمدرسة الجاروخية .

كان يلحق بالمدرسة مكتبة عامرة بالكتب النفيسة يستخدمها الطلاب والاساتذة . وكانت الكتب مرتبة البيوت مقسمة الرفوف ، مفهرسة لسهولة الوصول اليها على ادق وأفضل طرق تنظيم المكتبات في عصورنا .

وكانت الكتب توقف على أشخاص بعينهم أو تودع في المدارس والزوايا للصالح العام . فقد وقف نور الدين كتبا كثيرة على أخذ العلم . والى جانب المكتبات العامة فقد كان هناك مكتبات خاصة لها قيمتها العلمية ، فقد كانت مكتبة القاضي الفاضل عبد الرحيم

ابن علي البيساني العسقلاني ، تتألف من مئة الف مجلدة • ولم تقتصر المكتبات في عهد الاسرتين على المدارس ، بل ألحقت بالجوامع مكتبات كبيرة ، فضلا عن المكتبات الخاصة • فقد ألحق صلاح الدين بمدرسته الصلاحية مكتبة كبيرة ، وألحق بكل مدرسة أنشأها مكتبة أصغر • أما عن مافعله صلاح الدين بمكتبة القصر الفاطمية ، فلابد من ذكر أنه فعل ذلك في وقت كان يعمل فيه على محاربة الفاطميين ومذهبهم •

وكانت المكتبة تضم كتبا كثيرة في المذهب الشيعي • وكتبا في التنجيم والغيبيات • وقد نقلت الكتب الاخرى الى مكتبات خاصة كمكتبة العماد الاصفهاني وغيره •

كان لكل مكتبة عدد من الموظفين يقومون بتنظيم الكتب ورعايتها والمحافظة عليها • فضلا عن خدمة المترددين عليها من طلاب العلم •

وأهم هؤلاء الموظفين الخازن (الامين) والنساخ والمجلدون والمناولون كما كان لكل مدرسة وقف خاص بها يصرف ريعه على الناظر والمدرسين والفقهاء والطلاب وغيرهم • وليس من الضروري أن يكون الوقف المخصص للمدرسة موقوفا من قبل واقف المدرسة بعينه • فقد يوقف الاوقاف لمدرسة من المدارس اشخاص غير الذين بنوها • فاذا كان لها وقف سابق توسع وقفها • واذا لم يكن لها يصبح لها اوقاف تساعد على بقاء نشاطها التعليمي واستمراره ،وخير الامثلة على اوقاف هذه الفترة وطريقة صرفها ،وقف المدرسة الشامية الجوانية • ووقف المدرسة العمادية • ومن هذين الوقفين يتضح انه ليس من الضروري

أن تكون جميع الاوقاف اراضي زراعية ٠ فقد أوقف صلاح الدين على مدرسته الصلاحية حماما بجوارها وفرنا وحوانيت ، فضلا عن جزيرة الفيل بالنيل خارج القاهرة ٠

وهكذا كان للمدارس ميزانيات ثابتة تضمن للمعلمين والمتعلمين فيها مستوى كريما من العيش يجعلهم ينصرفون الى طلب العلم بنفوس راضية مطمئنة ٠ وباعتبار ان أوقاف كل مدرسة تختلف عن الاخرى ، يمكن القول أن المستويات المادية بين المدرسين كانت مختلفة باختلاف سعة وقف المدرسة ٠

يضاف الى ذلك انه في حال كون الوقف زراعيا ، فان انتاج الوقف يتأثر بالاحوال المناخية والافات الزراعية ٠ لذلك قد تمر بعض السنوات على المدرسين تكون حالتهم فيها سيئة ٠

ب – المساجد

لم يقتصر التعليم في هذا العصر على المدارس ، فقد كان يتم ايضا في المساجد تعليم العلوم الدينية والعربية غالبا ، والاجتماعية والعقلية نادرا ٠ وتميز التعليم في المساجد بالحرية المطلقة بالنسبة للمدرسين والطلبة في اختيار المناهج ٠ وخير مثال على التعليم في المساجد الحديث عما كان يجري في هذا المجال في المسجد الاموي ٠

حظيت زوايا المسجد ومدارسه في العصر الايوبي باهتمام وعناية الكثيرين ٠ ووقفت لكل منها الاوقاف الكثيرة ٠ ونال المدرسون بها اجراء واسعا ٠ وألحق بمدارسه مساكن للطلبة والاساتذة ٠ وقد ترك لنا ابن بطوطة وصفا للتدريس في المسجد

في حلقاته كافة ، فقال : وللمسجد الاموي حلقات للتدريس في فنون العلم ، والمحدثون يقرؤون كتب الحديث ، على كراسي مرتفعة ، وقراء القرآن يقرؤون بالاصوات الحسنة صباحا ومساء ، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله) .

ومن أشهر الزوايا التدريسية فيه زاوية المالكية ، وقفها نور الدين للمغاربة الغرباء ، ووقف لها أوقافا كثيرة . ودار الحديث العروية ، والمدرسة التاجية ، والمدرسة الغزالية ، والمدرسة القوصية .

ج ـ الاربطة والخوانق :

الخانقاه بيت الصوفية ومدرستهم . وكذلك الرباط . الا انه بني اصلا بغاية المرابطة للجهاد . كان تعليم الصوفية على قسمين ، قسم اجباري غالبا مايتعلق بالامور الدينية واللغة العربية ، وهي العلوم التي يترتب على الصوفي الاشتغال بها ، ويلزم بحضور دروسها وآخر اختياري يختاره الصوفي بحسب قابلياته واستعداده .

التدريس :

لم تكن هناك طرق معينة للتدريس في المدارس يتقيد بها المدرس ويسير بحسبها ، بل كان يدرس بالطريقة التي يراها مناسبة لطلبته ، مع التقيد فقط بشروط الواقف من حيث المذهب والمواد المقررة . وكان المدرس يحسن القاء الدروس حرصا على سمعته العلمية وبدافع ذاتي . ويجعل مستوى المادة التي يعطيها متناسبا مع مستوى الطلاب . فلا يلقي عليهم مالا يناسبهم من المشكلات ، بل كان يدربهم ويأخذهم بالاسهل ، الى أن ينتهوا

الى درجة التحقيق .

لم تكن ايام الدراسة المقررة واحدة في كل المدارس . فقد كانت تتراوح بين ثلاثة ايام وخمسة من كل اسبوع حسب شروط الواقف ، كما لم تكن مواعيد الدراسة محددة تحديدا دقيقا . اذ لم تكن مواعيد بداية اليوم الدراسي ونهايته واضحة . وكانت الدراسة عموما فيما بين طلوع الشمس وآذان العصر . كما اختلفت العطل الدراسية السنوية من مدرسة لاخرى ، وكانت المدارس عادة تعطل في شهر شعبان ورمضان وعشر من شوال ، وعشر من ذي الحجة ، وأيام الاعياد والتشريق ، ويوم تاسوعا وعاشورا من كل سنة ، تزيد على هذا المقدار قليلا او تكثر عنه . كما كان هناك اجازة عارضة واخرى مرضية .

اعضاء الهيئة التعليمية :

آ - المدرسون : يقف المدرس على رأس هيئة التدريس ، ويشترط فيه العلم التام بمادته ، وحسن الديانة ، والورع والتقى ، كان المدرس في مدرسة من المدارس كأنه جزء منها . يتم تعيينه من قبل واقف المدرسة . ولايمكن ان يحل فيها مدرس جديد عوضا عنه ، الا اذا تنازل المدرس السابق له . اما كليا او جزئيا كأن يتنازل عن ثلث التدريس او نصفه مجانا ، أو مقابل تعويض ، الا في احوال استثنائية .

نال المدرسون مكانة كبيرة في هذا العصر لم يرق اليها غيرهم حتى اصحاب المراكز السياسية والعسكرية ، وأصحاب النفوذ المادي .

كما كان رجال العلم يوجهون النقد اللاذع المجالس العلمية التي يعقدها السلطان . فقد وجه ابن عساكر النقد لمجلس صلاح الدين وشبهه بمجلس السوقة . ورفض حضوره حتى أمر صلاح الدين أصحابه أن لايكون منهم ماجرت به عادتهم اذا حضر الحافظ . كما كان العلماء سفراء الملوك والامراء الى الخلفاء وأولي الامر . وكثيرا ماتوسطوا في فض الخلاف بين الامراء .

وتقديرا للمدرس وثقة به وبأمانته ، فقد كان يسمح له بعدم القاء الدرس اذا لم يكن عنده الاستعداد النفسي أو الجسدي أو العقلي .

درج المدرسون على منح طلابهم الاجازات ، وهي اكثر من نوع . ويهمنا ان نتحدث عن الاجازات العلمية التي ينالها الطالب بعد ان يشعر استاذه بمقدرته وكفايته . وبعد أن يعرضه لاسئلة متعددة ومتنوعة في كتاب يعينه امام جمهور الناس من اهل الفضل والعلم . فاذا استطاع الطالب الاجابة عن كل الاسئلة التي تطرح عليه ، ينال الاجازة من المدرس لا من المدرسة . يكتبها له الاستاذ ويوقعها . وقد ينال الطالب اكثر من اجازة . وكلما زاد عدد اجازاته زادت مكانته العلمية .

ب ـ المعيدون :

يعد المعيد من اعضاء الهيئة التدريسية وهو المدرس الثاني للطالب يعيد الدرس على الطلاب ويتوقف لشرح النقاط أو المشاكل التي لم يتم فهمها من الاستاذ . ويكون اشتراك المعيد في التدريس مع

استاذه بداية لترقيته الى رتبة مدرس • على ان يرحل في طلب العلم •

جـ ـ الطـــــــلاب :

ويطلق عليهم اسم فقهاء المدارس • ولم تكن تشترط ســـن معينة لقبول الطالب في المدرسة • ولكن بعض الواقفين وضـــعوا شروطا فحواها أن تتوفر في طلبة مدارسهم قابلية التعليــــم واتصافهم بالفطنة والذكاء • ويتدرج الطالب في مراحل تعلمــه حتى يصبح فقيها منتهيا • ويختص بعلم من العلوم يؤثره •

لم يكن الرجال وحدهم الذين يتلقون التعليم • فقد نالـت المرآة حظا في العمل التعليمي ، وان لم تتسلم وظيفة التدريس في مدارس • ولعب بعض النساء دورا لايقل آهمية عما قام به الكثير من العلماء والفقهاء ، وتتلمذ على ايديهن الكثير من الطلبة • فقد ذكر الحافظ ابو القاسم بن عساكر ان جملة شيوخه آلف وثلاثمائــة شيخ ونيف وثمانون امرآة •

ثقافة العصر العامة :

أبرز سمات الثقافة في هذا العصر ، الاهتمام بالثقافة الدينية من علوم القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه الاسلامي • وهناك الـى جانب العلوم الدينية ، العلوم اللغوية ، والعلوم التاريخيــــة والاجتماعية ، وعلم الطب ، وعلوم اخرى متفرقة •

آما العلوم العقلية والفلسفية • فلم يتح لها الانتشـــار لموقف الايوبيين منها • ولايعني هذا ان العصر خلا من كل علـم

في هذا المجال ، بل ان الحلقات العلمية لم تتناول هذه المواضيع ، على حين انعزل الفلاسفة ، وصنفوا آثارهم في الكتمان واخفوها عن العوام ، واطلعوا عليها الخاصة من اصدقائهم خوفا على حياتهم .

— المدارس المحدثة في عهد الدولة الزنكية والايوبية :

أصبحت الشام في عهد نور الدين مقرا للعلماء والفقهاء والصوفية وانتشرت فيها المدارس . فقد بنى في حلب المدرسة الحلوية ، والمدرسة العصرونية التي استدعي لها من سنجار شرف الدين بن ابي عصرون وهو من اعيان فقهاء عصره . كما بنى فيها المدرسة النورية ، والمدرسة الشعيبية .

كما زخرت مدينة دمشق بالمدارس مثل المدرسة النورية الكبرى والمدرسة الصلاحية ، والعمادية ، والكلاسة ، ودار الحديث النورية . كما بنى مدرستين في حماه ، ومدرستين في حمص ، وواحدة في بعلبك . ويمكن القول ان عدد المدارس كان قبل عهد نور الدين ست عشرة مدرسة في الشام ارتفع عددها في عهده الى ثمان وخمسين أي بلغ عدد المدارس المنشأة في عهده وحده اثنتين وأربعين مدرسة ، كان نصفها من بنائه شخصيا .

اهتم سلاطين الايوبيين ايضا بالعلم والعلماء . فقد كان صلاح الدين يجمع حوله رجال العلم ، ويحضر مجالسهم ليستمع اليهم ويشاركهم في ابحاثهم ، وكان ابنه الملك العزيز عثمان عالما بالحديث والنحو . أما السلطان الكامل فالحديث عن علمه كثير . فهو يحب أهل العلم ويؤثر مجالستهم ، وعنده شغف بسماع الحديث النبوي . وكان يناظر العلماء وعنده مسائل غريبة من فقه يمتحن

بها . فمن آجاب عنها قدمه ، وحظي عنده . وكان يبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم ...ليسامروه .

وقد برز عدد من العلماء من الاسرة الايوبية غير من ذكر، وعلى رأسهم المؤرخ المشهور ابو الفداء صاحب حماه المتوفى سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م مؤلف كتاب المختصر في اخبار البشر . وكذلك بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ هـ /١٢٣١ م. وكان شاعرا اديبا . والملك الناصر بن الملك المعظم المؤيد الايوبي صاحب اليمن المتوفى سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م وكان من أهل العلم . واشتملت خزانته على مائة الف مجلد ، والملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق المتوفى سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م . وكان راغبا في الادب وأهله ، حتى انه اعطى لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخلعه .

وعلى حين نهض الزنكيون ببناء المدارس في بلاد الشام ، فان الايوبيين قاموا بهذه المهمة في الشام ومصر في آن واحد . وقد جاء التوسع في انشاء المدارس في عهدهم كمظهر قوي لرقي الحياة الفكرية . وقد بدأ صلاح الدين بانشاء مدرستين في حياة الخليفة العاضد الفاطمي . فقد هدم دار المعونة في سنة ٥٦٦ هـ وهي الدار التي كانت تستخدم كسجن يسجن فيه من يراد سجنه ، وجعلها مدرسة للشافعية عرفت بالناصرية . وقد رتب بها مدرسا يدرس الفقه على مذهب الشافعي . وجعل فيها معيدين ورتب للجميع الرواتب الشهرية ، وأوقف لها الاوقاف الكثيرة . وهي غير الناصرية التي بنيت فيما بعد بالقرافة . كما بنى صلاح الدين المدرسة القمحية ،

وسميت بهذا الاسم نسبة الى القمح الذي كانت تحصل عليه من الوقف الذي وقفه عليها صلاح الدين • وبعد سقوط الخلافة الفاطمية ،بنى ثلاث مدارس اخرى ، فصار عدد المدارس التي انشأها في القاهرة وحدها خمس مدارس • كما بنى في بيت المقدس مدرسة عرفت بالمدرسة الصلاحية ، واخرى في دمشق بالاسم نفسه •

وقد حاكى سلاطين الايوبيين بعد صلاح الدين وكبار رجال الدولة والاغنياء كلا من نور الدين وصلاح الدين • ويعدد لنا شلبي المدارس التي بنيت في العصر الايوبي ، ويجعلها احدى وستين مدرسة عدا مدارس الطب •

ومن المميزات التي امتاز فيها الايوبيون في اهتمامهم بالحركة العلمية ، تسامحهم مع مخالفيهم في المذهب والدين • فقد كانت تفتح المدارس للمذاهب الاربعة على الرغم من انهم شوافعة • وزاد تسامحهم عندما اصبح بعضهم كالمعظم وابنه داود أحنافا • وقد تبع ذلك مسالمتهم للصليبيين وحسن معاملتهم للمسيحيين شرقيين وغربيين ، وكذلك لليهود • وقد بدوا أقل تشددا من الزنكيين والسلاجقة مع اتباع المذاهب الشيعية •

وقد يكون ذلك بسبب تغير الظروف الموضوعية حولهم • فقد زال سلطان الفاطميين السياسي ، ولوحق دعاتهم • وما كان يجري من خلاف مع أصحاب المذاهب الاخرى في عصرهم فمرده سياسي اكثر منه ديني •

ويمكن القول في ختام هذا البحث ان هذا العصر كان عصر ثقافة دينية على الغالب ، وأن بلاد الشام تفوقت على مصر انذاك

لعدم قدرة الاخيرة على الملائمة بين تراثها الماضي الفاطمي والقيم والمثل والاهداف الجديدة . وأصبحت بلاد الشام بذلك مركز الثقافة العربية الاسلامية ،تقاطر نحوها العلماء من سائر الاقطار نظرا للتشجيع الذي نالوه من الحكام ، ولتوفر المناصب العلمية في المدارس ، ولجودة واردها نسبيا . اضافة الى توافد الطلبة الذين يتوفر لهم التعليم والجراية من واردات الاوقاف التي اوقفت على المدارس الكثيرة .

٢- الحياة الاقتصادية :

- الزراعة :

انخفضت أهمية بلاد الشام في العصرين الزنكي والايوبي من الناحية الزراعية ، فمعظم السهول الساحلية الخصبة كانت بيد الفرنج الصليبيين ، وأما بقية المناطق فكانت تتعرض لهجمات صليبية بين حين وآخر ، مما آثر في انتاجها الزراعي . وعلى العموم فان معلوماتنا عن اقتصاد بلاد الشام في هذه الفترة ضيئلة . وربما كانت أكثر معلوماتنا عنها مستقاة من كتاب الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة لابن شداد ، الذي يسجل لنا قوائم كاملة عن الضرائب في حلب وحران والرها ومنبج وسروج وبالس ومن كتاب الحسبة للشيزري .

اشتغل غالبية أهل مصر بالزراعة ، التي اعتمدت في العصر الايوبي على ري الحياض . فكانت الاراضي الزراعية تقسم الى حياض كبيرة تغمر بمياه الفيضان مدة كافية ، ثم تصرف تلك المياه

لتبذر البذور . ولذلك فقد كانت أوضاع البلاد الاقتصادية تحت رحمة فيضان النيل . فاذا جاء مستوى الفيضان طبيعيا ، تمكن الناس من زراعة الارض في اطمئنان ، وكان نتاجها مرضيا . واذا حدث العكس ، فيعني ذلك ضعف المحصول وارتفاع أسعار الغلال وحدوث المجاعات وانتشار الاوبئة . ومن أشهرها في العصر الايوبي تلك التي حدثت في عهد السلطان العادل الايوبي . في سنة ٥٩٦ هـ/ ١٢٠٠ م حسب رواية المقريزي . وفي سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م حسب رواية ابي المحاسن . ومايهم في هذا الامر أن نوضح أن سبب المجاعة يعود الى توقف النيل عن الزيادة ، حيث توقفت الزيادة عند اثنى عشر ذراعا وأصابع . فزحف الناس من القرى باتجاه القاهرة . كما فر كثيرون باتجاه البلاد العربية المجاورة كالمغرب والحجاز واليمن والشام . وتمزقوا كل ممزق . وقد دفعتهم هذه المجاعة الى أكل لحوم صغار البشر .

وهكذا يبدو ان الاعتماد في الزراعة على فيضان النيل جعلت الناس تحت رحمة الطبيعة ، وقد حاول الايوبيون تنظيم الري ، فحفروا عددا كبيرا من الترع والمصارف ، ووضعوا من الترتيب مايكفل وصول مياه الري الى مساحات شاسعة من الاراضي . وعهد صلاح الدين الى الامير قراقوش الاسدي بالاشراف على عمارة القناطر والجسور في ذلك العصر على نوعين ، جسور سلطانية تستفيد منها سائر البلاد ، تعهدت الحكومة باقامتها والانفاق عليها . وجسور خاصة بجهة معينة يعود نفعها على تلك الجهة لاغير . ولذلك كان على أهالي تلك الجهة من الفلاحين والمقطعين اقامتها والانفاق عليها.

ساد النظام الاقطاعي في العصر الايوبي ، واستقر في نهاية هذا العصر ، فقد كان على المقطعين أن يؤدوا خدمات اقطاعية ، منها ماهو مالي مثل ضرائب الزكاة والجوالي وغيرها . ومنها ماهو على شكل خدمات مدنية مثل رعاية شؤون الامن في الاقطاع والعناية بالزراعة وصيانة الجسور . وهذا كله فضلا عن الواجبات الحربية .

وعلى الرغم من سيادة النظام الاقطاعي ، فان الفلاح كان محميا من استغلال السادة الاقطاعيين . فكان التوقيع الخاص بالاقطاع في ذلك العصر يأمر المقطع بضرورة الامر بالمعروف ، واتباع العدل ، والمحافظة على الاقطاع وعمارته وحسن ادارته ، اضافة الى حسن الجوار مع زملائه من المقطعين المجاورين له . كما اهتم الايوبيون بالقضاء ليصل كل صاحب حق الى حقه ، ومنعوا أخذ الرشوة من الناس . وزيادة في حماية الفلاح ، حددت الدولة الايجارات والجبايات التي يدفعها الفلاح لسيده الاقطاعي . كما حدت من نفوذ السادة الاقطاعيين وثروتهم من ناحية اخرى .

وعلى الرغم من هذه الاجراءات التي قام بها سلاطين الايوبيين لحماية الفلاحين ، فان قيام السلطان الكامل بالمشاركة في الاعمال الاقتصادية كاستخراج المعادن واستثمار الغابات وزراعة قصب السكر أدى الى مصاعب جمة بعد موت الكامل ، بسبب التداخل بين المشاريع الحكومية والخاصة ، اضافة الى الاختلاس الذي قام به الموظفون عند تراخي الادارة وتغاضيها عن الموظفين .

أشهر المزروعات القمح والشعير والفول والحمص والجلبان والكتان والقرط والبصل والثوم والترمس والكمون والكراوية وقصب السكر والبطيخ واللوبيا والسمسم والقطن والباذنجان والفجل والخس واللفت والكرنب • وكذلك انتشرت زراعة الكروم والنخيل والفاكهة والارز والذرة • كما ربيت الاغنام والجاموس والبقر ، وترتب على اربابها مبالغ معينة مقابل استهلاكها للمراعي •

الصناعة :

اهتم الايوبيون باستخراج المعادن ، فاستخرجوا الزمرد من موضع قرب قوص • وحمل مايتحصل منه الى الخزائن السلطانية • وكذلك استخرج الشب من مواضع بصحراء الصعيد ، حيث تولى الديوان السلطاني استخراجه وبيعه دون سواه • وكان اهتمام الديوان به لكونه من المواد التي يهتم التجار الاجانب في الحصول عليه • كما كلف الديوان السلطاني ضمناء لاستخراج النطرون من الطرانة والناقوسية لحسابه •

تنقسم الصناعة في مصر في ذلك العصر الى صناعة زراعية تعتمد على خامات محلية • ومن قبيل ذلك صناعة المنسوجات والزيوت والعطور ، وصناعات معدنية غالبا ما تكون مستوردة من الخارج ، تركزت خاصة في تنيس ودلاص •

تركزت صناعة النسيج في بعض المناطق مثل تنيس ودمياط والبهنسا واخميم واسيوط • وقد بلغ عدد الانوال في تنيس نحو

خمسة آلاف نول . وقد انتجت هذه المناطق أفخر المنسوجات الجريرية والكتانية والقطنية والصوفية . كما اشتهرت مدينة الفسطاط بصناعة نسيج خاص عرف باسم الفستيان كانت له شهرة خاصة في غرب اوربة في تلك العصور .

ومن الصناعات الاخرى انتشرت صناعة استخراج الزيوت من السمسم والخردل والكتان والقنب والخس . وقد استفيد منها في الاضاءة وفي صناعة الصابون . كما كانت صناعة استخراج السكر من قصب السكر من أهم الصناعات . وكانت كمياتها كافية للاستهلاك المحلي الكبير . ويغطي صناعة الحلوى واسعة الانتشار . كما كان كافيا للتصدير الى الخارج . وقد اتبعت الحكومة الايوبية سياسة الاحتكار في عصر قصب السكر ، فحتمت على المشتغلين بهذه الصناعة عصر القصب في معاصرها العديدة المنتشرة في سائر الاقاليم .

انتظم أرباب الحرف في نقابات تولى كل منها شيخ،وعالجت كتب الحسبة الطرق والاساليب التي اتخذتها الحكومة للاشراف على هذه النقابات ، كيما تتوافر المواد الغذائية في الاسواق ، وتعدل الاسعار . ويتفقد المحتسب الاسواق ، ويقف على ما اتخذه أرباب الحرف من أساليب الغش ، ويحاول منعها ، ويعاقب من يرتكب هذه المخالفات .

التجـــــارة :

نشطت التجارة بين بلاد الشام ومصر منذ توحدتا في عهد الدولة الزنكية ، على الرغم من سيطرة الصليبيين على حصني الكرك

والشوبك • وزاد حجم المبادلات التجارية بشكل خاص بعد أن استعاد صلاح الدين هذين الحصنين وفرض الامن في المنطقة •

اهتم صلاح الدين بالتغلب على المشاكل الاقتصادية التي واجهها اثناء تثبيت حكمه في مصر ، وبخاصة الازمة النقدية التي واجهته سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م ، حيث نفدت العملة الذهبية والفضية من أسواق مصر • وقد أورد المقريزي نصا للقاضي الفاضل يوضح عمق هذه الازمة واثرها في الشعب فقال : (عمت بلوى الضائقة بأهل مصر لان الذهب والفضة خرجا عنها وما رجعا ، وعدما فلم يوجدا • ولهج الناس بما عمهم من ذلك وصاروا اذا قيل دينار احمر ، فكأنما ذكرت حرمة الغيور له • وان حصل في يده ، فكأنما جاءت بشارة الجنة له) • وقد ساعد على وجود هذه الازمة ، حركة المقاطعة الاوربية لتجارة المرور عبر الاراضي المصرية ، اثر تحول نشاط التجار الايطاليين الى موانىء بلاد الشام بعد قيام الامارات الفرنجية الصليبية • الى جانب نضوب موارد الذهب من مناجمه المعروفة في ذلك الوقت ، اضافة الى ارسال صلاح الدين الايوبي لكميات منه الى سيدة نور الدين والى الخليفة العباسي ، فضلا عن توزيع كميات كبيرة بين افراد اسرته •

وقد فطن صلاح الدين الى خطورة ضعف نشاط التجارة الاوربية في مصر ، وآثرها السيء في اقتصاد مصر ، وعلى تمويل حركة الجهاد ضد الفرنج الصليبيين ، ولذلك اتجه على الرغم من الظروف كافة الى الترحيب بالتجار الايطاليين واغرائهم في العودة الى نشاطهم التجاري السابق في الاسكندرية • وقد نجحت جهوده في

هذا الصدد . وظهر ذلك النجاح بالمعاهدات التجارية التي عقدها مع ممثلي البندقية وجنوده وبيزا في سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م واثار ذلك العمل موجة من النقد في العالم العربي الاسلامي ، مما دفع بصلاح الدين الى الكتابة الى الخليفة العباسي مبررا عمله . وأخذ التجار الاجانب منذ ذلك الحين يحرصون على استمرار صلاتهم الطيبة مع حكومة مصر ، وعلى استمرار نشاطهم التجاري معها ، حتى انهم حذروا سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩٠ م صلاح الدين من ان فردريك بربروسا يعد حملة صليبية لمهاجمة املاكه .

كما أصدر صلاح الدين منشورا لتشجيع التجارة جاء فيه : (وخرج أمرنا بكتابة هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر وجميع التجار المترددين اليها والى ساحل المقسم والمنية بأبواب المكوس صادرها وواردها ، فيرد التاجر ويسفر ، ويغيب عن ماله ويحضر ،ويقارض ويتجر برا وبحرا ، مركبا وظهرا سرا وجهرا ، لايحل ماشده ، ولايحاول ماعنده ، ولايكشف ماستره ،ولايسأل عما أورده ، وأصدره ، ولايستوقف في طريقه ، ولايشرق بريقه ، ولايؤخذ منه طعمة ولايستباح منه حرمة . والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العين مائة الف دينار مسامحة لايشوبها تأويل ، ولايتخونها تحويل ، ولايعتريها زوال ، ولا يعتروها انتقال ... قائمة ماقام دين القيمة ...) .

استفادت البندقية من المعاهدة التي عقدتها مع صلاح الدين ، اذ حصلت بوساطتها على اعفاء تجارها من عدة ضرائب مباشرة ومنحتهم حرية مطلقة في الاتجار باللآلىء والاحجار الكريمة والفراء.

وحصلت على حق تعيين قنصل في الاسكندرية ، ونائب له في دمياط يرعيان مصالحها في مصر . فضلا عن تعيين قنصل لها في دمشق وبيروت يرعيان مصالحها في الشام . كما آخذت تصريحا بتشييد كنيسة داخل هذا الفندق وعدد من الحمامات . كما سمحت هذه المعاهدة للبندقية بحماية الحجاج الاوربيين في طريقهم الى بيت المقدس ، اضافة الى تشرف قنصل البندقية بمقابلة السلطان عشر مرات في السنة . كما عقدت جنوه بعد البندقية معاهدة مع صلاح الدين في سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م ، سمح لها بمقتضاها باتخاذ قنصل في الاسكندرية ، يشرف على تجارها المقيمين في المدينة وعلى المترددين عليها . وقد تم تعيين القنصل في الاسكندرية سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٠ م .

لم تؤد وفاة صلاح الدين الى تغيير في العلاقات اذ استمرت في عهد خلفائه . فجدد السلطان العادل المعاهدات مع كل من جمهوريتي بيزا والبندقية ، تضمنت حماية الحجاج في اراضي السلطان، ورعاية التجار البنادقة ، ومنحهم تسهيلات تجارية في الموانيء المصرية . ولم يضع العادل قيدا على التجار الاجانب الا فترة احتدام الحرب مع الفرنج الصليبيين . فقد أوقف ثلاثة آلاف تاجر اوربي في الاسكندرية سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٦ م اثناء الحملة على دمياط ، على حين ان ابنه الكامل فاق تسامحه الوصف . فقد منح البنادقة الامتيازات حتى اثناء الحرب عند دمياط .

وقد أدت علاقات جمهوريات ايطالية التجارية الجيدة مع الايوبيين فترة الحروب الفرنجية الصليبية الى سوء علاقاتهم مع البابا

في روما . فأصدر اوامره بمنع التجارة مع العرب المسلمين . ولما لم يرتدع هؤلاء اكتفى البابا بمنع المتاجرة معهم ببعض المواد التجارية الصالحة للاغراض الحربية . فأصدر قرارا بحرمان ومصادرة متاع كل من يبيع للمسلمين الحديد أو الاسلحة أو الاخشاب التي يجري استخدامها في العمائر البحرية ، أو بناء السفن. وكل من يدخل منهم في خدمة العرب المسلمين قائدا لسفينة أو مرشدا لها .

وهكذا يمكن القول ان التجارة الخارجية كانت نشطة في العصر الايوبي ، فكانت مواد موانئ الشرق الاقصى تصل الى مصر والشام بوساطة التجار الكارمية عن طريق البحر الاحمر خاصة . حيث يصل تجار اوربه . وكدليل على نشاط التجارة بين الشرق والغرب ، يمكن القول ان عدد السفن الراسية في ميناء الاسكندرية ، التابعة للدول الاوربية في شتاء سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٧ - ١١٨٨ م كان سبعا وثلاثين سفينة ، والمعروف أن فصل الشتاء هو أقل الفصول في النشاط التجاري ، مما يشير الى كثرة السفن وازدحامها في الفصول الاخرى .

أما التجارة الداخلية ، فلم تكن تقل نشاطا عن الخارجية ، فكانت مدن مصر عامرة بالمتاجر . فقد توسعت أسواق القاهرة مما بناه سلاطين الايوبيين فيها وامراؤهم . ومن اشهر الاسواق المحدثة فيها سوق المهامزيين وسوق الحملون الصغير ، وسوق البلشون ، وسوق السلاح ، وسوق باب الفتوح . كما زخرت مدن مصر الاخرى بالمتاجر . حتى أن ابن جبير وصف مدن مصر في ذلك

العصر مثل منفلوط وأبي تيج وغيرها ، بأن فيها الاسواق وسائر مايحتاج اليه من المرافق • وقد حقق التجار من وراء عملهم في تجارة الشرق أرباحا هائله وثروات طائلة • فقد بلغت ثروة بعضهم مليون دينار ، وبعضهم الاخر أضعاف ذلك ، وتعذر احصاء ثروة عدد منهم •

تدفقت متاجر الشرق الاقصى الى المدن الشامية عن طريق الخليج العربي وآسية الصغرى ومصر • وشكلت مدن الشام الداخلية مثل دمشق وحلب محطات تجارية بالغة الاهمية ، ماسين الشرق عامة والساحل الشرقي للبحر الابيض المتوسط • وفضلا عن ذلك فان منتجات الشام كانت ذات اهمية فائقة بالنسبة الى التجار الايطاليين ، وبخاصة القطن والسكر والزجاج وغيرها من السلع •

وحرصا من الجمهوريات الايطالية على الاستفادة من المواد المتاجر بها • فقد أبرم البنادقة معاهدة تجارية مع صاحب حلب غياث الدين غازي بن صلاح الدين ، تعهد فيها بتقديم جميع المساعدات الى التجار البنادقة • وحصلت البندقية بموجب هذه المعاهدة على فندق وحمام وكنيسة في حلب ، وتحددت رسوم الدخول والخروج بنحو ١٢ ٪ ، ثم خفضت في عهد الملك العزيز الى ٦ ٪ ، كما منحوا اضافة الى ذلك ضمانات بسلامة ممتلكاتهم في حالة الوفاة أو الغرق• كما أبرم البيازنة معاهدة مشابهة ، وكان لجنوة فندق في دمشق وبيروت •

كانت التجارة تتم ايضا عن طريق الموانئ الساحلية • فقد كانت ناشطة عن طريق ميناء اللاذقية الذي كان في يد العرب ، كما

كانت الموانىء الشامية التي احتلها الصليبيون تمتلىء بالتجارات الشرقية الهندية والافريقية ،وأشهرها على الاطلاق عكا وبيروت التي امتلأت مستودعاتها بالمسك من التيبت والفلفل والقرفة وجوز الطيب والقرنفل والند والكافور والعاج وسائر منتجات الهند ،وكذلك بمنتجات افريقية من عاج وغيره ومنتجات بلاد العرب مثل البخور والتمر والنيلة واللؤلؤ . وقد عجب ابن جبير من هذا الامر حين زار بلاد الشام ،وأشار الى هذه الحقيقة بقوله : (ومن اعجب مايحدث في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الفرنج ، وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين) .

كانت البضائع المتاجر بها تدفع ضرائب يتولى تحصيلها الديوان . وكانت ضريبة الوارد تؤخذ على البضائع التي تباع فعلا . أما التي لم تجد لها سوقا في البلاد فلا يدفع عنها أربابها ضريبة وارد . ويسمح لهم باعادة تصديرها دون دفع رسوم ، على أن لاتكون السلعة حديدا أو خشبا أو قارا ، اذ يتحتم عندها بيعها للحكومة بسعر السوق . أما ضريبة الصادر فيجري تحصيلها على جميع السلع التي يشتريها التجار الاجانب داخل البلاد .

النقود :

سك صلاح الدين الايوبي منذ أسقط الخلافة الفاطمية نقودا باسم سيده نور الدين زنكي والخليفة المستضيء العباسي . كذلك سك دنانير مصرية عليها اسم الملك الصالح بن نور الدين . ثم ضرب صلاح الدين السكة باسمه شخصيا بعد اعلان سلطنته في مصر وبلاد

الشام وباسم الخليفة العباسي . ولما ألمت بالعملة المصرية ضائقة في نهاية القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي / عمل صلاح الدين على رفع قيمتها ، واتخذ بعض الاجراءات الكفيلة بذلك فأمر في سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م بسك درهم تكون نسبة الفضة فيه ٥٠ ٪ من وزنه ، فأصبح الدينار يساوي تسعة دراهم . واستمر بقاء هذه الدراهم حتى سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م .

كما سك السلطان الكامل الايوبي دينارا نقيا كانت نسبة الذهب فيه ١٠٠ ٪ كذلك سك درهما حديدا كانت نسبة الفضة فيه ٦٦ ٪ من وزنه .

وانتشرت في عهد الملك الكامل الفلوس النحاسية . وكانت قيمتها متغيرة . ففي سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م كان الدينار يساوي ٤٥ فلسا ، ثم وصلت قيمته بعد مدة وجيزة وفي السنة نفسها الى ٨٠ ثم ٩٠ ثم ١٢٠ فلسا . مما دعا الملك الكامل الى اصدار مرسوم يحظر فيه التعامل بالعملات النحاسية . كما جدد خليفته الملك العادل الثاني قرار الحظر نفسه سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م .

٣- الحياة الاجتماعية :

كان لظروف الحرب الفرنجية الصليبية اثر كبير في الحياة الاجتماعية زمن السلطنة الايوبية . فقد تغلبت فكرة الحرب والجهاد المقدس على أحاسيس الناس وعلى السلاطين انفسهم . فلم يعد هناك متسع من الوقت لدى الجميع للتوسع في حياة الترف والقيام بالاحتفالات كتلك التي سادت عند اسلافهم الفاطميين وخلفائهم

المماليك . فالمال والجهد والوقت كلها أمور مدخرة وموجهة لقتال الفرنجة الصليبيين . واهتمام صلاح الدين وجه منذ أول ادوار سلطنته الى بناء القلاع والاسوار والحصون والمدارس . فقد بنى في القاهرة وحدها قلعة الجبل وسور المدينة ، اضافة الى تحصينه للثغور الاخرى كدمياط والاسكندرية ، الى جانب القلاع التي بناها في الشام .

وقد وصف لنا ابن شداد ، صلاح الدين الايوبي وصفا دقيقا ، وصور لنا اهتماماته في حياته ، وكلها تشير الى نوع الحياة التي كان يحياها . ومما قاله : (كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما . بحيث ماكان له حديث الا فيه ، ولا نظر الا في آلته ، ولا كان له اهتمام الا برجاله ، ولاميل الا الى من يذكره ويحث عليه . ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه ، وقنع في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة) ولم يكن اهتمامه بمجاهدة الاعداء تتوقف عند هذا الحد ، بل كان يهتم بأخبار من سبقه من المجاهدين ، ليجعلهم قدوة له . ويحب أن يعلم ماقيل في الجهاد قبله . فقد ألف له ابن شداد كتابا جمع له فيه آداب القتال ، وكل آية وردت فيه . وكل حديث روي في فضله ، وشرح له غريبها . وكان يطالعه دائما حتى أخذه منه ولده الافضل . وكان لايبالي بركوب المخاطر من أجل دفع غائلة الفرنجة الصليبيين وقد وضح ذلك لابن شداد في يوم كان البحر فيه هائجا هيجانا شديدا ، وموجه كالجبال يخيف

عظماء الرجال ، ويجعلهم يرفضون ركوبه مقابل ملك الدنيا بكاملها قال صلاح الدين لابن شداد وهو ينظر الى موج البحر : (في نفسي أنه متى مايسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد وأوصيت . وودعت . وركبت هذا البحر الى جزائرهم ، اتتبعهم فيها حتى لا ابقي على وجه الارض من يكفر بالله او أموت) .

وبذلك يمكن القول ان حركة الجهاد كان لها تأثير كبير في الحياة الاجتماعية في العهدين الزنكي والايوبي . فقد دعت هذه الحركة الى اسلام سلفي على صورته في صدر الاسلام دون بدع ولا جدل . وكان عقاب من يظهر شيئا منها أليما . ومن ذلك مايذكره صاحب الروضتين عن شخص يعرف بيوسف بن آدم ، يعيش في دمشق . أظهر الزهد والتنسك والتشبيه ، وجمع حوله اتباعا . فبلغ أمره الى نور الدين زنكي ، فأحضره وأركبه حمارا وأمر بصفعه . فطيف به في البلد جميعه ، ونودي عليه هذا جزاء من أظهر في الدين البدعة . ثم نفي من دمشق . وفي ضوء هذا يتضح لنا السبب الذي جعل الايوبيين يعارضون العلوم العقلية والفلسفية . حتى أن من يتعرض للفلسفة والمنطق وعلم الكلام كان ينفى او يعزل عن التدريس . ومثالنا على ذلك أن سيف الدين الامدي (٥٥٠ – ٦٣١هـ) مدرس المدرسة العزيزية ، شيخ المتكلمين ، عزله الاشرف موسى . وأعلن للملأ أن من يشتغل بعلم الكلام يعرض نفسه للنفي . وطلب من المدرسين ان يشتغلوا بعلم التفسير والفقه والحديث .

وقد فرضت حركة الجهاد وماتبعها الاقتصاد في الحفلات العامة وتوخي عدم الاسراف في الاعياد الدينية . فقد كان صلاح الدين

الايوبي . اول من ركب الى مصر بشعار السلطنة دون اسراف أو مبالغة . كما نصب الاسمطة السلطانية دون اسراف .

وقد فرض الوضع في المنطقة على الحكام والناس الاهتمام بأمر دينهم والتعمق فيه . يدل على ذلك كثرة المصلين والمتعبدين، وكثرة المؤسسات الدينية وعلى رأسها المساجد . حتى ان مدينة دمشق وحدها حفلت في تلك الفترة بمائتين واثنين واربعين مسجدا، اضافة الى المدارس التي كانت الغاية من انشائها دينية ،والخانقاوات والاربطة . وهي بيوت للعبادة ينقطع فيها الزهاد لمباشرة حياتهم الخاصة ، وفق قواعد معينة . ولم يقتصر ذلك على الرجال وحدهم . بل كان هناك رباطات خاصة بالنساء التزمن فيها حياة الزهد ، وواظبن على العبادة مع الالتزام بشدة الضبط وغاية الاحتراز . وقد استخدمت الرباطات النسائية لغايات اخرى . منها أنها جعلت ملاجئ للنساء المطلقات والارامل ،صيانة لهن حتى يتزوجن أو يرجعن الى ازواجهن . فكانت هذه الرباطات تقوم بوظيفة اجتماعية هامة جدا الى جانب صفتها الدينية .

ومع اهتمام العرب المسلمين في تلك الفترة بالديانة الاسلامية فان التسامح والتآخي بين اتباع الديانات السماوية كان ظاهرا . وحظي أهل الذمة بقدر وافر من الحرية في مباشرة طقوسهم و عباداتهم داخل مؤسساتهم الدينية وعاشوا مع اخوانهم المسلمين أخوة متحابين . والدليل على ذلك العدد الكبير من الكنائس التي وجدت داخل المدن والتي ظلت محترمة في عصر زحف الفرنج الصليبيين على بلاد الشام ، وقيامهم بهجمات متكررة على مصر .

نال العلماء والادباء مكانة محترمة في العصرين الزنكي والايوبي ، ولعبوا دورا كبيرا في امور الدولة العامة ، ووجهوا النقد للحكام في السياسة وفي المجالس العلمية . وكان رأيهم مسموعا . فقد زخر مجلس نور الدين زنكي بالعلماء والادباء . وكذلك كان مجلس صلاح الدين . وكان على رأس الحضور الحافظ ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق . وقد اهتم خلفاء صلاح الدين من الايوبيين بمجالس العلم ، وحضروا الدروس العلمية في المدارس وهم سلاطين . فقد حضر السلطان المعظم عيسى بن العادل سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م درس القاضي جمال الدين في المدرسة العادلية .

نالت المرأة حظا وافراً في الحياة الاجتماعية في ذلك الدور ، ولعبت دورا كبيرا كأم ومعلمة . ولم تكن ذلك الانسان المحتجب السلبي الذي لا دور له في الحياة العامة ، ولا عمل له الا داخل جدران البيوت كما يظن بعضهم . وللدلاله على ذلك اورد عبارة ابن عساكر الذي يذكر فيها شيوخه فيقول ، ان حملة شيوخه الف وثلاثمائة شيخ ونيف وثمانون امرأة ، بمعنى ان نسبة كبيرة من شيوخه كانوا من النساء . واذا أضفنا الى ذلك أن كثيرات منهن نلن التقدير ، أدركنا دور المرأة العلمي في هذا العصر . ومن ذلك ان ابن عساكر يلقب ملكة بنت داود بن محمد بن سعيد القرطبي ، الصالحة الصوفية ، بالعالمة . وكانت النساء العالمات اللواتي تصدين للتدريس ، يلقين دروسهن اما بالمسجد الجامع ، أو في البيوت ، أو في أماكن مخصصة .

كانت المرأة تتفقه وتصل الى مرتبة العلماء في البيوت أو في المساجد . فغالبية النساء اللاتي أشتهرن بالعلم والدين نشأن في بيوت علم ودين . وكن يرتحلن في طلب العلم ويحبسن الاوقاف على دور العلم ، وبعضهن سابق الرجال في هذه المآثر . كما شاركت المرأة في تيار التصوف الذي أخذ يشتد تدريجيا في هذه المرحلة . وشاركت في الحياة العامة وفي النشاط السياسي . ومع كل هذا فان المرأة لم تكن تخرج الى الاسواق مبهرجة . وكان خروجها على العموم لحاجة ضرورية . فقد وصف ان جبير النساء بالتحشم ، وخص منهن نساء الصعيد فقال " بأنهن مصانات ويلتزمن بيوتهن ، ولا تظهر احداهن في زقاق من ازقتها البتة .

ومن الظواهر الهامة في المجتمع في هذه الفترة ، ازدياد أهمية العنصرين التركي والكردي ، اللذين أصبحا القوة الضاربة للعروبة وللاسلام ، وجنوده المدافعين عنه وعن ارضه ومصالحه مع عدم نكران دور العنصر العربي .

كثرت الاوقاف في تلك الفترة كثرة واضحة ، وقد عبر ابن جبير عن كثرة الاوقاف الموقوفة على المنشآت الدينية في دمشق بقوله : (ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض بيضاء ورباع . حتى أن البلدة تكاد الاوقاف تستغرق جميع مافيها . وكل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقة ، يعين له السلطان (صلاح الدين) اوقافا تقوم بها وبساكنيها والملتزمين لها ...) .

كانت الاوقاف تضمن موردا ثابتا للمنشآت يضمن لها البقاء والاستمرار في اداء رسالتها دون خشية العوز والافلاس . وكان

لهذه الاوقاف ادارة تشرف عليها ، يرأسها متولي الاوقاف ، الذي كان يشرف على اوقاف المسلمين ويسهر على انفاق أموالها في الجهات المخصصة لها ٠

ومن المؤسسات الاجتماعية التي كثرت في ذلك الوقت السقايات (موضع السقي) أو ماعرف باسم السبيل ٠ وقد كثر هذا النوع من عمل الخير بوازع من شعور ديني عميق ، في كثير من المدن العربية الاسلامية ، وبخاصة المدن التي لها مكانة دينية كمكة وبيت المقدس ٠ وفي الخانات والمحطات والنزل الواقعة على طريق المسافرين والتجار ٠

اما عن تصميم وعمل هذه السقايات ، فيمكن القول انه عبارة عن صهريج تحت الارض يملأ بالماء عن طريق الانهار والقنى المنتشرة في انحاء المدينة ، والتي وقفت عليها أوقاف معينة ، ينفق منها على صيانتها ٠ وفوق هذا الصهريج غطاء من الرخام أو الحجر أطلق عليه اسم خرزة ٠ وربما كانت السقاية فوق بئر ، ثم فوقها المزملة لتوزيع الماء على الراغبين في الشرب ٠ ويقوم الساقي أو المزملاتي برفع الماء من الصهريج أو البئر ، فيجري الماء الى نوافذ ربطت بقضبانها كميزان بوساطة سلاسل ، ليتمكن بوساطتها طالب الماء من الحصول على حاجته ٠ وقد وضعت لهذه السقايات أنظمة ثابتة ، تتضمن سلامة صحة الساقي ونظافة الكيزان المستخدمة في الشرب ، وتحديد أوقات العمل فيها ٠ وتزويد الخزانات المقامة عليها بالماء ٠ وقد امتدت العناية بتوفير ماء الشرب لتشمل الدواب الذي كان اعتماد الانسان عليها في

الحل والترحال . فأنشئت لها أحواض لتشرب منها .

تميزت هذه الفترة بكثرة الحمامات العامة ، ذلك أن الحمامات الخاصة لم تكن موجودة الا في قصور الحكام والعظماء . وقد وصف البغدادي حمامات القاهرة فقال : انه لم يشاهد في البلاد التي زارها أتقن منها صنعة واحكاما لما امتازت به من أرض مكسوة بالرخام الجميل ، وأحواض واسعة يجري فيها الماء الساخن والبارد ومقاصير بأبواب للمستحمين من الخاصة ، حتى لايختلطوا بالعوام ولايظهروا على عوراتهم .

كان في دمشق وحدها مئة حمام على رأي ابن جبير . وكثرة الحمامات في دمشق ظاهرة اجتماعية لها دلالتها . فالمريض يحتفل احتفالا كبيرا بدخوله الحمام . اذ يأتي ذلك اعلانا لشفائه والعروسان يدخل كل منهما الحمام قبل حفل الزفاف ، فيتم ذلك في حفل كبير يعد من الاعياد العائلية الرائعة . ويغادر الواحد منهما الحمام في موكب رائع يحضره الاهل والاحباب .

ويعد الحمام بالنسبة للنساء مكان اجتماع عام يتناقلن فيه أخبار الناس واسرار المجتمع . وتصطحب المرأة معها أفخر ثيابها وحليها لتلبسها بعد الاستحمام ، فتقع المفاخرة والمباهاة . وقد وضعت لهذه الحمامات ضوابط وقواعد تضمن سلامة المترددين عليها وراحتهم .

كان الاشراف على الحمامات العامة يقع على المحتسب ، فيلزم قيمها بغسلها وكنسها وتنظيفها . ودلك بلاطها ، وغسل الخزانة التي يجتمع بها الماء . ويكلفه اشعال البخور في الحمام مرتين

في اليوم • ويمنع الاساكفة من صبغ الجلود في الحمام ، فان الناس يتضررون برائحة الدباغة • كما يمنع المحذوم ومن به برص من الدخول اليه ، ويتعهد الناطور بحفظ ثياب الناس فان ضاع شيء منها التزم بدفع التعويض عن ذلك •

كثرت في أيام الدولتين الزنكية والايوبية الفنادق والخانات والقيساريات • فالفندق موّسسة مخصصة لنزول التجار ، تتألف من عدة طوابق • ففي الدور الارضي توجد المخازن والحوانيت التي تطل على فناء داخلي فسيح ، يسمح بتعبئة البضائع وتفريغها • بينما تضم ادواره العليا مساكن للتجار ينامون فيها ويغلقون غرفهم بأقفال رومية •

كانت الفنادق من أجل التاجر الركاض الذي ينتقل من بلد الى آخر ، ويعتمد على الحركة والرحلة في نقل البضائع من موضع الى آخر • ولذلك كانت هذه الموّسسات مكتملة المرافق المعيشية ، يجتمع فيها التاجر بمن يهمه الاجتماع بهم من اخوانه التجار وغير التجار ، ويجد فيها مايتوق اليه من طعام وماء واستحمام ، ومكان أمين لايداع مامعه من أموال وغيرها • كما احتوى كل فندق على كنيسة صغيره ، وفرن لصناعة الخبز، وحمام وقاعة خاصة صرح لهم فيها بشرب النبيذ •

كان لكل جالية من الجاليات الاوربية فندق خاص بها في مدينة الاسكندرية • كما كان هناك فنادق لتجار الشام والمغرب ولتجار الكارم على طول طريقهم التجاري • ولم يكن يحق للاجانب ملكية الفنادق ، بل كانت ادارة الجمارك بالموانىء (الديوان)

هي الهيئة التي تشرف على هذه الفنادق ، وتكلف السهر على سلامتها ودفع ايجارها واصلاحها . ويشرف على كل فندق موظف يعـرف بالفندقي ، تختاره الجالية التي يتبع لها الفندق . وهو الذي يمثلهم أمام السلطات .

أما الخانات فمفردها خان ، وهو مبنى ضخم يحتوي على مجموعة من الحوانيت الكبيرة والصغيرة ، ومستودعات للبضائع ويتوسط الخان فناء كبير على هيئة رواق مغطى ، حيث يحفظ التجار بضائعهم . والخان كلمة فارسية الاصل قام ببنائها السلاجقة في البداية في اطراف المدن وعلى الطرق الرئيسة للبريد والتجارة لاستراحة التجار . وقد تشيد الخانات لاعمال الخير، ولايواء المسافرين وابناء السبيل .

أما القيسارية فتتكون من مجموعة من المباني العامة بها حوانيت ومصانع ومخازن ، واحيانا مساكن . وبها كذلك اروقة أنشأها التجار وكبار رجال الدولة . وكانت تنشأ للتجـار الاجانب على اختلافهم ، غير ان التجار الاوربيين كانوا يفضلون الاقامة في فنادقهم . وكان في بعض القياسر مساجد لتجار المسلمين ، ويعلوها رباع ذات مساكن خصصت للصناع والتجار مقابل اجر معين .

أما الاسواق فكانت في الغالب متخصصة ، ففي دمشق كان هناك سوق للاساكفة العتق ، وآخر للحذائين . وكان يحرم على أحدهما أن يتعاطى عمل الاخر ، فيحرم على الاسكافي ان يصنع حذاء جديدا ، ويحرم على الحذاء أن يصلح حذاء قديما . وكان

في دمشق سوق كبير للزهور والورود وهو سوق الريحان • وعلى العموم فان الاسواق كانت حافلة بكل مطالب المجتمع من مأكولات ومنتجات وملابس وغيرها •

كان على المحتسب زمن الايوبيين النظر في الاسواق والطرقات ، فيراعي ماينبغي ان تكون عليه الاسواق من الارتفاع والاتساع • وأن يكون بجانبي السوق افريزان يسير عليهما الناس في زمن الشتاء اذا لم يكن السوق مبلطا • كما كان عليه ان يلاحظ عدم خروج الدكاكين عن الرسم الموضوع له • وأن يكون لاهل كل صنعة سوقا يختص به • فمن كانت صناعته تحتاج الى استخدام النار كالخباز والطباخ والحداد ، فيحسن أن تبعد حوانيتهم عن حوانيت ارباب الحرف الاخرى مثل العطارين وباعة الملابس • كما كان عليه ان يعرف مايرد على الاسواق من السلع ، وماتستقر عليه الاسعار • فيجعل لكل صنعة عريفا من صالح أهلها ، خبيرا بصناعتهم ، بصيرا بغشوشتهم ، مشهورا بالثقة والامانة كيما يتولى الاشراف عليهم •

اهتم الايوبيون بالاغراب الذين يفدون الى البلاد • وقد أفاض ابن جبير بالحديث عن الرعاية التي يلقاها هؤلاء سواء في بلاد الشام أو مصر • ونصح متغربة المغرب بسكن دمشق • كما ذكر عناية صلاح الدين بالاغراب الذين يفدون الى الاسكندرية وغيرها من مدن مصر لطلب العلم • اذ أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك • ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم • ووكل بهم اطباء يتفقدون احوالهم • وكذلك جعل لابناء السبيل

من المغاربة جرايات من الخبز وغيره اثناء مرورهم بمصر في طريقهم الى الحج .

كان الاهتمام بالبناء في هذه الفترة عاما . فعلى حين أهتم السلاطين بالمنشآت العامة ، فانهم لم ينسوا الخاصة ،وشاركهم الشعب في ذلك . وعلى سبيل المثال فان مدينة القاهرة زخرت بالدور الضخمة والمنازل الفسيحة والاسواق الممتدة والخوانق الفاخرة. وكذلك كانت مدينتا دمشق والاسكندرية . وغلب على المباني الاجر مع استخدام الحجر في عمارة المساجد والمدارس وبيوت الكبار . كما ارتفعت بعض الدور من طبقتين الى اربع طبقات . وفي كل طبقة مساكن كاملة بمبانيها ومرافقها .

وقد حفظ لنا البغدادي الذي زار القاهرة في العصر الايوبي شيئا عن النشاط العمراني في المدينة . فأشار الى انه اذا أريد بناء ربع أو قيسارية تولى ذلك العمل مهندس . فيقسم الارض الى اجزاء ، ويعمر كل جزء على حده . بحيث يجري الانتفاع به والسكن فيه . ويستمر العمل على هذا النحو حتى تتم عمارة الاجزاء كلها . كما ذكر الاهتمام بالمجاري العامة وايصالها الى الماء الجوفي . فقد كان أرباب الدور يحرصون على ان يمعنوا في حفر المرحاض حتى يصل الى الماء الجوفي فلا يحتاج الى الكسح .

لقي الفقراء والغرباء اهتماما كبيرا زمن الايوبيين ،فمن ذلك أن صلاح الدين تعهد أبناء الفقراء بتعليم القرآن الكريم ، وأجرى عليهم جراية كافية . كما تعهد سائر من يلجأ الى المساجد والمشاهد بالقرافة في القاهرة من الغرباء والصلحاء والفقراء . كما

جعل جامع ابن طولون مأوى للغرباء المغاربة ، وأجرى عليهم الارزاق في كل شهر . وجعل أحكامهم لانفسهم يختارون واحدا منهم يحتكمون اليه فيما يخصهم . كما نال الغرباء في الشام اهتماما ووجدوا الرعاية والعناية ، ووجدوا أعمالا كثيرة تعينهم .

ازدادت ظاهرة التصوف وضوحا في العصر الايوبي ، وكثر بناء منازل الصوفية التي عرفت باسم الخانقاه وجمعها خانقاوات . ويقال أن الخانقاه الصلاحية التي عرفت أيضا باسم خانقاه سعيد السعداء هي أول خانقاه عرفت في مصر . وقد وقفها صلاح الدين على المتصوفة منذ سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م . وولي عليها شيخا عرف بشيخ الشيوخ . ووقف عليها الاوقاف للانفاق على من فيها من الفقراء . ورتب للصوفية في كل يوم طعاما ولحما وخبزا وبنى لهم حماما بجوارهم . وقد شرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين دينارا فما دونها كانت للفقراء ، ولايتعرض لها الديوان السلطاني . ومن اراد السفر منهم جرت اعانته على ذلك .

وقد ترك الصوفية اثرا كبيرا في الحياة العامة ، فكانت لصلاتهم يوم الجمعة مراسيم خاصة يحرص الناس على رؤيتها .ففي كل يوم جمعه يخرجون من الخانقاه الصلاحية الى جامع الحاكم لصلاة الجمعة في موكب جميل ، ويؤدون فريضة الصلاة في موضع أعد لهم ، ويدعون للسلطان صلاح الدين ، ثم يعودون بنظام الى الخانقاه .

لم يكن التصوف مجرد ظاهرة دينية بل ظاهرة اجتماعية . وكانت رعاية هذا العنصر والاهتمام به من اكبر دواعي قدوم كثير من الصوفية في هذا العصر من الاندلس والمغرب وغيرها من المناطق الى مصر أحيانا والشام غالبا فأشاعوا فيها حياة الزهد والتقشف .

- الجيش البري والبحري :

- الجيش البري :

اهتمت الامارة الزنكية بتشكيل جيشها فكان في غالبيته يتألف من فرقة نظامية قوامها عبيد أتراك تم شراؤهم وهم صغار ، ودربوا على يد فرسان يحترفون الحرب ، ثم اعتقوا او منحوا اقطاعات عسكرية تغل عليهم مايعيشون به . وكان الداعي الى منح الاقطاعات للجند هو حاجة الدولة الزنكية الى تجنيد عدد كبير من الجنود بسبب وضع الامارة العام ، وكونها في حالة حرب مستمرة على جميع حدودها ، وبخاصة حدودها مع الفرنجة الصليبيين ، في الوقت الذي لم تكن مواردها تكفي نسبيا لدفع أرزاقهم . الى جانب الرغبة في ربط الدفاع عن البلاد بالمصلحة الخاصة لاصحاب هؤلاء الاقطاعات . وعلى سبيل المثال يمكن القول ان عماد الدين زنكي اقطع العشائر التركمانية المتنقلة أرضا بجوار حلب يسكنونها ويكلفون بالدفاع عنها وعما وراءها . اضافة الى ملكيتهم للاراضي التي يستعيدونها من الفرنج الصليبيين . وفي ذلك قال صاحب الروضتين متحدثا عن عماد الدين :

(ومن صائب رأيه وجيده ان سير طائفة من التركمان الايوانية مع الامير الياروقي الى الشام ، وأسكنهم بولاية حلب ، وأمرهم بجهاد الفرنج ، وملكهم كل ما استنقذوه من البلاد للفرنج، وجعله ملكا لهم • فكانوا يغادرون الفرنج بالقتال ويراوحونهم) •

ومن أجل ذلك كان عماد الدين يشجع على الاقطاع من دون الاملاك فيقول لاصحابه : (فأي حاجة لكم الى الاملاك ، فان الاقطاعات تغني عنها) •

واتخذ الاقطاع شكله النهائي في عهد نور الدين زنكي• اذ أعطى أمراء الجند اقطاعات تتناسب في مساحتها وأهميتها مع عدد الجند الذين يقدمونهم لنور الدين • فقد يكون قطعة أرض فقط ، وقد يشمل مدنا كبرى وحصونا • ويمارس صاحب الاقطاع كل حقوق الادارة في منطقته وبخاصة جباية الضرائب سواء أكانت نقدية أم عينية • وقد اتخذ سجلا بالواجبات المترتبة على أصحاب الاقطاعات من العدة والرجال • وكلف المقطع فلح الارض وسقايتها على الوجه الاكمل ، اضافة الى حفظ الجسور

جعل نور الدين الاقطاعات متوارثة من الاباء الى الابناء شرط ان يؤدي هؤلاء الورثة الخدمات نفسها التي كان يؤديها المقطع الاول • وقد مدح ابن قاضي شهبه هذه الطريقة فقال في ذلك : (ومن أحسن الاراء ماكان يفعله مع أجناده • فانه كان اذا توفى احدهم وخلف ولدا أقر الاقطاع عليه • فان كان كبيرا استبد بنفسه وان كان صغيرا رتب معه رجلا عاقلا يثق اليه ، فيتولى أمره الى ان يكبر • فكان الاجناد يقولون هذه املاكنا

يرثها الولد عن الوالد ، فنحن نقاتل عليها • وكان ذلك سببا عظيما من الاسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب) • واضافة الى ذلك فانه لم يكن يكل الجند الى الامراء ، بل يتولاهم بنفسه ويباشر خيولهم وسلاحهم مخافة ان يقصر الامراء في حقهم ويقول: (نحن في كل وقت في النفير ، لماذا لم يكن أجنادنا كاملي العدة دخل الوهن على الاسلام) •

كان الديوان يشرف على تنفيذ الخدمات المترتبة على الامير المقطع للسلطان سيده • كما كان يثبت أسماء أجناد كل أمير وسلاحهم خوفا من حرص بعض الامراء وشحه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ماهو مقرر عليه من العدد •

كان التقاعس في المعركة والاحجام عن التضحية يستوجب نزع الاقطاع من المقطع • والامثلة على هذا كثيرة • ولنا فيما أورده ابن الاثير في حديثه عن الحملة الفرنجية الصليبية الثانية ، حين فكر بعض الامراء بالعودة خوفا من الخطر الذي يحيق بهم ، نهض شرف الدين برغش أحد أمراء نور الدين وصاحب شقيف منبها الى هذه النقطة التي دفعت الشجاع الى زيادة اقدامه ، والمحجم الى التفكير والتبصر في نتيجة فراره فقال : (من يخاف القتل والاسر فلا يخدم الملوك ، بل يكون في بيته مع امرأته • والله لئن عدنا الى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه ليأخذن مالنا من اقطاع وجامكية ، وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه الى يومنا هذا ، ويقول : (تأخذون أموال المسلمين، وتفرون من عدوهم) •

أهتم الزنكيون بتنظيم جيوشهم ، وسرعة وصول اخبار عددهم ، ومعرفة تحركاتهم ، لقرب أراضيهم منهم . كما حرصوا على حفظ أسرارهم العسكرية . وقد وصف أبو شامة عماد الدين زنكي بذلك فقال : (ومن أحسن آرائه أنه كان شديد العناية بأخبار الاطراف ، ومايجري لاصحابها حتى في خلوتهم ، ولاسيما دركاه (بلاط) السلطان . وكان يعزم على ذلك المال الجزيل . فكان يطالع ويكتب اليه بكل مايفعله السلطان في ليله ونهاره من حرب وسلم وهزل وجد وغير ذلك . فكان يصل اليه كل يوم من عيونه عدة قاصدين . وكان مع اشتغاله بالامور الكبار من أمور الدولة لايهمل الاطلاع على الصغير . وكان يقول : اذا لم يعرف الصغير ليمنع صار كبيرا . وكان لايمكن لرسول ملك ان يعبر في بلاده بغير أمره . واذا استأذنه في العبور في بلاده أذن له . وأرسل اليه من يسيره ولايتركه يجتمع بأحد من الرعية ولاغيرهم . فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولايعلم من احوالها شيئا .

لم يكن نور الدين يقل عن إبيه اهتماما بسرعة وصول الاخبار ، فاستخدم من أجل ذلك الحمام الزاجل ، وأجرى الجرايات لها ولمربيها . وجعل له في كل ثغر رجالا مرتبين ومعهم من حمام المدينة التي تبادرهم ، فاذا رأوا أو سمعوا أمرا كتبوه لوقته وعلقوه على الطائر وسرحوه الى المدينة التي هو منها من ساعته . فتنتقل منه الرقعة الى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين . وهكذا الى أن تصل الاخبار اليه بسرعة كبيرة . وضمن بذلك هجمات الاعداء المفاجئة وغدراتهم .

وقد وضح لنا ذلك ابن الاثير فيما كتبه : (وبنى ايضا الابراج على الطرق وبين بلاد المسلمين والفرنج ، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي . فاذا رأوا من العدو أحدا أرسلوا الطيور . فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لانفسهم فلا يبلغ العدو منهم غرضا . وكان هذا من الطف الفكر واكثرها نفعا ...) .

كما وجه نور الدين اهتمامه الى تحصين المدن الشامية لتبقى حصينة في وجه الفرنجة الصليبيين . ونهض لاعادة هذا التحصين في سنة ٥٦٦ / ١١٧٠ م اثر خراب الاسوار بفعل الزلازل . وكان يقف مشرفا على بنائها ليستعجل الفعلة والبنائين . ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوار كل من بعلبك وحمص وحماه وبارين وحلب ودمشق .

بدأ تشكيل الجيش الايوبي منذ حملة شيركوه الثالثة على مصر . حيث اصطحب معه اليها ألفي فارس من الجند الذين اختارهم من معسكر سيده نور الدين في الشام ، وممن جندهم وكانوا نحو ستة آلاف فارس من التركمان جعلهم تحت آمرة عين الدولة الياروقي . ويمكن أن يضاف الى هذا العدد عساكر شيركوه الخاصة باعتباره صاحب اقطاع حمص . وكانوا يتألفون من خمسمائة مملوك كردي ، اضافة الى اجناده فيها . وبهذا يمكن القول ان جيش نور الدين المرسل الى مصر بقيادة شيركوه كان يتألف من نحو تسعة آلاف جندي . وقد شكل هؤلاء الدفعة الاولى . وحين تولى صلاح الدين الوزارة للخلافة الفاطمية ، وصلته امدادات من نور الدين . وشكلت هذه القوات نواة الجيش الذي اعتمد عليه صلاح الدين في

أعماله العسكرية . ويبدو أن عدد جيش صلاح الدين وصل في سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م الى اثني عشر الفا من الفرسان عدا غلمانهم، ذكرهم لنا المقريزي حين ذكر العرض العسكري الذي اقامه صلاح الدين في السنة المذكورة . على أن الجيش الايوبي لم يظل على حال واحد من حيث الكثرة العددية طوال العصر الايوبي . فقد وصل هذا العدد في سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م الى ثمانية آلاف وستمئة واربعين فارسا بينهم مائة واحد عشر اميرا . ويضاف اليهم ستة آلاف وتسعمائة وستة وسبعون طواشيا ، وخمسمئة وثلاث وخمسون اقره غلامية . ثم انخفض هذا العدد بعد انتهاء مرحلة الجهاد الصلاحي، وعقد صلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م،وعاد ثانية الى الازدياد وارتفعت نفقاته في عهد السلطان العادل ، ومن ثم الكامل حين هددت مصر الحملة الصليبية الخامسة .

ويمكن القول ان بنية الجيش الايوبي في عهد صلاح الدين بقيت كما كانت في عهد نور الدين زنكي مع غالبية عنصر الاكراد على الجيش . وذلك لان التركمان الذين كانوا في جيش أسد الدين شيركوه انسحب غالبيتهم مع فرسانهم احتجاجا على تعيين صلاح الدين في منصب الوزارة . وعوض هذا النقص بما وصل اليه من امراء الايوبيين مع جندهم ، اضافة لما ضمه من مجموعات من الجند الفاطمي من عرب كنانه والامراء أصحاب الاقطاعات في عسقلان ، والذين أقاموا في دمياط عقب سقوط عسقلان في يد الفرنج الصليبيين . كما ضم الى جنده الف وثلاثمئة من الجذاميين. ثم لم يلبث أن صادر اراضيهم في الشرقية ، وألزمهم بالانتقال

الى البحيرة بسبب امعانهم في تكرار تهريب القمح الى الفرنج الصليبيين .

وكانت أشهر فرق الجيش في عهد صلاح الدين الايوبي الاسدية وهم من الفرسان الاكراد التابعين لعمه أسد الدين شيركوه ، والذين بقوا في خدمته بعد وفاة عمه . كما ألف صلاح الدين حرسا له عرفوا باسم الصلاحية ، جعلهم تحت امرة أبي الهيجاء .

اهتم صلاح الدين بتنظيم جيشه واقطاعه الاقطاعات. فكان لكل من كبار الامراء وصغارهم اقطاعات . وكانت تصرف لمماليكهم جامكية أو عطاء معين . او تجعل لهم حصص من احدى الاقطاعات ونفقات مؤن وعليق . وكان الجند ممن لم تثبت اسماؤهم في دواوين العطاء يعرفون باسم البطالين . فقد وزع الاقطاعات منذ كان وزيرا في مصر على آهله والامراء معه . ثم قام في سنة ٥٦٧ هـ بابطال اقطاعات الامراء المصريين والعربان والارمن والعبيد السود . وخص عسكره بمعظم الاقطاعات . فكان نصيب والده من الاقطاع منذ وصوله الى مصر ، الاسكندرية ودمياط والبحيرة . وكان اقطاع البحيرة وحده يدر اربعمئة الف دينار . كما اقطع أخاه توران شاه اقاليم جنوب الصعيد واسوان وعيذاب . ووارداها مئتا الف وستة وستون ألف دينار. ثم زاده في الاقطاع بوش وأعمال الجيزة وسمنود وغيرها . وعندما وصل تقي الدين عمر ابن اخيه الى مصر سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧٢ م ، وكان والد صلاح الدين قد توفي ، تقررت حوالة عساكره في النفقة على كورة البحيرة .

كانت كلفة نفقات الجيش في العصر الايوبي كبيرة ٠ فقد وصلت نفقاته الى ٦٠٠ ر ٦٧٠ ر ٣ دينار من مجموع المصروفات العامة البالغة ١٩٠ ر ٦٥٣ ر ٤ دينارا ٠ وكان راتب الفارس من الطواشية في عهد صلاح الدين يتراوح بين ٧٠٠ – ١٢٠٠ دينار ٠

كان يرأس الجيش الامير الكبير ، ويعد القائد الاعلى ، ويأتي بعده الطلب ٠ وهو الامير المقدم الذي له علم معقود وبوق مضروب وعدة من مئتي فارس الى مئة فارس الى سبعين ٠ وعلى رأس كل طلب امير ٠ وعند المسير الى القتال توزع الاسلحة والزرد والنفقات على الجند ٠ على أن يستحضر كل جندي مايلزمه من كميات المؤن ٠ وكانت تقام سوق للعساكر لشراء مايلزمهم قبل الخروج الى المعارك ويأخذون من أمرائهم رواتب الاقامات الاقطاعية المعتادة ٠

لم يكن صلاح الدين يخرج قواته كافة المرابطة في مصر لمساعدته في حروبه في الشام ، بل كان يترك مالايقل عن نصف العسكر فيها لحفظ ثغورها ، الى جانب انه استطاع بهذه الطريقة ان يبقي في ساحة المعركة مددا من الجند المستعد للقتال ، وأن يعيد من أنهكهم القتال للاستراحة والتجهيز من جديد في مصر ٠

كما اهتم صلاح الدين ايضا بتحصين مصر عاصمتها وثغورها وتقويتها لتكون اكثر قدرة على الدفاع عن نفسها ٠ ولهذا أمر ببناء سور ضخم كبير يحيط بالقاهرة والقلعة والفسطاط ٠ يبدأ عند قلعة المقس المطلة على النيل ٠ وينتهي عند النيل ايضا جنوب مدينة الفسطاط ٠ وقد بني كله من الحجر ٠ وعلى الرغم من أنه بدىء ببناء السور منذ سنة ٥٦٦ هـ وصلاح الدين لايزال وزيرا

للعاضد . فانه توفي قبل ان يتم السور ، فاكمله ابن اخيه السلطان الملك الكامل محمد . كما آمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على نهد من نهاد جبل المقطم لتشرف على الدفاع عن القاهرة وتكون مقرا لحكمها . وقد بدآ في بنائها في سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ - ١١٧٧ م ، وسخر فيه عدد كبير من آسرى الفرنج الصليبيين في حروبه المختلفة .

وفي سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ - ١١٨٣ م لم يكن بناؤها قد تم . اذ لم تنته الا في عهد الكامل محمد الذي كان اول من اتخذها سكنا ومقراً لحكمه . كما نهض بعمارة قلعة تنيس وأسوارها ، ورمم سور دمياط ، وسد مابه من ثغرات ، ورتب المقاتلة في البرجين بها . فبلغت النفقة على ذلك ألف الف دينار . وآشرف على اصلاح سور الاسكندرية وحصنها .

كان الى جانب الجيش الايوبي في مصر جيش آخر في الشام . وقد تكون هذا الجيش من جند الزنكيين في كل مدينة من مدن الشام . فقد انقسمت قوات نور الدين بعد وفاته بين دمشق وحلب وبعض الامارات الصغيرة مثل حمص وحماه وحران . وقد قدر عدد الجنود بالنسبة لدمشق وحلب وحماه مع الحصون التابعة لها بألف لكل منها وخمسمائة لحمص . أما جند الجزيرة وديار بكر والموصل، فقدر عدده بنحو ٦٥٠٠ جندي . كما كانت العساكر النظامية تضم كذلك عددا من الخيالة العرب ، أبرزهم بنو منقذ أصحاب شيزر .

كانت هذه القوات تشكل مجموع قوات الشام النظامية ،وتزيد على عشرة آلاف ، وهي غالبا من الرماة وحملة الرماح . وقد ضمت

الى جانبها قوات مساعدة من الفرسان والرجالة تجمع حين الحاجة ، وغالبا ماتكون من التركمان . مثال ذلك أنه قبل قيام صلاح الدين بالهجوم على قلعة مخاضة يعقوب سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٩ م أرسل إلى التركمان وعشائرهم والى الاطراف يجمع منهم الجيوش . وأرسل اليهم الاف الدنانير المصرية لتوزيعها على جموعهم . ودفع لهم نفقات مقابل خدمتهم ، باعتبارهم قوات مساعدة . وأمر باعداد كميات كبيرة من الدقيق لهم ، اضافة الى الحاجيات الاخرى . كما اعتمد على بدو بعض مناطق الشام – عدا البدو في جنوب فلسطين وشرقي الاردن الذين كانوا مصدر ازعاج دائم – الذين زودوه بامدادات عسكرية لمهاجمة الاعداء . وقد اعتمد عليهم في حروب سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٩ م ، حيث كان يسيرهم الى صيدا وبيروت ، ليعملوا على حصد غلات العدو ، ومايبرح مكانه حتى يعود بجمالهم واحمالهم موثقة باثقالها . كما ساهم البدو بتقديم الخيالة والعساكر لصلاح الدين اثناء حروبه النهائية مع ريتشارد قلب الاسد على طريق القدس .

وقد استخدم صلاح الدين عنصر الصناع ، كالحجارين الذين كانوا يقومون على المجانيق والعرادات . والنقابون الذين كانوا ينقبون تحت الاسوار ، وترد نسبتهم في النصوص غالبا باسم " النقابين الحلبية " . وكان الخراسانية يحاربون في الدبابات ويرد معهم اسم الجاندرية ايضا . ويمكن أن نضيف الى هؤلاء جميعا المشرفين على النار التي ترمى على ابراج العدو المحاصر .

كانت الدروع والاسلحة المودعة في الزردخانة توزع على العساكر ، وتلبس قبل القتال مباشرة . ولذلك فان الهجوم على حين غرة يوّدي الى مفاجأة العسكر فعلا ، وهم عزل دون سلاح . ولم يكن الفرسان يستطيعون الابتعاد عن اثقالهم التي كانت تضم ميرتهم ودروعهم . وكانت ترسل أحيانا جرائد (حملات صغيرة) بدون اثقال وبدون دروع ثقيلة للفرسان .

الجيش البحري :

كان الاسطول في حالة سيئة عند قيام الدولة الايوبية ، بسبب الخلل الذي أصاب جميع أجهزة الدولة في أواخر العصر الفاطمي . اضافة الى فقدان جزيرتي قبرص وكريت وهما قاعدتان اماميتان للاساطيل الاسلامية في الشرق المتوسط . وزاد في ضعفه استيلاء الفرنج الصليبيين على معظم موانىء الشام .

أدرك صلاح الدين أهمية وجود اسطول قوي بالنسبة لموقفه من الفرنج الصليبيين ، فعهد الى ديوان الاسطول بالاشراف والانفاق عليه . وخصص لذلك الديوان موارد هامة منها ، متحصلات اقليم الفيوم وحصيلة النطرون وايراد ديوان الزكاة . كما لجأ الى احضار جميع المواد اللازمة لبناء السفن . فعقد معاهدات تجارية مع الجمهوريات الايطالية ، حصل بمقتضاها على حاجته من الحديد والخشب والشمع . كما نهض بفتح القيروان فهيأ له ذلك الوصول بسرعة الى غابات شمال افريقيه ، ووصول كميات من الخشب اللازم لبناء السفن ،وكسب عددا من بحارة شمال افريقية للعمل

معه في الاسطول .

ولم يلبث الاسطول الايوبي أن أصبح قوة ضاربة يحسب حسابها منذ سنة ٥٧٥ هـ قوامها ثمانون قطعة منها ستون من الشواني وعشرون طراده . وقد استخدم نصف هذا الاسطول لحماية شواطىء مصر والدفاع عنها . ونصفها الاخر في مهاجمة الفرنج الصليبيين في موانيهم في الشام ، وأخذ صلاح الدين يشجع الناس على الخدمة في الاسطول ، فرفع راتب البحارة في سنة ٥٦٨ هـ /١١٧٢ م نحو ٢٠ ٪ فأصبح $\frac{٣}{٤}$ الدينار بعد ان كان $\frac{٥}{٨}$ الدينار .

وقد بدأ خوف الفرنج الصليبيين واضحا من نمو البحرية في عهد صلاح الدين . وقد عبر وليم الصوري عن هذه المخاوف بقوله : (ان نور الدين يستطيع أن يوقف نمو مملكتنا بما يرسله من سفن عديدة من مصر . يضاف الى ذلك أنه يستطيع بهذه السفن أن يحول دون قدوم الحجاج إلينا) .

وأول خدمة اداها الاسطول الايوبي لصلاح الدين وهو يجوب البحر المتوسط بالقرب من قبرص ، اعلام صلاح الدين عن قوة بحرية بيزنطية توجهت الى فلسطين في سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م ليستعد لمجابهتها . وبذلك تحققت أول رسالة لاسطول صلاح الدين .

ثم قام الاسطول بعمليات حربية وتوغل في البحر منذ سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٩ م الى أطراف بيزنطة والى قبرص وكريت والسواحل الجنوبية لاسية الصغرى . وهبط الغزاة مرات عديدة بساحل الشام ، وانزلوا خسائر فادحة بالنشاط التجاري والحربي بهذه الجهات . كما هاجم ميناء عكا الذي كان بيد الفرنج الصليبيين . ووصف

أحد المؤرخين هذا الحادث قائلا : (... ان ما قام به هذا الاسطول من العمل ، لم يقم به أسطول اسلامي في سالف الدهر ، لا في حالة قوة الاسلام ولا ضعف كافر) . كما ساعد هذا الاسطول على استعادة جزيرة ارواد من الفرنج الصليبيين ، ومضايقة مدينة طرطوس منها

استخدم صلاح الدين أسطوله ايضا في الرد على ارناط صاحب حصن الكرك حين انزل اسطوله في البحر قرب ايلة سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م لغزو الحجاز . وشرع في مهاجمة الموانئ المصرية مثل عيذاب ، وقد اثبت الاسطول الايوبي في مصر جدارته ، وقضى على هذا الهجوم . كما اشترك مع القوات البرية في مهاجمة بيروت . وساعد صلاح الدين بعد موقعة حطين في الاستيلاء على بعض الموانئ الهامة في الشام .

لم ينهض خلفاء صلاح الدين بالاهتمام بالاسطول وتنميته مما ترتب عليه ضعف شأنه في عهدهم وعهد المماليك من بعدهم. وقد أوضح لنا المقريزي ذلك بقوله . فلما مات السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب ، استمر الحال في الاسطول قليلا . ثم قل الاهتمام به ، وصار لايفكر في أمره الا عند الحاجة اليه . فاذا دعت الضرورة الى تجهيزه طلب له الرجال ، وقبض عليهم من الطرقات وقيدوا في السلاسل نهارا وسجنوا في الليل حتى لايهربوا ولا يصرف لهم الا شيء قليل من الخبز ونحوه . وربما أقاموا الايام بغير شيء كما يفعل بالاسرى من العدو . فصارت خدمة الاسطول عارا يسب به الرجال . واذا قيل لرجل يا اسطولي

غضب غضبا شديدا بعد ماكان خدام الاسطول يقال لهم المجاهدون في سبيل الله ، والغزاة في اعداء الله ، ويتبرك الناس بدعائهم)

وقد أحسّ سلاطين الايوبيين الاخيرين وعلى رآسهم الصالح نجم الدين ايوب بأهمية الاسطول بعد أن تعرض للهجمة الفرنجية الصليبية السابعة سنة ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م ، فترك لابنه وصية يذكر له فيها ضرورة الاهتمام بالاسطول الذي عده أحد جناحي الاسلام ،وذلك بضرورة زيادة مرتبات رجاله ، فيأتون من كل فج عميق .

عانى الجيش في العهد الايوبي من نقاط ضعف على رأسها فقدان الوحدة بين عناصره . اذ تكون من جماعات متنافسة عصبيا . فقد عد الاتراك انفسهم آسيادا والاكراد عبيدهم ، انتزعوا منهم الامارة والسيادة .

وقد بدا ذلك واضحا حين زحفت عساكر الموصل ضد صلاح الدين أول مرة سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م . فقد حقروه وسخروا منه قائلين : (هذا كلب يعوي على سيده) . ثم قال له أحد الموصليين من عرفاء الجيش وهو يساعده في ركوب حصانه اثناء الدفاع عن القدس : (ماتبالي يا ابن ايوب أي موتة تموت، يركبك ملك سلجوقي ،وابن آتابك زنكي) .

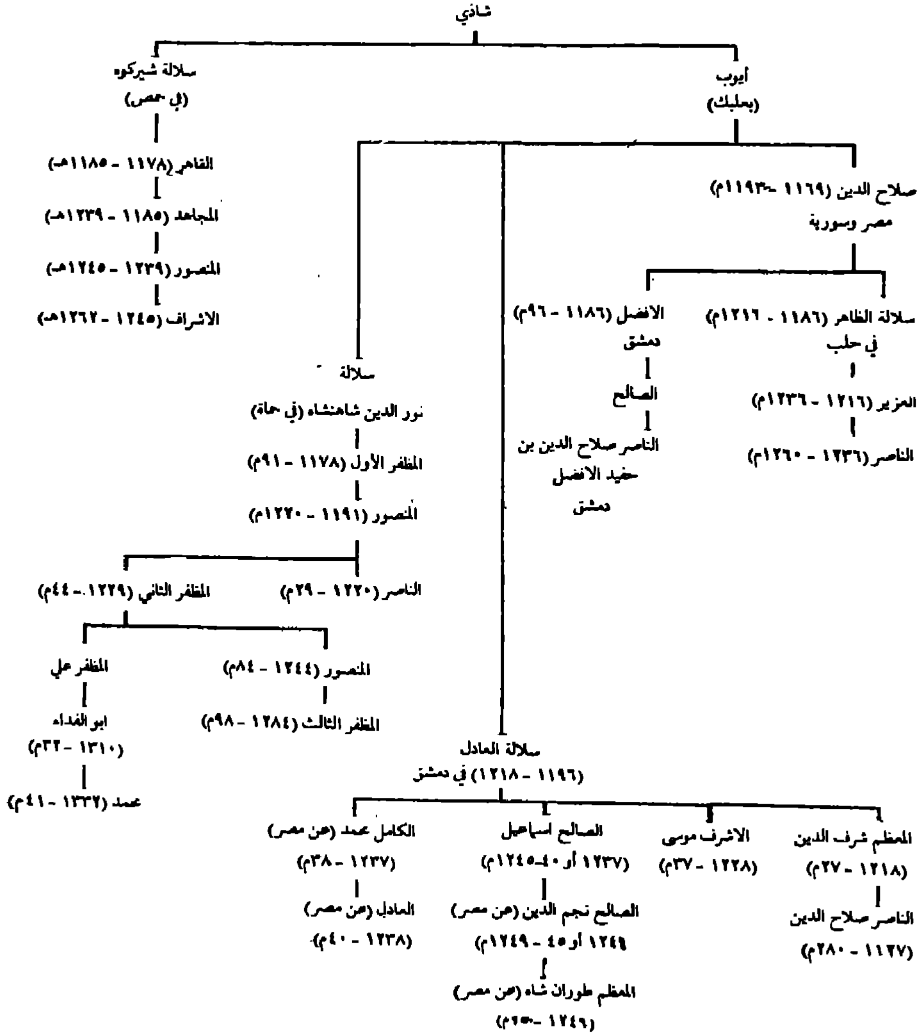
كما تعصبت جماعات الجيش على أساس التبعية لامير من الامراء او لسلطان من السلاطين بشكل خاص . اذ شعر هؤلاء بان مكانتهم تنتهي بموت سلطانهم لتحل مكانهم جماعة السلطان الجديد . ولذلك تكتلت كل جماعة دفاعا عن مصالحها . وقد آسهم تعصب

هـذه الكتل في الاضطرابات التي تلت وفـاة صـلاح الدين . ومن هـــذه الفرق المسـمـاة بأسـمـاء أسيادها ، الاسـدية والصلاحيـة والعـادليـــة والكاملية والاشـرفية .

واضافـة الى ذلك فـان الاسـطول البحري عـانـى في عهـد صلاح الديـن من قلة البحـارة على الرغـم من اسـتخدامة للمغـاربـة فـــي اسـطولـه .

الملحق (١)

الشجرة الأيوبية



الملحق (٢)

شجرة نسب ملوك الايوبيين في حماة

شجرة نسب ملوك الايوبيين

في حماة

نور الدين شاهنشاه (اخو صلاح الدين)

↓

١) المظفر الاول تقي الدين عمر (١١٧٨ – ١١٩١م)
(٥٧٣ – ٦١٧ هـ)

↓

٢) المنصور ناصر الدين محمد (١١٩١ – ١٢٢٠م)
٦٢٧ – ٦٤٢ هـ)

٣) الناصر صلاح الدين
(١٢٢٠ – ١٢٢٩م)
(٦١٧ – ٦٢٧ هـ)

٤) المظفر الثاني تقي الدين
(١٢٢٩ – ١٢٤٤م)
(٦٢٧ – ٦٤٢ هـ)

٥) المنصور سيف الدين
(١٢٤٤ – ١٢٨٤ م)
(٦٤٢ – ٦٨٣ هـ)

(المظفر علي)

↓

٦) المظفر الثالث تقي الدين
(١٢٨٤ – ١٢٩٨ م)
(٦٨٣ – ٦٩٨ هـ)

٧) المؤيد ابو الفداء
(١٣١٠ – ١٣٣٢م)
(٧١٠ – ٧٣٢ هـ)

↓

٨) الافضل محمد
(١٣٣٢ – ١٣٤١)

المحتـــــــــــوى

================